معروف الرصافي

حياته وبيئته وشعره

تأليف

دكتور بدوي طبانة

أستاذ النقد الأدبي المساعد

كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

[مزيدة منقحة]

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

معروف الرصافي

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية

تأليف

دكتور بدوي طبانة

أستاذ النقد الأدبي المساعد

كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

[مزيدة منقحة]

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بمطبعة السعادة

سنة ١٣٦٦ هـ = سنة ١٩٤٧ م

وطبعت هذه الطبعة الثانية بمطبعة الرسالة

سنة ١٣٧٦ هـ = سنة ١٩٥٧ م

مطبعة الرسالة

شارع محمود المقابل ٣ عابدين

تصدير

بقلم

الدكتور محمد رضا الشبيبي *

تعد المرحلة التى اجتازها هذا الشرق القريب خلال الخمسين سنة الماضية من أحفل مراحل حياة الشرق بما جرياتها وكوائنها وأحداثها الجسام ، ويحسب عصرنا المذكور من عصور الانتقال ، تحولت فيه البلاد من حال إلى حال وتطورت مظاهر الحياة فيها على اختلافها من حسية ومعنوية . وفى هذه المرحلة دالت دول ، ونشأت على أنقاضها دول أخرى ، وزالت نظم قديمة ، مألوفة فى الحكم والثقافة ، ووجدت نظم حديثة فى هذا الشأن .

ومجمل القول لهذه الفترة ميزاتها ، وحسبنا منها أنها فترة نشبت فيها حروب عامة ، لم يشهد لها هذا الكون مثيلا ، وميزة أخرى خطيرة لهذه المرحلة التاريخية ، هى هذا الوعى القومى ، وتلك اليقظة الشعبية العامة ، إذ رأينا هذه الشعوب العربية بل الشرقية ، تعج بالشكوى ، وتضج من الفساد والفوضى ،

---

* السيد محمد رضا الشبيبي من أقطاب الحركة الفكرية والنهضة الوطنية فى العراق ؛ وفى طليعة شعرائه ؛ ولى وزارة المعارف مرات كثيرة ، وانتخب رئيساً للمجمع العلمى العراقى ، ورئيساً لنادى القلم فى بغداد ، وعضواً فى المجمع العلمى العربى فى دمشق ، وعضواً عاملا فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية فى اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية من جامعة القاهرة ، وانتخب عضواً فى المجلس الأعلى لمعهد المخطوطات فى الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ؛ ومن الأعضاء البارزين فى مجلس الأعيان العراقى .

تجسم لها الداء ، وعرفت الدواء ، فهي تلحف مطالبة بالإصلاح ونشدان العدل ، وتتذمر مما أصابها من تأخر وضعف ، وتود لو أنها جارت الأمم الناهضة في أخذها بأسباب التقدم والفلاح .

وقد أصبح هذا الوعي عاما ، والشعور الحي ساريا في جميع الطبقات ، خصوصاً في بعض هذه الأقطار ، وكان النابهون من شعراء هذه الفترة الطويلة وأدبائها أكثر تلك الطبقات وعياً ؛ وأعمقها شعوراً بما تعانيه تلك الشعوب من آلام ، أو ما يعتلج في صدور أبنائها من آمال ، فكان التجاوب تاماً ظاهراً للعيان بين هذه الطبقة النابهة من الشعراء والأدباء ، و بين تلك الشعوب الشاكية المتألمة ، بل هو كالتجاوب بين الصدى والمحكي من الأصوات . ولم يدخر أولئك الشعراء وسعاً في الإفصاح والبيان عما يجيش في أعماق النفوس ، وقرارات القلوب ، وقد تسنى للقوم أن يصوغوا من تلك العواطف الثائرة كلاماً حياً يغذي الأرواح ، و يشيع فيها القوة والنشاط ، و يبعث الأمل والرجاء .

ومن البديهي والحالة هذه أن يكون أولئك الشعراء والأدباء من طبقة المجددين المبدعين ، ومن المسلم به كذلك أن تهمل مقاييس القدماء ، وموازين المقلدين الذين يوازنون فيها بين الجيد والرديء من القول أو الغث والسمين من الكلام ، وما كانت تلك الموازين والمقاييس القديمة البالية ، إلا هذه الصناعات اللفظية ، والمحسنات البديعية ، هذا من جهة الألفاظ . و إلا هذا الشعور المصطنع والعاطفة الكاذبة : غلوا في المدح ، و إقذاعاً في الهجو ، وهذا من جهة المعنى ، إلى غير ذلك . لهذا أنف المجددون من شعراء الفترة المذكورة وترفعوا عن المحاكاة والتقليد ، فجاء شعرهم شعوراً صحيحاً بعظمة الماضي ، وتصويرا واضحا لهوان الحاضر ، ودعوة للخلف إلى ترسم خطا السلف الصالح ، وقد سجلوا في قصائدهم كوائن الفترة ، وأحداثها الجسام ، على اختلاف أشكالها

من سياسية واجتماعية ، وغير ذلك . ومجمل القول بعد أن كان الأدب فى القرون الأخيرة ضربا من التصنع والمبالغات والأخيلة الباطلة أصبح فى الفترة المذكورة فناله رسالة سامية .

كثر عدد النابهين من هؤلاء الشعراء فى عصرنا المذكور ، وذلك فى جملة البلاد العربية ، فكان منهم فى مصر مثلا إسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ، كما كان منهم فى الشام شكيب أرسلان ، وعبد الحميد الرافعى وغيرهما من أعلام الشعر والأدب فى سوريا ولبنان ، أما فى العراق فقد نبغ رهط من الشعراء وفى مقدمتهم جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى الشاعران الأشهران فى هذه البلاد .

* * *

وهذا الشاعر — أعنى الرصافى — خليق بالدرس ، وتجريد كتاب خاص يتكفل بنقد شعره وأدبه والبحث فى سيرته وحياته ، بل لا يستكثر تجريد أكثر من كتاب واحد فيه . إذ هو فى مقدمة أولئك الشعراء الماضين إحساساً بما عاناه الشرق والشعوب العربية المستظلة براية الهلال من آلام ، وما حالت فى صدورها من آمال ، وقد أجاد فى التعبير والتصوير ناقلا ما شهده جيله من المآسى إلى الأجيال القادمة ، فقد ولد ونشأ وعاش فى الفترة المذكورة ، ولابس ما جرياتها وأحداثها ، أدرك ثورة شباب الترك على الطغاة من سلاطين بنى عثمان ، بل كان له ضلع فى دعوتهم إلى إذكاء تلك الثورة ، وقد اتصل بزمرة من القادة الذين حالفهم الظفر فى قلب نظام الحكم البالى فى بلاد الدولة .

تشبع الرصافى وهو نزيل القسطنطينية بروح تلك الثورة ، وانتحل مبادئها على علاتها ، ومال إلى مشارب قادتها المذكورين ، ولا غرو فإن الرصافى كان يومئذ فى عنفوان شبابه وفتوته ، وللسن ما لها من دخل وتأثير فى هذا الشأن .

ومن الخطأ ظن من يظن أن ثورة الأتراك المذكورة كانت مقصورة على قلب نظام الحكم فحسب ، بل هى ثورة عامة على سائر نظم البلاد ، غايتها قلب النظم الاجتماعية قبل نظم الحكم السياسية ، وقد حذا فريق من قادتها حذو أمثالهم فى فرنسا وقلدوهم تقليداً تاماً ، ورموا إلى ما رموا إليه من أهداف فى الثورة الفرنسية الكبرى ، فما كان غريباً جريئاً من آراء الرصافى ومثله الزهاوى — ولا شك أن للشاعرين آراءهما الغريبة أو الجريئة — فإن مرده على الأكثر إلى تأثرهما ببعض الغلاة المتأثرين بفلسفة الثورة الفرنسية ، وكان هذا الفريق من الغلاة يبيتون ما يبيتونه للإسلام ، ويتآمرون على نظم الحياة الروحية ، والثقافة الإسلامية ، وفيهم من يزعم أن الدين آفة الشرق، وأن تمسكهم بالإسلام علة العلل فى تأخرهم وعجزهم عن مجاراة الشعوب الغربية الناهضة .

لم يكن الثوار كلهم — والحق يقال — على هذا الغرار ، بل كان ولم يزل فيهم عدد غير قليل من الزعماء والقادة ، يعد نموذجاً فى الغيرة على الشريعة السمحاء ، والتفانى فى سبيل الإسلام ، والعطف على أمانى الشعوب الشرقية ، والشعب التركى ، ولا سيما الجيل الذى أدركناه ، من أوفى شعوب الشرق للعقيدة الإسلامية ، ولهذا ادعى بعض الباحثين أن رهطا من أولئك الغلاة الملحدين مدسوسون ، لا يمتون إلى السلالات التركية الصريحة بسبب من الأسباب .

هذا وقد انبعث عن شطط القوم ما انبعث من تحزب وشقاق بين الأتراك أنفسهم فضلا عن غيرهم فتفرقت الكلمة ، وتعددت الأحزاب ، وآل ذلك أخيراً إلى كثير من المآسى والكوارث المعروفة فى تاريخ الدولة العثمانية .

والخلاصة : كان الرصافى معدودا فى هذه الفئة الثائرة الغالية فى ثورتها ، كما تدل على ذلك جملة من آرائه المبثوثة فى كتبه المنظومة والمنثورة ، كما أنه قد أتقن لغة الأتراك واطلع على أدبهم نظما ونثرا ، واندمج فى البيئة التركية وخالط

سائر الطبقات فيها ، ولا سيما رجال الفكر والسياسة ، مجارياً القوم فى آرائهم ومذاهبهم الحديثة من سياسيه وفلسفية . ومما لا شك فيه كذلك أن الرصافى كان يكثر من التردد على مجالس القوم ، ويغشى أنديتهم ومعاهدهم الخاصة والعامة ، ويصغى إلى ما يدور فيها من جدل عنيف فى القضايا المعضلة ، التى كانت شغلا شاغلا للناس فى مناحى السياسة والاجتماع ، فأصبحت هذه البيئة الجديدة التى اندمج فيها وتأثر بروحها مصدراً من مصادر إلهامه وثقافته . وقد تيسر له ما لم يتيسر لغيره ، فاستطاع أن يفرغ آراءه وأفكاره الثورية الحديثة فى قوالبها العربية القديمة ، ولا عجب فإنه تخرج فى علوم اللغة العربية على أشهر المتخصصين فيها من علماء بغداد ، وذلك قبل نزوحه إلى الآستانة .

نحن لا ننكر أن الثوار كانوا على حق فى كثير من بواعث الثورة وأسبابها ومنها ذلك الجمود السياسى والجفاء الروحى ، اللذان اشتهر بهما الأتراك القدماء ، وهما من أثقل الأدواء فى هذا الشرق بأسره ، ومنها تفريط السلاطين والحكام بحقوق الشعوب المحكومة ، ولذلك قوبل إعلان الثورة على هذا الشكل بالتهليل والتكبير فى جميع بلاد الدولة ، وغمرت الجمهور هنا موجة من الغبطة والحبور ليس لها مثيل ، حتى إن كاتب هذه السطور قد اندفع إلى تأييدها وتأييد الحزب الذى قام بها إلى حد بعيد ، كما اختير فى أوائل من اختير من أعضاء ذلك الحزب العاملين فى العراق . ولكننا ننكر أشد الإنكار غلو الغلاة ، وإفراط المفرطين ، والخروج عن الصدد فى تقويض أسس الحياة الاجتماعية الراسخة فى البلاد .

* * *

لا بد للأمم فى مهب الأعاصير من التماسك أو التمسك بأمراس النجاة ،

وما هى إلا المحافظة على دساتيرها فى الدين والأخلاق وفى العادات الحميدة .

ومجمل القول لا مناص للشعوب الفتية الناهضة فى عصور التحول والانتقال من المحافظة على مقومات حياتها ، ومشخصات وجودها ، وشعائر معتقداتها إلى غير ذلك من أخلاق وأوضاع صالحة . وقد ثبت على الأغلب أن الطفرة غير مأمونة ، ولها ما لها من عواقب وخيمة .

استساغ الرصافى ما استساغ من آراء تلك البيئة الثائرة على علاتها ، وجاهر بما جاهر به من شك وارتياب فى بعض الأصول الاعتقادية ، التى لا مجال للشك فيها عند جمهور المسلمين ، وكان رائده فى ذلك حرية القول والرأى والاعتقاد وهو يدين بهذه الحرية ، ويقدسها التقديس كله ، بل كان الرصافى ومثله الزهاوى ، يريان فى الجهر بآرائهما من هذا القبيل ، ضربا من الجرأة والإقدام ، ويعتقدان فى الصمت نوعاً من الجبن والرياء ، إلى هذا ونحوه مما أسخط عليهما رهطا من رجال العلم والدين ، وأحفظ كثيراً من الأدباء المعروفين بأصالة الرأى والاتزان فى غير قطر من هذه الأقطار العربية .

غير أن الناظر فى ديوان الرصافى يجد فيه إلى جنب ذلك أقوالا تدعو إلى الرفق فى مقاضاته ، والتأنى فى مؤاخذته ، ومن هذه الأقوال ما يدل على الإيمان واليقين . وتنزيه البارى (جل اسمه) فضلا عن الإقرار بربوبيته ووحدانيته ، وبين أيدينا وصية للرصافى هى آخر ما وجد له مكتوباً بخطه قبيل وفاته ، وقد شهد فيها أنه ميت على دين الفطرة ، فأى جدوى لنا بعد ذلك فى غمزه ، والطعن فيه من هذه الناحية ؟

أما الإسراف فى المجون ، ومقارفة المعاصى ، ونحو ذلك فلهما فى الشريعة

حكم آخر كما لا يخفى . وليس من شأننا التطرق إلى هذه الجهة ، ولم تكتب هذه الكلمة من أجل الخوض فى هذا الموضوع .

وعلى هذا لنا أن نعد الرصافى ممن خلط الحسنة بالسيئة فى أدبه ، وقد رضى لنفسه تخطى الحدود ، ولم يعرف لينا أو هوادة فى نقده وسخريته وهجوه المقذع ، فكان كالريح إذا هاجت عاتية نكباء تأتى على ما مرت به من رطب ويابس ، أو هو كالحجر الصلد فى اندفاعه من شواهق القنن تهشيما لما يقع فوقه ، وتحطيما لمن يقف فى طريقه .

وشعره طافح بالعبث والمجون ، قلما سما به عن مستوى الحياة المادية ، ولا بدع فهو من الأدباء الذين يجنحون بأدبهم إلى الواقع ، ويخاطبون به العقول ولا شأن لهم فيه بمخاطبة القلوب ، ولا بمناجاة المثل العليا .

وليس من الحكمة فيما أرى نسج من ينسجون فى الآداب الرفيعة والفنون السامية على هذا المنوال ، فالحكمة هى الاعتدال والاقتصاد فى كل شىء ، وتجنب الإفراط والتفريط . وخير المذاهب الأدبية توسط ذويها بين السبح فى عالم الأوهام والأخيلة الباطلة ، وبين التمرغ فى حمأة المادة . وقد انفرد الرصافى بطريقته هذه عن معاصريه من فحول الشعراء ، ولم يعن بمذهبه هذا شاعر فحل من شعراء الديار المصرية أو السورية ، كإسماعيل صبرى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقى وغير هؤلاء ، إذ كانوا إلى القصد والاعتدال فى مذاهبهم الأدبية المذكورة . وهذه دواوينهم شاهدة على ما نقول ، ومرد ذلك إلى الاختلاف الشديد فى المنشأ والبيئة ، كما مرت الإشارة إلى ذلك . فالرصافى قدر له أن يعيش فى بيئة ثائرة ، كثيرة الزلزال ، متوالية الهزات، تهز قلاقلها العروش ، وتدك

أحداثها معاقل ذوى التيجان ؛ أما القوم فقد قدر لهم أن يعيشوا فى بيئة أخرى لا شك أنها تختلف عن البيئة السابقة .

ومجمل القول ينحو الرصافى فى أدبه منحى من يعتمد على العقل المطلق، كما يراه هو عقلا مطلقاً ، ولا يعوّل فى حكمه إلا على الواقع ، والتعويل على أحكام العقول فى الأمور العملية جائز مألوف . ولكن أنى يجوز لنا التعويل على أحكام هذه العقول الضعيفة القاصرة فى محيط الحياة الوجدانية ، وما يتصل به من دين وأدب وشعر وفلسفة ؟ وكم ضل العقليون والعمليون الواقعيون فى هذه الفجاج الواسعة والأجواز العميقة . وما أبعد الشقة بين مراتب العلم والعمل ، و بين مضطرب العقول ومطمأن الأرواح والقلوب !

وفيما نعانيه ونشهده اليوم من اضطراب وفساد فى الحياة ، ومن خوف وقلق يستعبدان النـاس ، ما فيه من عبر ودروس بالغة ، وهذا موضوع خطير ، حجة الأذواق الرفيعة والمعانى السامية فيـه حجة دامغة ، وحجة الجدل والمراء حجة داحضة ، والبحث فى ذلك يتسع لـكتاب كبير ، ولـكنه يخرج بنا عما نحن بصدده الآن .

* * *

ولا شك أن شعراء هذه الفترة السالف ذكرهم ، والرصافى منهم فى الطليعة ، قد أحسنوا فى توخى أشرف المقاصد ، وأنبل الأغراض وأوكدها صلة بمصالح الجماعات ، فأشادوا بمحاسن الحريات ، ونددوا بمساوىء الاستبداد ، وانحلال الأخلاق لدى الطبقات الحاكمة ، كما شرحوا للنشء وغيرهم سنن العمران ، ونواميس الـكون فى رقى الشعوب وانحطاطها ، وتقدم

الأمم وتقهقرها ، على غرار ما يفعله الأطباء الأساة ، ورجال الإصلاح ، وقد تطور الأدب في زمانهم نظماً ونثراً ، وأصبحت له كما قلنا رسالة عامة ، وغاية إصلاحية في الحياة ، بيد أن الرصافي من بين هؤلاء ذهب إلى مخاطبة العقل أكثر من ملاحاة العاطفة والوجدان ، وكانت دعوته إلى الاعتبار بالحقائق الواقعية في هذا الكون فقط ، والعناية بالمظاهر المادية وحدها في هذه الحياة . وههنا تكون مداحض الأقدام ، وشطط العقول ، وفتنة الأفكار ، ومن هذه الناحية كانت له تلك الشطحات ، فهو ممن خلط الحسنات بغيرها في أدبه كما تقدم القول في ذلك .

وقد أصبح أدب الرصافي الآن في ذمة التاريخ ، وسوف يمخض الزمن نتيجة هذا الأدب ، ويصدر التاريخ حكمه في مبلغ الجدوى التي عادت على شبابنا وناشئتنا من اتباع هذه الطريقة أو تلك في الآداب الحديثة ؛ وإذا تأملنا النتائج التي حصل عليها شبابنا في هذا المنحى من مناحي الأدب والفكر ، أو في ذلك المنهاج من مناهج التربية والتعليم ، لم نجدها نتائج مثمرة ، شباب حائل الألوان ، متباين المشارب ، لا هو شرقي يدرك ميزة الحضارة الشرقية ، ويتذوق روحانية الشرق ، ويدرك الحكمة من رسالة الرسل والأنبياء ، ولا هو شباب غربي في جرأته ومغامراته ، أو في نشأته الاستقلالية ، وميله إلى التعاون والنظام ، ولا بد لنا قبل ذلك من الموازنة بين محاسن هذه المذاهب ومساوئها ، وبين مناحي الضعف والقوة في المذاهب المذكورة .

* * *

مضى القول في البيئة التي عاش فيها الرصافي إلى ما بعد رسوخ الحكم الدستوري في البلاد التركية ، ومن ثم توالت الحروب من البلقان إلى طرابلس

إلى اليمن وغيرها من بلاد الدولة ، إلى أن اتصلت بتلك الحرب الكبرى ، وهى الحرب التى انضم فيها الأتراك إلى حلفائهم الجرمان ، وفى أثناء هذه الحرب الكبرى ثار العرب فى الحجاز بقيادة (الحسين بن على) ملك العرب ، وأعلن القوم استقلالهم وانفصالهم عن الجامعة العثمانية .

انقسم قادة الرأى فى البلاد العربية حيال هذا الحادث ، وفى سبيل تنظيم علاقاتهم بالأتراك إلى قسمين : قسم يرى ضرورة الاتفاق مع الترك ضمن الجامعة الإسلامية أو العثمانية ، على شرط حصول العرب على قسطهم من الحكم الذاتى أو (اللامركزية) كما كانت تسمى إذ ذاك . ويرى أصحاب هذا الرأى أنه حل للمشكلة فى مصلحة الفريقين ، وقد تكاثر أنصار الرأى المذكور بين العرب أنفسهم بعد نشوب تلك الحرب الكبرى ، متمسكين بعروة الجامعة الإسلامية ، موجسين شراً من غدر بعض الدول العظمى المعروفة بمطامعها الاستعمارية ، ونكثها بعهودها المقطوعة للأمة العربية . وكان الرصافى ومثله الزهاوى ممن يجنحون إلى هذا الرأى ، وذلك قبل ظفر الحلفاء وتسليم الأتراك لهم بدون قيد أو شرط ، ولا عجب فقد كان هذان الشاعران غرسين من غراس الدولة بل كان كل منهما ربيباً لنعمة القوم ، وما كان هذا الموقف من الشاعرين فى رأى بعضهم إلا من قبيل الوفاء وعرفان الجميل .

أما الفريق الآخر من قادة الرأى فى العرب ، فهم لا يرون مندوحة عن إذكاء ثورتهم على الأتراك ، وقطع كل ما كان لهم من صلة بالقوم ، لأن العرب جربوا الأتراك مراراً ، وقد علمتهم التجارب أن الحصول من القوم على قسط من الحرية أو الحكم الذاتى ليس فى حيز الإمكان ، وقد مال أصحاب هذا الرأى إلى تأييد الثورة الهاشمية ، ومما شجعهم على ذلك ما جرى على أحرار

العرب وشبابهم الناهض من تقتيل وتشريد على يد (جمال باشا) القائد التركى المشهور . وهو الذى ادعى أن شهداء العرب تآمروا مع الأعداء على سلامة الدولة .

ومن هذه الناحية كان بعض قادة الثورة العربية ينظرون شزراً إلى الرصافى بعد نزوحه من الآستانة إلى سورية فالعراق ، كما كان الرصافى يبادل القوم ذلك النظر الشزر بمثله فى كثير من الأحيان ، وهذا سبب من أهم أسباب الجفاء وفتور العلاقات بين الرصافى وبين بعض شباب العرب . وهو الأمر الذى أدى أخيراً إلى عزلته فى بعض الأرياف العراقية ، وانقطاعه عن قرض الشعر ، إلا إذا ألحت البواعث والمناسبات .

أقام الرصافى فى ناحية ريفية تبعد عشرات الأميال عن بغداد ، وكان خلال إقامته فيها على الأغلب يعانى أزمة نفسية عنيفة . وذلك من جراء المصير الذى لم يكن يتوقعه هو ولا غيره من الناس لنفسه ، والدليل على أنه كان يعانى تلك الأزمة اتخاذه زى البدو والأعراب ، وظهوره أمام الناس بذلك المظهر الخشن والمباذل الغريبة ، بعد أن كان أشهر من نار على علم فى محافل الأدب البغدادية . وهكذا استراح الرصافى إلى طريقة من طرق الرمز والايحاء ، فى بث الاحتجاج والإنكار ، واطمأن إلى هذا الأسلوب فى التعريض بسوء المعاملة ، والإجحاف الذى يلقاه أدباء البلد . ولم يكن للرصافى على الظاهر بد من الالتجاء إلى هذه الطريقة التى يرمز بها إلى قلة المبالاة ، وعدم الاكتراث به وبطبقته من الأدباء وذلك بعد أن أعيته الحيل ، وكل لسانه من العتاب والحساب .

ومن رأينا أن الرصافى لم يوفق أيضاً فى لفت الأنظار إلى مقاصده وأغراضه

من هذه الناحية ، وذلك لأسباب لا نظنها تخفى على النقدة الألباء بعد تأملهم في بعض ما قدمناه .

* * *

كان لكل من الرصافي ، ولمن جفاه وقسا عليه من القوم عذره الذي ينتحله، وحجته التي يحتج بها ، فأما الرصافي من جهته فكان يحمل ذلك على بخس حقه ومنزلته في الشعر والأدب ، وفيما أداه بواسطتهما من خدمة لقومه ولبلاده . فإنه أذاع للعراق ذكراً بعيداً ، و بث له دعوة واسعة .

وأما القوم من ناحيتهم ، فكانوا ينكرون على الرجل صرامته وشدته وشذوذ آرائه أحياناً ، ولا يحتملون نقده اللذاع ، و إسفافه في الهجو والإقذاع .

والحقيقة التي لا بد لنا من الإصحار بها مهما كان موقفنا من الفريقين ، هي أن كثيراً من أعلام الأدب في هذه البلاد مغمورون ، يكابدون شظف العيش ، ويقاسون الأمرّين ، ولا سبب لذلك على الأكثر إلا بلادة الشعور وجفاء الطبع ، اللذان جبل عليهما رهط من القادة والزعماء ، وما عرفوا به من شح وتقتير على نوابغ أمتهم في الفنون والآداب ، وما اشتهر القوم به من جمود شديد في تشجيع حركة النشر والتأليف ، والأخذ بيد الباحثين والمؤلفين .

ومما يضاعف الأسى في هذا الباب أن فضل الأدب لا يجحد ، وأثره لا ينكر فيما ناله العراق من صيت حميد ، وما حصل عليه من مركز سام ، وذلك بخلاف السياسة ، فقد كان ولم يزل إثم السياسة أكبر من نفعها في هذا الشأن .

ولم لا يكون ذلك كذلك في بلد كثيراً ما تسند مناصب الدولة العليا فيه إلى غير أهلها ؟ ولا يستثنى من تلك المناصب العالية الوزارة التي يقال لها وزارة

التربية والتعليم ، وهى الوزارة المرجوة المؤملة فى إنهاض القوم من كبوتهم والأخذ بأضباعهم ، و إقالتهم من عثرتهم ، وذلك على الوجه الذى تقوم به أمثالها من الوزارات فى البلدان الناهضة ؟

* * *

و إذا كان لـكل شاعر فحل سمة واضحة فى شعره ، ولـكل أديب موهوب ميزة كبرى فى أدبه ، فإن للرصافى فى شعره ميزتين : إحداهما متصلة بهذا الشعر من ناحية المعنى ، والميزة الأخرى تتصل به من حيث المبنى .

فأما ميزة شعر الرصافى من حيث معناه ، فهى استقلال فى الرأى والفـكر ومجاهرة بالمعتقد على علاته ، وتعبير عن كل ما يجول بخاطره ، ولو كان فيه ما فيه من الخروج على كل مألوف محترم فى بيئته ، وله فى شعره آراء غاية فى الجرأة كما لا يخفى ، و يكثر فى أدبه المجون ، ومن مجونه ما لم ينشر فى ديوانه لبذاءته و إسفافه فيه إسفافا قد يترفع عنه الرعاع ، وقد يتحاماه أدنى طبقات النـاس مروءة وفتوة ، وما أشبه حياة الرجل وطريقته من هذه الناحية بحياة مشاهير المجان المعروفين بعبثهم فى بعض عصور الدولة العباسية ببغداد ، وما أشبه طريقته بطريقة القوم .

و بعد فلا غرض للرصافى من ذلك كله ، على ما يقول هو فى أشعاره ، إلا تحرير العقول ، وتنوير الأفـكار ، واستخلاص الحقائق ، والتمييز بينها و بين الأوهام والخرافات ، ومن ثم التخلص من رياء المرائين ونفاق المنافقين ، فهل وصل الرصافى إلى غرضه ؟ وهل دنا من غايته ؟ من رأينا أنه كان قليل التوفيق فى هذا السبيل ، كما كانت جهوده — على أنهـا والحق يقال جهود طويلة مضنية — ضئيلة الجدوى ، وما ذلك إلا لأنه ارتـكب ما ارتـكب من هفوات ،

وسار فى طريق كثيرة العثار ، منعقدة الغبار ، فلم يصل إلى مراده ، بل كان دون الوصول إليــه خرط القتاد ، والدليل على ما نقول أن خطته هذه ألبت عليه من ألبت من المعارضين ، فمنهم من احتج عليه أشد احتجاج ، ومنهم من انبرى لتفنيد آرائه ، إلى غير ذلك مما نغص عيشه أحوج ما كان إلى الهدوء ورغد العيش .

وللرصافى ومثله الزهاوى أسلوب خاص ينظمان بموجبه الشعر فى موضوعات العلوم الـكونية و بعض المسائل الطبيعية أو الرياضية . تقرأ هذا الشعر فـكأنك تقرأ فصلا لـكاتب كتبه فى موضوعه ، فهذا الشعر لا يفرق عن النثر فى شىء ، ولست من يعجبه هذا المذهب مطلقاً ، ولم أجد فيه ميزة من ميزات الشعر ، ولا أدرى لمـاذا أولع الشاعران به ؟ والغالب أنهما نسجا فيه على منوال بعض شعراء الأتراك .

هذه هى ميزة شعر الرصافى من حيث معناه ، وهى دون ميزة هذا الشعر من ناحية مبناه ، إذ من رأينا أن الميزة الـكبرى فى شعر الرصافى لا توجد إلا فى رصانة مبانيه ، وقوالبه الشعرية : ديباجة فى غاية الصفاء ، و بيان فى منتهى الإشراق ، وألفاظ فى أعلى رتب الجزالة ، ولعل هذا الشاعر كان فى هذا الزمن الأخير نسيج وحده فى الاطلاع على غريب اللغة ، وتقييد أوابدها ، وامتلاك أعنة فصحها وشواردها .

ولا نغلو إذا قلنا إن العراق ، بل بلاد العرب كافة ، لم تشهد له ضريباً منذ قرون ، و بعضهم يقول منذ سقوط دولة العباسيين فى بغداد ، وكأنما أبت له شدته وصلابته المعروفة فى مقاصده ومعانيه الشعرية إلا أن تلازمه فى ناحية المبانى

والألفاظ ، فهو من هذه الناحية قليل النظير ، بل هو مثال يحتذى به فى هذا الباب .

* * *

كنت أتوق إلى الوقوف على كتاب عن الرصافى ، قيل لى إنه لبعض المختصين به من أدباء بغداد ، وبينما أنا كذلك إذ زارنى فى منزلى الأستاذ الفاضل السيد بدوى أحمد طبانه ، مدرس الأدب فى كلية المعلمين ببغداد ، وأطلعنى على هذا الكتاب ، فإذا هو عبارة عن دراسة مستوفاة فى الموضوع .

ومما راقنى جداً أن يضطلع بها مؤلف مصرى ، فيحوز قصب السبق فى هذا المضمار على أدباء العراق ، وقد تصفحت الكتاب ، فإذا مؤلفه الأستاذ قد ألم بكثير من النواحى التى ينبغى الإلمام بها فى هذا الشأن ، فلم يفته البحث فى بيئة الرصافى ومنشئه وسيرته وفنه وشاعريته إلى غير ذلك ، وقد كون آراءه فى النقد وذكر ما للشاعر وما عليه ؛ والموازنة بين محاسنه ومساويه فى الشعر والأدب تكوينا لطيفا، يدل على تجرد وإنصاف فى كثير من فصول الكتاب .

هذا إلى أن الأستاذ فى طليعة المكبرين المعجبين بأدب هذا الشاعر ، كما يلوح لنا فى فصول أخرى من الكتاب .

* * *

ولا يخفى أن الرصافى شاعر مكثر ، له ديوان كبير الحجم ، وهو مع إكثاره وضخامة ديوانه شاعر محاق مجيد . فلا بد لمن يتوفر على وضع كتاب فيه من قراءة جل ما نشر وما لم ينشر من شعر الرصافى ، والتوفر على نقده ودراسته ، وفى ذلك ما فيه من جهد مضن لا يضطلع به إلا الكفء القدير . وهذا ما بذل الأستاذ المؤلف — حفظه الله — فيه جهد الطاقة .

وقد أفادني لقاء السيد المؤلف أثناء البحث في موضوع كتابه فائدة أخرى ، وهيأ لي متعة ثانية ، وذلك من ناحية التعرف إلى نموذج حيّ ، جمع إلى أدب الدرس كرم الشمائل وأدب النفس .

هذا ولا بد لي من القول بأنني اختلفت مع مؤلف الكتاب في جملة من آرائه ، ولم أتفق معه في استنباط بعض ما استنبطه ، واستنتاج بعض ما استنتجه في هذا الكتاب . بيد أنه تلقى ذلك برحابة صدر وسجاحة خلق ، وقد شاء له أدبه أن يثبت تلك التعاليق والأقوال ، وسيطلع القراء عليها في مواضعها من الكتاب .

وحسبي الآن تقديم هذا الكتاب المصنف في الرصافي إلى كل من يعنى بشئون الأدب العربي الحديث ، ونقد الشعر والشعراء المحدثين ، ولست أشك في أن عدد من يشاطرني رأيي في نفاسة هذا الكتاب وفي فضل مؤلفه عدد غير قليل .

وإلى الله أبتهل أن يجعل التوفيق حليفاً له ، إنه ولي التوفيق ؟

٢٧ صفر سنة ١٣٦٦
١٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٧

محمد رضا الشبيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

مضى على صدور الطبعة الأولى من هذه الدراسة نحو عشر سنوات ، ونحن نظلم هذا الكتاب إذا تسرب إلى الوهم أن نفاد تلك الطبعة استغرق طيلة هذه السنوات العشر ، فإن هذا الكتاب قد نفدت طبعته الأولى فى أشهر قليلة من السنة التى صدرت فيها ، وتلقفه الأدباء والمتأدبون فى بلاد العروبة بصورة تبعث على الارتياح ، وتدلّ على عنايتهم بالشعر المعاصر وأعلامه البارزين الذين يعد فى طليعتهم معروف الرصافى .

وما إن نفدت تلك الطبعة حتى طلب بعض الناشرين إعادة طبعه ، وكاد يتم ذلك فى السنة نفسها ، لولا متابعة الجهود فى البحث والدرس والانتقال من موضوع إلى موضوع . فقد كنت أرى أن صرف الجهد إلى بحث جديد أولى من العود إلى بحث احتل منزلته فى تاريخ الفكر ، وأخذ حقه من الذيوع والانتشار .

وكنت أحسب أن العودة إلى الأثر المكتوب بالتهذيب والتنقيح وإعادة نشر ذلك الأثر فى صورة أمثل من الصورة التى ظهر عليها من واجب المؤلف الذى تتاح له فرصة معاودة النظر وإعادة الطبع ؛ وقد جرت عادة البشرية على أنها تستصغر فى يومها ما عملت فى أمسها ، وتستقل فى غدها ما كانت تستكثر فى يومها . ولكنى وجدت نفسى تلزمنى الاستمرار فى العمل ، وترك هذه المعاودة مؤقتاً حتى لا يحصر الفكر فى دائرة لا يتخطاها ، ويجعل المؤلف يدور حول نفسه ،

وهيهات أن يرضى نفسه التى لا تقنع بما دون الكمال ، وهو جد بعيد عن مرامى البشر .

وكان ذلك من جملة الأسباب التى أخرت ظهور هذه الطبعة الثانية تلك السنوات الطويلة ، مع الشعور بالحاجة إليها ، وكثرة السؤال عنها . وانصرفت الجهود إلى القيام ببعض ما وطدت العزم عليه من خدمة الفكر العربى والثقافة الأدبية فيما استطعت النهوض به ، فكان أن توالت البحوث التى استنفدت تلك السنوات العشر التى انصرمت من العمر .

* * *

سؤال يجول فى خلد الكاتب وربما دار فى خلد القارىء . لو لم أكن كتبت هذا البحث قبل هذه السنوات الطويلة ، أكنت أكتبه اليوم ؟ أو بعبارة أخرى أكانت معالجة هذا الموضوع وليدة المناسبة التى إذا انقضت أحسّ الكاتب بعدم الحاجة إليها ؟ أم كان هذا البحث الذى كتبته عن معروف الرصافى يمثل حلقة من سلسلة التفكير تنقطع بدونها ، ويحس الدارس بالحاجة إلى استكمالها فى كل زمان وفى كل مكان ؟

وسؤال آخر يدور فى الخلد ، وربما كان شديد الصلة بالسؤال الأول ، ويتعلق جوابه أشد تعلق بالجواب عليه : لو كنت أشرع الكتابة فى « معروف الرصافى » اليوم ، أترانى كنت أكتب على ذلك النحو الذى كانت عليه الكتابة حين رآها القارىء للمرة الأولى ؟ ؛ أكان المنهج هو المنهج ، والمادة هى المادة ، والأسلوب هو الأسلوب ؟ أم كان المكتوب شيئاً جديداً يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الأثر الذى أصبح فى ذمة التاريخ ؟

أما السؤال الأول فأذكر أنى أجبت عنه ، وكان من جملة ما قلت فى هذا الصدد إننى كنت أحفظ للرصافى شيئاً من الشعر فى دراستى الأولى ؛ إذ كان من جملة

مختارات الشعر المقررة أبيات لهذا الشاعر مقتبسة من قصيدته الرائعة فى وصف القطار ، وكان أول المختار من تلك القصيدة قوله :

وقاطرة ترمى الفضاء بدخانها ... وتملأ صدر الأرض فى سيرها رعبا

وكنت أظن ولعل غيرى كان يشاركنى الظن فى أن الرصافى أحد السابقين الخالدين من مجيدى الشعراء فى العصور البعيدة ؛ ولم تكن الملكة إذ ذاك تستطيع أن تفطن إلى جدة الموضوع وحداثة الغرض ، وكأنها ترى ما ترى كائناً منذ الأزل ، وربما كنا نحس ونحن صغار أن ليس يؤثر للمعاصرين أو أن المعاصرين فى عرف المحدثين ليسو أهلا لأن يؤثر عنهم قول أو يروى لهم شعر ، وما كان معلمونا رحمهم الله يعنون بالتعريف بالشاعر أو ببيئته قدر ما يعنون بالحفظ والاستظهار وإعادة المحفوظ أمام زائر أو مفتش من الذين يقيسون كفاية المدرس بمدى ما يستظهر تلاميذه ويؤدونه فى سلامة منطق وشجاعة قلب .

ثم امتد بنا العمر ، حتى عرفنا أن الرصافى علم من أعلام المعاصرين ، حين استطاعت أيدينا أن تمتد إلى الصحف والمجلات العلمية والأدبية ؛ وحين قدر لنا فى فترة من الزمن أن نكون شعراء ، وأن نتصل بجمعية « أبولو » التى أسسها المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وأنشأ لها مجلة من أرقى المجلات الفنية وجعلها لخدمة الشعر الحر ، وكانت تعنى بهذا التعريف الذى فاتنا فى الصغر ، ولقد نشرت مجلة « أبولو » فى جملة ما كانت تنشر من روائع الشعر قصيدة من روائع قصائد الرصافى الوطنية ، وهى قصيدته التى سماها « الحرية فى سياسة المستعمرين » وأولها :

يا قومُ لا تتكلّموا ... إنّ الكلامَ محرّمُ

ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوّمُ

ومنهـــــا :

من شاء منكم أن يعيـ ـش اليومَ وهو مكرّمُ
فليُمسِ لا سمعٌ ولا بصرٌ لديه ولا فمُ
لا يستحق كرامةً إلا الأصمُّ الأبكمُ

ومنهـــــا :

وإذا ظُلمتمْ فاضحكوا طرباً ولا تتظلَّمُوا
وإذا أُهنتم فاشكروا وإذا لُطمتم فابسمُوا
إن قيل هذا شهدكمْ مُرٌّ ، فقولوا علقمُ
أو قيل إن نهارَكمْ ليلٌ ، فقولوا مظلمُ
أو قيل إن ثمادكم سيلٌ ، فقولوا مُفعَمُ
أو قيل إن بلادَكم يا قوم سوف تقسَّمُ
فتحمَّدوا وتشكَّروا وترنَّحوا وترنَّمُوا

وقد أخذت هذه الحقائق المرة التى تصوّر آلام العروبة فى شتى أوطانها تحت أقدام المستعمرين بقلبى ، واستطار لها لبِّى . فهمت بالشعر وهمت بصاحبه . ووددت إذ ذاك أن أنهل من هذا الورد الصافى الدفاق ، حتى أتيح لى أن أعمل فى العراق سنوات فوجدت الأمل يبتسم ، والفرصة تسنح لما كنت رجوت من التعرف إلى هذا العلم ، وإلى البيئة التى جردت منه فى هذا العصر شاعراً فحلا ، فوجدت اسمه فى كل ناد ، وذكره فى كل محفل ، وشعره على كل لسان ..

تلك السوانح والخواطر يمكن أن تعدّ مناسبات . ومن الممكن أن يقال إنه لولا الجزالة فى قصيدة « القطار » ولولا حرارة الوطنية فى قصيدة « الحرية » ، ولولا السفر إلى العراق والإقامة فيه ودراسة أدبه ، لما كانت هذه الدراسة .

وذلك صحيح لا أشك فى صحته ، ولا أستطيع أن أجحد أثر كل أولئك الظروف والملابسات فى إثارة الذهن وشحذ الهمة ، ولعل كثيراً من الباحثين جالت بذهنه تلك الخواطر التى جالت بذهنى ، واستثيرت عواطفه بما استثار عواطفى ؛ ولكنه لم يحاول هذه المحاولة التى حاولت ؛ لسبب واحد هو أنه لم تتح له من الفرص مثل تلك التى أتيحت لى من الحياة فى العراق ودراسة أدبه ؛ ثم محاولتى خدمة التاريخ الأدبى وتعريف مواطنىّ المصريين وغيرهم بما لعله يغيب عن كثير منهم . وهنا تحصل بلادى على فائدة من اغترابى عنها كما يفيد العراق من رحيلى إليه وتدريسى لأبنائه ، وقد أشار إلى هذا المعنى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى الكلمة الكريمة التى حيّا بها كتابى بقوله « ونرحب بكتاب « معروف الرصافى » مرة أخرى لأنه علامة من علامات التقارب بين الأقطار العربية فى هذه الآونة التى وجب فيها التقارب بين هذه الأقطار وتهيأت له العوامل والأسباب ، وكثيراً ما سمعنا العتب من أدباء العرب فى سورية ولبنان وفلسطين والعراق والحجاز ، لأن صحف مصر لا تفسح صدرها للتنويه بآثارهم والتعقيب على أعمالهم ، فكنا نقول لهم إن شأن أدباء العرب فى ذلك كشأن الأدباء المصريين أنفسهم بغير خلاف ؛ لأن الصحافة المصرية لا تكتب عن مؤلفات الأدباء المصريين ، ولا تتبع أعمالهم بالنقد أو الثناء ... أما إذا رجعنا إلى الشعب المصرى فقد يكون إقباله على المؤلفات العربية متى وصلت إليه أكثر من إقباله على المؤلفات المصرية ، لأنه فى هذه الحالة يضيف حب الاستطلاع وحب المجاملة إلى حب التقدير والاستفادة . فالآن يسرنا أن نرى أديباً مصرياً يتجرد لدراسة شاعر عراقى كبير ، ويسبق أدباء العراق إلى هذه الدراسة ، وهى من واجب الأدباء فى الأقطار العربية جمعاء [1] .

* * *

(١) مجلة الرسالة فى العدد ٧١٧ الصادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٧

ولكنى مع الاعتراف بهذه الظروف والملابسات ؛ لا أستطيع أن أسلم بأنها كل شيء ؛ وأنها وحدها مرجع العناية بهذا الموضوع بالذات .

ذلك أن الرصافى يمثل حلقة من أهم الحلقات فى سلسلة الأدب المعاصر ، ويحتل منزلة كبيرة فى نهضة ذلك الأدب وتطوّره لا تقل عن منزلة غيره من الذين حظوا بالمجد الأدبى وذيوع الصيت ونعموا من وراء ذلك بالجاه والثراء ما لم يبلغه الرصافى . وأستطيع أن أقول فى غير تحفظ إن الرصافى يفوقهم جميعاً فى كثير من النواحى التى عالجها ، وهو فى باب السياسة والوطنية على الخصوص يفضلهم جميعاً فى الأغراض التى عالجها ، والمعانى التى تناولها فى قوة وجرأة وصراحة وصدق ؛ على حين كان سائر الشعراء يصانعون ويتملقون رغبة أو رهبة أو يهوّمون فى أودية الخيال الذاتى و يهزءون بمشاعر أمتهم ، و يستهينون بمقدساتها وحرياتها وكرامتها ؛ إرضاء لشهواتهم وزلفى إلى ذوى السلطان ؛ ومن ثم كان أكثرهم عقبة فى سبيل تقدم الأمة نحو أهدافها وغاياتها المشروعة ؛ فى الوقت الذى لم تلن فيه قناة الرصافى ؛ ولم يعرف المصانعة والمواربة ، لأنه رجل فنى فى حب وطنه ، وهام بحب أمته ، أكثر مما فنى فى حب ذاته ؛ ولذلك عاش الرصافى حياة المجاهدين ، حياة صرعى الكفاح ، الذين يواجهون أرباب البطش بكلمة الحق لا يرهبون سيوفهم ، ولا يشفقون من حربهم وحرمانهم .

وأنا إذ أقرر هذا لا ألقى القول جزافاً ؛ فبين يدىّ من شعره الثائر ، ما لا يجرؤ ناشر على نشره ، وما أشفق جامعو شعره فى حياته و بعد وفاته من التعرض له ، وأرى فيه من آيات الصدق والشجاعة ما لا أجد له ظلا فى شعر غيره من المتمتعين بالشهرة ، والذين حصلوا بمصانعتهم على ما يشتهون من التقريب والترف ، الذى يعافه الأحرار من الزعماء والمفكرين والأدباء الذين يخلصون لفكرتهم أكثر مما يخلصون لذواتهم وأشخاصهم .

ولو عاش أولئك الأعلام الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف إلى هذه الأيام التى استيقظت فيها الأمة وعرفت خدامها وأعداءها ، ومازت الخبيث من الطيب ، والمتهالك على الزيف من خداع الحياة ، من الصابر المحتسب ، ورأوا لعنة الأمة على ظالميها ومخادعيها ؛ وتمجيدها للذين كافحوا فى سبيلها الأثرة والطغيان . لو عاش أولئك إلى هذا الزمان لبرئوا من شعرهم وكتابتهم التى أفسدوا بها المقاييس وشوهوا صفحات التاريخ .

وليس ذلك أيضاً من أثر التعصب للموضوع الذى يدعو كثيراً من المؤلفين إلى الإسراف فى الأحكام ؛ فإن القارىء سيرى فى ثنايا هذه الدراسة أننى سموت بالرصافى إلى السماك ، وكان ذلك حقاً ، كما سيرى أننى هويت به إلى الحضيض وكان ذلك حقاً أيضاً ؛ ولم يكن هذا أو ذاك إرضاء لعاطفة ذاتية نحو الشاعر أو عليه ، كما يزعم بعض ذوى الأهواء ، وإنما هو من أثر الموضوعية التى استمسكت بها وأقمت عليها الشواهد مما قرأت وكما فهمت من شعره الذى كان المادة الأولى لدراستى وأحكامى ، والرصافى قبل كل شىء شاعر يحلّق ويهبط ، وإنسانٌ يترفع ويسفّ ؛ ونفس قلقة حائرة بين المثالية وما فيها من سمو ، والواقعية بما فيها من خير وشر ، والمجتمع الذى لم تتح له أسباب الثبات والاستقرار ، فى السياسة وقواعد السلوك .

* * *

إن الأمة العربية وحدة متماسكة فى المقومات العامة ، وهى كذلك فى مشاعر النفوس ، وفى الأهداف والغايات ، وكذلك الأدب العربى سلسلة متصلة قد تضعف بعض حلقاتها فى بلد وتقوى فى آخر ، ولكن وحدة المشاعر تؤلف بينها ؛ ولا تستقيم دراسة لذلك الأدب إلا إذا أحصيت مراحل تطوره ، وتتبعت اتجاهاته التى يكمل بعضها بعضاً .

ويخطىء مؤرخ الأدب العربى على وجه الخصوص إذا اقتصر فى تأريخه

على رصد حركات التطور الأدبى فى بلد دون بلد ، أو إقليم دون إقليم ، فإن الوحدة هى الأساس الثابت للأمة العربية ، التى لم تختلف إلا لتأتلف ، ولم تتفرق إلا لتعود إلى الاجتماع ؛ وكل مايبدو من اختلاف فإنه يرجع إلى أسباب مفتعلة وتأثيرات غير طبيعية ، لا تلبث طويلاً حتى تذهب مع الريح ، وتعود الحقيقة الثابتة ، وهى إيمان الأمة بوحدتها ، إلى مكانها من الأعمال والآمال .

أقول هذا وأنا أعلم تمام العلم بأن هنالك فئة تدين بالإقليمية ، وتذهب فى سبيلها مذاهب شتى ، جرياً وراء دعاوى ونعرات ، قد تجد سبيلها إلى نفوس السذّج من المبتدئين ، ولكنها فى مقام التحقيق والتثبت بالدراسة والتتبع والاستقصاء ، هراء أى هراء ؛ فما من ظاهرة أدبية أو اتجاه أدبى ظهر فى موطن من مواطن العروبة إلا وجدت أثره فى سائر مواطنها ؛ ولو كان هنالك شىء من التباعد المزعوم لظل الاتجاه ، ولبقيت تلك الظاهرة حبيسة فى موطنها ومقصورة على صاحبها . وذلك إن دل على شىء فإنما يدل على التجاوب بين القلوب والعواطف ومناحى التفكير .

وإذا كان من المسلم به أن الآداب والفنون من أهم خصائصها ومميزاتها أنها لغة الإنسانية ، وأن صفة العموم تتجه بها نحو العالمية ؛ فإن التناقض بين هذا القول وبين الدعوة إلى الإقليمية ظاهر لا يحتاج إلى بيان .

فإذا قلنا إن أدب مصر وأدب الشام والعراق والحجاز والمغرب وسائر البلدان العربية وحدة متكاملة بدت لنا أهمية دراسة الأدب العراقى الذى يعد « معروف الرصافى » من أعلامه وواسطة عقده ، وأهمية شعره الذى يمثل شعر العراق فى عصر النهضة ، بل يمثل الشعر العربى كله ، من حيث الصورة ومن حيث تمثيله للبيئة وأمانيها وعواطفها فى صدق وصراحة ، ولذلك أصبحت دراسته فرضاً

على كل دارس للأدب العربى ، وكل متصد لتأريخه ورصد حركات تطوره واتجاهاته فى عصر الانبعاث .

* * *

والجواب على السؤال الثانى أننى لو كنت أشرع الكتابة فى هذا الموضوع الآن ؛ لكان هنالك اختلاف واضح فى خطة البحث ومنهجه بين ما أكتب اليوم وما كتبته منذ عشر سنين ، وهذه حقيقة لا أمارى فيها ، فإن عقلية الكاتب لا يمكن أن توصف بالثبات والاستقرار ؛ الذى معناه الجمود طوال هذا الزمن ؛ كيف والأحداث تؤثر فينا ، والتجارب تزداد من سنة إلى سنة بل من يوم إلى يوم ، ودائرة الثقافة تزداد عمقاً واتساعاً ، كلما امتدت بالكاتب السنون ، وكلما روخى له فى حبال الأجل ؟ !

ولكنى مع ذلك أشك فى أن يكون التغير كاملا شاملا ؛ بل أرجّح أنه يقتصر فى الغالب على ناحية الخطة والمنهج ، ولايعدوها إلى المادة أو إلى الأحكام الأدبية التى اهتديت إليها ؛ ذلك أن هذه الدراسة تنهل من معينين :

(١) المادة التاريخية : وهى تنحصر فى المعلومات التى تتعلق بحياة الشاعر و بيئته والأحداث التى أثرت فى تكوينه وتوجيهه ؛ وهذه المادة التاريخية فى حدّ ذاتها ليست من صنع الكاتب ، ولا ثمرة من ثمرات اجتهاده ؛ وإنما يقتصر جهده فيها على التأليف بينها ، وربطها بنتاج الأديب ، ومحاولة استخدامها فى التفسير والتعليل إذا لم يكن فى مادة الأدب وحدها مايعين على وضوح الفكرة ، وحينئذ يكون فهم العمل الأدبى متوقفاً على فهم الحدث التاريخى .

(٢) المادة الأدبية : وهى عماد البحث فى شعر الشاعر أو أدب الكاتب ، وهى الأساس الأول الذى تقوم عليه الآراء ، وتبنى عليه الأحكام فى تقدير الأدب والأديب . وما يبنى على العمل الأدبى لا يعتريه تغيّر كثير ، إذا كان الكاتب

حريصاً على الموضوعية ، مقيداً نفسه بقيودها، وجماها وحدها عماد بحثه ، غير متأثر بأى سبب من الأسباب التى تحول بينه و بين الصراحة والصدق ؛ و إذا تنزّه عن الذاتية التى هى مزلة الأقدام ، ومظنة التعسف والظلم والاستكراه .

* * *

وأعود اليوم فأؤكد أننى قبل أن أقدم على الكتابة عن « معروف الرصافى » وقبل أن أخطّ حرفاً فى هذه الدراسة ، جمعت من الحقائق والمعلومات عن سيرة الشاعر وتنقله فى سلم الحياة طائفة كبيرة ، وجمعت من أخباره وصوره ورسائله وأحاديثه الصحفية وغيرها ، ما يمكن أن يعد وثائق تاريخية نادرة ، وأن يكون مادة وافية لكتاب حافل عن حياة الرصافى وتاريخه ، ولكنى اجتزأت من كل أولئك بالقدر الذى رأيت أن القارىء فى حاجة إليه ، ليستبين طريق التعرف إلى حياة الرصافى الأدبية ؛ وملت إلى الإيجاز فى رواية الأخبار ، وآثرت الإجمال فى سرد الحقائق التاريخية ، مخافة أن تطغى التفصيلات على لبّ الموضوع وجوهره ، وتنكب عن أهدافه ومراميه ، التى حدّدتها تحت عنوانه أنها « دراسة أدبية » على أن كثيراً من التفصيلات التى تتصل بحياة الشاعر وسيرته ، قد ذكرت فى معرض تحليل شعره ، أو دراسة أخلاقه أو عقيدته ، أو مناسبات قصائده .

ومع اعتقادى بأنه كان فى ذلك القدر الذى كتبته فى الطبعة الأولى ما يغنى القارىء عن كل تطويل ، أعدت النظر فيه ، وقد أتيحت فرصة الطبعة الثانية ، فكشفت عن مواطن وهم فى فهمها بعض القارئين ؛ وصححت منها ما رأيت أنه فى حاجة إلى التصحيح من الأحداث والوقائع ؛ وطاب لى أن أفصّل بعض التفصيل فى وصف السنوات الأخيرة من حياة الرصافى ، وما ساءه فيها وما سرّه منها ؛ حتى تتكشف أمام قارىء هذه الطبعة الجديدة الحقيقة التى ينشدها ،

ونجدّ نحن فى طلبها ونتحرى سبيل الوصول إليها . وحتى يساير الشاعر إلى نهايته المحتومة حتى يلفظ النفس الأخير . ولذلك عدت إلى هذه المجموعة التى أشرت إليها من جديد أقلب صفحاتها وأقبس منها ؛ وأنظر فيما كتب فى هذا الموضوع بعد نشر الطبعة الأولى ، سواء أكان ذلك تعقيباً على ما كتبت أم كان غير تعقيب ، وسواء أكان ما كتب يتصل بنشدان الحقيقة المجرّدة وحدها ؛ أم كان يهدف إلى إشباع أهواء ونزوات ؛ جرّ بعضها إلى مثل رديئة لما ينبغى أن يكون بين الكتاب والباحثين من وجوب رعاية الحق والإنصاف ؛ قبل إرضاء الأهواء والنزوات ؛ وقبل إساءة الظن بالأهداف والغايات التى لا يعلمها إلا المطلع على خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وما رأيك فى كاتب أو قارئ لم يهتد فى هذا البحث الطويل إلى حسنة واحدة قطّ ، تستحق أدنى إشارة من قلمه العفّ ونقده النزيه ؟

أجل قرأت هذا وقرأت ذاك ؛ وما كان من خير أفدت منه ؛ وما كان من شطط وجموح عفوت عنه ؛ وتلمست فى كلّ السبيل إلى حسن الظن ، و إلى تقدير العوامل والأسباب التى أدت بكل إلى أن يكتب ما كتب ؛ وأخذت أضع نفسى موضعه ، وأنظر من الزاوية التى أطلّ منها ، لأريح نفسى أولاً ، وأريح الناس ثانياً من لجاج ومهاترات لا يفيد الحق منها شيئاً .

وأنا بعد ذلك واجدٌ شيئاً من الرضا والغبطة ، بما مهّدت لمن يريد أن يقول سبيل القول ، وسبيل الكتابة لمن كان يريد أن يكتب فى هذا الموضوع فتصرفه عن غايته دواعٍ لا تمت إلى التاريخ أو النقد أو التحقيق بسبب من الأسباب ، فكان من آثار هذا البحث ثروة كبيرة ، أفاد منها الأدب ، وأفاد منها التاريخ الأدبى والتاريخ العام فوائد لا يستطاع جحودها ؛ ولهذا التاريخ أن يضع هذه الآثار

موضعها ، ويقول فيها كلمته حين يصبح الباحثون فى جو من الحرية والانطلاق بعد أن تطوى صفحات كاتبيها ؛ وتتجرد النفوس من عوامل العداوة الحمقاء وعوامل المصانعة أيضاً ؛ وكلتاهما عقبة فى سبيل الرأى الحر ، وفى سبيل تمييز القيم الفنية الصحيحة .

أما المادة الأدبيّة ، فلم يجدّ فيها جديد ، إذ كانت هى أساس الطبعة الأولى وهى بنفسها أساس هذه الطبعة ؛ ولكنى نظمت هذه المادة تنظيما جديداً ، وهذبتها بما رأيت أنه يجعلها أجدى نفعاً وأقوم سبيلا ، وأقرب إلى تحقيق الغاية ، فنظمت فصولها ، وحذفت فضولها ، وأضفت إليها ما رأيت فيه الخير .

وقد نسقت هذه الطبعة فى بابين ينتظم أولها دراسات فى شخص الرصافى وأسرته ، ونشأته ، وثقافته ، وكفاحه فى الحياة ، وأخلاقه ، وعقيدته .

ودرست فى الباب الثانى الرصافى الشاعر ، وشعره الوطنى والاجتماعى وغزله ووصفياته ومدائحه ومراثيه وسائر أغراضه ؛ وعرضت لحظه من الابتكار وحظه من التقليد فى تفكيره أو فى تصويره .

* * *

وكنت كتبت للطبعة الأولى مقدمة فى « الشعر الشعر بى إلى عهد الرصافى » ومهدت فيها القول فى الشعر العراقى المعاصر ؛ ثم بدا لى وأنا أعيد إخراج الكتاب أن الجزء الأول من تلك المقدمة لا يختص بموضوع البحث ؛ ورأيت كثيراً من عناصر الفكرة فى الجزء الثانى قد عولجت فى ثنايا الدراسة على نحو تفصيلى يغنى عن تكرارها فى كلمة موجزة فى حدود ما يسمح به نطاق المقدمات ؛ ولذلك لم أجد كبير فائدة فى إثبات تلك المقدمة فى هذه الطبعة ؛ فآثرت الدخول مباشرة إلى لب الموضوع وجوهره .

وقد رغب إلىّ بعض السّادة الفضلاء من الذين لم تقع لهم نسخة من ديوان الرصافى أن أضمن هذه الطبعة نماذج لقصائد كاملة من شعره ، ولعلّى مستطيع تحقيق هذه الرغبة فى حدود ما تتسع له الصفحات المقررة لهذه الطبعة ، فإنى أومن بجدوى ذلك فى إعانة القارىء على تكوين فكرة خاصة فى الشاعر أو فى أدبه ؛ بعد أن يتذوّقه بنفسه ؛ ويهتدى إلى مواضع الإجادة والإحسان ، ويصدر بعد ذلك الحكم الذى يرتضيه ذوقه ، ويطمئن إليه قلبه ، ولعل فى ذلك مشاركة فعلية فى خدمة الفكرة وتعدد وجهات النظر إلى الموضوع .

* * *

وأعود فأكرر الشكر للسّادة الذين ذكرت فى الطبعة الأولى ، فلا تزال آثارهم باقية فى هذه الطبعة ؛ بقاء حبّهم فى نفسى والوفاء لهم فى أعماق قلبى ، وتقدير المعونة العلمية والأدبية التى أسدوها إلى هذا الأثر أو إلى صاحبه . كما أشكر أقلاماً كريمة استقبلت هذا الكتاب بالتقدير وأبدت ما أبدت من الإعجاب بمادته أو خطّته ، أو تناولته بالنقد الصحيح ، والتوجيه السّديد ، فى عفّة وسلامة قصد وإنصاف ؛ أحلّ نقدهم منزلة رفيعة من التقدير والاحترام .

والحمد لله على ما هدى إليه ، وأعان عليه ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، نعم المولى ونعم النصير .

مصر الجديدة { ربيع الأول سنة ١٣٧٦ هـ
نوفمبر سنة ١٩٥٦ م

بدوى أحمد طبانة



الرصافى فى شيخوخته

أنا ابنُ دِجــــلةَ معروفاً بهـــا أدَبى　　وإنْ يكُ المـــاء منها ليسَ يُرْوِينى

(الرصافى)

الباب الأول

معروف الرصافي

الفصل الأول

الرّصافي

هذه بغداد تتثاءب بعد إغفاءتها الطويلة أكثر من ستة قرون ، والأمر بها ليس لأحد من أهلها ، ولكنها مدينة المنصور وحاضرة خلافة الإسلام فى أزهى عصوره إن أدركها الوسن فإلى يقظة ، وإن أصابها الخمول فلابد لليل العاكر من آخر ، ولابد من صحوة ذات بشائر ، ودون إشراقة النهار وإشعاعة الشمس تنفس البلجة فى جوف الغسق .

وذاك دجلة يجرى من قديم الآباد ، يخترق بغداد من الشمال إلى الجنوب ، كما يسرى الشريان بحياة الجسد ، فإلى ضفته الغربية تجد الحىّ العتيق ، الذى يسمى (الكرخ) ، وإلى ضفته الشرقية النصف الثانى من بغداد الذى يدعى (الرصافة)

جاد العراق بعلم من أعلام المعرفة الربانية ، وقطب من أقطاب التصوف الإسلامى ، هو « معروف » الذى نسب للكرخ فكان (معروف الكرخى) ، وخلد الكرخ بمعروف .

وجاد الزمان على أهل الرصافة (بمعروف) الذى تردد فتيا على علم من أعلام الدين واللغة والأدب هو العلامة « السيد محمود شكرى الآلوسى »(1)

(1) السيد محمود شكرى ابن السيد عبد الله بهاء الدين ابن أبى الثناء شهاب الدين محمود الألوسى، من كبار علماء العراق وأدبائه، نشأ فى بيت من أعرق بيوتات العراق علماً وفضلا وورعاً، تخرج عليه جماعة من أفاضل العلماء ، وخيرة الشعراء « منهم الرصافى » وله كتابان جليلان « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » مطبوع فى ثلاثة مجلدات و « الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناثر » . توفى سنة ١٩٢٤ م .

الذى أحبه ، وتوسم فيه الذكاء ، وعرف ما يعدّ له نفسه من الخلود بمواهبه الفريدة ، التى تنبأ أن سيكتب لها الخلود ، فنسب الفتى إلى هذه الرصافة المنسية المذكورة فكان (معروف الرصافى) .

وخلد معروف بمواهبه وعبقريته وفنه ، وخلدت الرصافة بمعروف !

أسرة الرصافى

فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى ، وفى مطلع الربع الرابع من القرن التاسع عشر الميلادى[1] تمخضت الليالى عن وليد نابه ، لم يكسب النباهة من سبيل مجد تليد تعلق بأسبابه ، أو علم تميزت به أسرته ، أو نسب شرف به ؛ أو ثراء خلفه له ذووه .

والذين يوثق بهم من الرواة من الذين عاشروا الرصافى ، وصحبوه أمداً غير قليل ، لا يجزمون بمعرفة أكيدة عن حقيقة الأسرة التى ينتمى إليها الرصافى فهذا عالم جليل عرف بالتثبت فى الأخبار والتحقق من صدقها ، وقد صحب الرصافى أكثر من ربع القرن ، ولكنه على الرغم من تلك الصحبة الطويلة لم يستطع أن يجزم بقول فى هذا الصدد .

ويرجع ذلك إلى أن الرصافى ـ رحمه الله ـ كان قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته ، « وإذا أراد محدثه أن ينتزع منه شيئاً من هذا القبيل كان عليه أن يستعمل اللباقة والمداورة للحصول على بعض ما يريد » .

ثم يقول: « أما أصله وأهله فلا يتحدث عنهما، إلا إذا جذبه الحديث إليهما جذبا ، فيضطر إلى الإيماء والإلماع ، دون التبسط والإسهاب » .

وينتهى الصديق إلى الجزم بقوله : « ومن قال لك : إن أباه من أصل

---

(١) سنة ١٢٩٢ الهجرية = سنة ١٨٧٣ الميلادية .

كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد ! فإنى على وثيق صلتى به لم أسمع منه حرفاً واحداً يشير إلى هذه الجهة »[1] .

ونستطيع أن نستخلص من هذه العبارات أن معروفا نشأ فى أسرة غير مذكورة ، فهذا الصديق الذى صحبه أكثر من ربع القرن لم يعرف عن شاعرنا شيئاً عن أبيه ، ولا شيئاً عن أمه ، وتراه يخلص من ذلك كله إلى الجزم بأن من قال : إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا فقد أبعد !

* * *

ومع ذلك فقد رُوِىَ أن الرصافى[2] ذكر أنه ولد فى بغداد من أب كردى وأم عربية ، وترعرع فى بيئة عربية ، وقد روى كذلك عن نفسه أنه كان كثير الارتباط بأمه ، فأبوه كان يخرج إلى « الوظيفة » بمفرده ، ولم يكن يقضى أوقاته فى بغداد إلا نادراً ، ولذلك فصلة الرصافى بأبيه كانت غير وثيقة فى عهدى طفولته وشبابه على ما أكد ، أما فى عهد دراسته فقد انغمر فى محيط عربى ، وتثقف ثقافة عربية بحتة ، فقد خلبت اللغة العربية لبّه ، وتغلغلت فى أعماق نفسه ، بالإضافة إلى ملكة الشعر العربى التى ملك ناصيتها ، تلك الملكة التى لم تجعله يعيش فى محيط بغداد العربى فقط ، بل قذفته إلى صميم العروبة ، وأدوارها الذهبية الماضية ، حتى صار يعتقد بأنه — وهو على حق — شاعر العرب المجيد .

وليس الرصافى وحده هو الذى قد انفرد بهذه النفسية فعدّ نفسه من صميم العرب ، وإن كان من أب غير عربى ، وإنما المرحوم جميل صدقى الزهاوى كان يحمل تلك النفسية أيضاً ، فمع أن نسبه غير العربى كان أكثر وضوحاً من نسب

---

(١) صديق الرصافى: للمرحوم الأستاذ طه الراوى . مجلة « عالم الغد » البغدادية ص ٧ من العدد ٩ = ٢٦٣ من السنة الأولى .

(٢) جريدة « صوت الأهالى البغدادية » العدد ٨٤٦ الصادر فى يوم الإثنين ١٦ نيسان سنة ١٩٤٥ ، من رسالة كتبها الأستاذ كامل الجادرجى إلى المرحوم الأستاذ طه الراوى .

الرصافى غير العربى ، فقد كان يعتقد أنه شاعر عربى كما قال عن نفسه :

تُتلَى أمامَك والجمهور مستمعٌ قصيدة لفظها كالماء منسجمُ
لشاعرٍ عربىّ غير ذى عوجٍ على الفصاحةِ منه تشهدُ الكلمُ

* * *

ويروى الأستاذ عبد المسيح وزير أن « عبد الغنى افندى » والد الرصافى ، كان يحسن التكلم بالعربية والتركية والكردية ؛ ويقرأ العربية ويكتبها قراءة وكتابة بسيطتين ، وكان متدينا كثير الصلاة ، وكثير قراءة القرآن الكريم ، وكان حديد المزاج إذا غضب أخاف ، وإذا ضرب أوجع ، وكان عريفا فى الجند حين اشترك فى حرب الروس مع الدولة العثمانية ، فلما رجع من تلك الحرب خرج من الجندية ، وانخرط فى سلك الدرك « الجندرمة » فى صنف الخيالة ، ثم انتقل عريفا إلى قسم البغالة ، فقضى معظم العمر فى الأسفار ، وقلما وجد فى بغداد ؛ ولذلك كان اجتماع الرصافى بوالده قليلا[1] .

أما أمه التى صحبته حياته الأولى فتدعى « فاطمة بنت جاسم » وهى امرأة عربية من عشيرة « القراغول » وهى بطن من شمر ، متوسطة الحال ؛ ويقول عنها الرصافى : كانت مرجعى فى كل شىء ، حتى بعد مجاوزتى العقد الأول من حياتى ، لأنى كنت لا أرى أبى إلا قليلا . فهى التى كانت ترسلنى إلى الكتّاب وأنا صغير ، وهى التى كانت تجهز لى كل ما يلزم لذلك ؛ أما اليوم فكلما ذكرتها جاشت نفسى بالأحزان ، لأننى أشعر أننى لم يساعدنى الحظ على القيام بالواجب الذى لها علىّ . ولم أستطع أن أقوم ببعض الواجب لها إلا بعد سفرى إلى الاستانة ، فكنت أرسل إليها الدراهم من هناك ، حتى جاءت الحرب وسقطت بغداد ،

---

(١) أدب الرصافى ٦٥ .

فانقطعت عنى أخبارها ، وتوفيت بعد سقوط بغداد ، ولم يبلغنى خبر وفاتها ، حتى جئت بغداد سنة ١٩٢١ ، ولذلك أصبح اليوم وأمسي وأنا منها فى ذكرى محزنة ومؤلمة جداً [1] .

* * *

وهذا الجزم بالأب الكردى والأم العربية لم يعق المولعين بالأنساب ، والتماس المجد فى العظام والأشلاء من نسبة الرجل من جهة أبيه إلى قبيلة عربية ، كما صحت نسبته من جهة أمه إلى قبيلة عربية . وقد تعجب أشد العجب من هذه الأقوال ، إذا علمت أن قائليها أنفسهم يقولون فى عبارة صريحة « أما أبوه فمن عشيرة كردية تقطن فى نواحى كركوك تسمى الجبارة ، وتدّعى هذه العشيرة أنها علوية النسب ، ويسلم لها جميع أهالى كردستان بذلك ، فإن صح ادعاؤها فهى عربية الأصل . وأما أمه فمن عشيرة القراغول [2] وهم بطن من شمر القاطنين فى سهول العراق [3] » . وكأنما استكثروا على شاعر العروبة وبلبلها الصداح الذى غذى بلبانها ، وعاش ببغداد مستقرها ، أن يكون أبوه وأمه غير عربيين .

ولا يزال الناس فى لهفة وولع بالأحساب والأنساب ، وكثيراً ما سألوا الرصافى عن أبيه ، ولكنه لم يجبهم إجابة تشفى غلتهم فى معرفة نسبه ، وهو حين يجيبهم يمعن فى الإبهام ويزيد الأمر تعقيدا ، استمع إليه يجيب على سؤالهم [4] :

قالوا ابن منْ أنتَ يا هذا؟ فقلتُ لهم: أبى امرؤٌ جـدُّهُ الأعلَى أبو البشرِ
قالُوا : فهلْ نال مجداً؟ قلتُ: واعجبى أتسألونى بمجدٍ ليسَ من ثمرى ؟

(١) المصدر السابق .

(٢) يصعب الجزم بأن هناك عشيرة تسمى « القراغول » وأنها من أفخاذ شمر ، وفى قضاء الشطرة فى متصرفية المنتفك عشيرة تدعى « القراقول » لا تفرق عن عشائر المنتفك فى شىء إلا أنهم يقولون بأنهم تحدروا من أصول غير عربية . (العلامة الشبيبى)

(٣) روفائيل بطى — الأدب العصرى فى العراق العربى : ص ٦٩ ج ١ المطبعة السلفية القاهرة ١٩٢٣ م

(٤) مثنيات شعرية — ص ١٨٨ ديوان الرصافى .

فلندع حديث النسب والأنساب ، فما نظن أن فى هذا البحث كبير غناء ، ولا نرى شاعرنا الخالد يعنيه هذا النسب ، ولو كان فى شغل به لشغل نفسه بالتحدث عنه والمباهاة به ، ونظنه لو وجد فيه سبب فخرلفخر به ، وباهى به الناس الذين يحتفلون فى بيئته بذلك احتفالا كبيرا ؛ ولما قال لهم : « أبى امرؤ جده الأعلى أبو البشر » ! وإنما الذى يعنيه أنه شاعر العراق ، وشاعر العروبة بلسانها المستقيم ، وخواطرها وعواطفها وآلامها وآمالها :

عَهِدتُك شاعرَ العرب المجيدا   فمالكَ لا تطارحُنا النشيدا ؟
فنحنُ إليك بالأسماع نُصغِى   فهل لك أن تفيدَ فنستفيدا ؟
بشعر لا تزالُ تنوط منه   بجيد بدائع الدنيا عُقُودَا
إذا أنشدْتَهُ الحسناء تاهتْ   كأنْ قلدتها دراً فريداً
وأنتَ إذا قرعْتَ به عبيداً   رددت إلى الحرارِ[1] به العبيدا
ولو تستنهضُ الجبناء يوماً   به لتقحّمُوا الدنيا أسُودا
ولو كرّرتَه للقوم ألفاً   لأقسمَ سامعُوه بأن تعيدا

هذه مفخرة الشاعر وتلك معجزته ، التى يتباهى بها غير منتحل نسبا ، ولا مباهياً بأب .

أما أمه التى صحبت الشاعر حياته الأولى وتدعى « فاطمة بنت جاسم » فامرأة عربية من عشيرة القراغول، وهى بطن من شمر، متوسطة الحال ، ولكنها عريقة الأصل ، كريمة المحتد .

نشأ الرصافى فى بيت جده، أبى أمه ، فى بغداد فى دار قديمة الطراز قديمة البناء فى محلة من محلات بغداد ، تدعى محلة « القراغول » ، وكانت له فى هذه الدار

---

(١) الحرار بالفتح مصدر حر العبد يحر أى عتق .

غرفة صغيرة مظلمة ، وكان لإقامته فى تلك الغرفة أثر بعيد فى ميل شاعرنا إلى العزلة عن لداته ، فلم يشركهم فى لعبهم أو تسليتهم على الرغم من ولوعه بالعبث ولوعا كان من أثره أن فقد إحـــدى أصابعه حين كان يعبث ببعض الأدوات الحديدية .

ولم تـكن هذه العزلة عن لداته من صبيان الحى فحسب ، بل تجاوزتها إلى الانقباض عن أهله وعشيرته ، وهم أهل أمه من أخواله وخالاته ، الذين كانوا يعاشرونه و يساكنونه و يحنون عليه ، إذا استثنينا أمه التى تعلق بها تعلقا ما عليه مزيد ، و بكاها أمر البـكاء بعد وفاتها .

وترعرع الرصافى فى حجر أمه ، وكان من الطبيعى لمن فى مثل حال الرصافى من رقة الحال أن يطمح أو يطمح له ذووه إلى طرق باب التعلم التماساً لما قد يجره العلم من الرزق وفتح أبواب العيش .

ثقافة الرصافى :

لم يكن أمام رواد العـلم إذ ذاك إلاّ أن يسلـكوا أحد نهجين ، لا ثالث لهما :

أما النهج الأول وهو السائد إذ ذاك فى أكثر بلاد العربية فهو تعلم العلوم الدينية ، فالأزهر فى مصر قبلة القاصدين من المصريين وغيرهم من المسلمين ، وفى العراق مسجد النجف الأشرف ، ومدرسة الإمام أبى حنيفة ، و إلى جانب هذين المنهلين حلقات للدرس فى مساجد بغداد الـكبرى ، أو فى منازل المقتدرين من جلة العلماء ، والشبه قريب بين ما يدرس فى الأزهر ، وما يدرس فى هذه المساجد والمعاهد . ومادة الثقافة فى هذه المعاهد إسلامية عربية تتناول العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث ، وما يتصل بها من علوم المنطق والـكلام

و إلى جانب هذه العلوم اللسانية من نحو وصرف و بلاغة وعروض وأدب ، و إلى هاتين المجموعتين قدر لا يذكر من العلوم الـكونية .

ومصير المتخرج فى هذه العلوم هو مصير أشياخه : يتصدر للتدريس و يؤمه الطلاب ، و يجرى عليه رزق من وزارة الأوقاف إذا أسندت إليه الإمامة والخطابة فى أحد مساجد العراق .

أما النهج الآخر فهو الدراسة المدنية التى تعنى بحياة صاحبها ، و بالمجتمع الذى يعيش فيه ، و يتتبع ألوان المعرفة وما استحدث فيها ، وفنون الحضارة التى سطع نجمها فى بلادنا حينا من الدهر، ثم حلّق فى سماء الغرب ؛ وأخذت بلادنا تجد فى تحصيل ما فقدته بفعل الأيام والأحداث ؛ وتلك المدارس فى الوقت نفسه تعدّ طلابها لتوالى الوظائف العامة لسد حاجات الدولة بالموظفين المستنيرين .

وقد أنشأ مدحت باشا والى العراق العثمانى (١٨٦٨ م) — وكان رجل إصلاح أينما حلّ ، يجذب إليه قلوب الناس ، بما يسدى للبلد الذى يتولاه من العناية به والأخذ بيده إلى النهوض ، حتى لقد اتهمته الدولة العثمانية بسبب هذا التقرب إلى من يليهم ، بأنه يطمع أن يكون له بالعراق من الملك مثل الذى كان لمحمد على فى مصر — أنشأ هذا المصلح الـكبير ، فيما أنشأ ، عدة معاهد للتعليم كالمدرسة الرشدية العسكرية ، والرشدية الملـكية ، والمدرسة الحميدية ، ومدرسة الصناعات ، ومدرسة للضباط . وكانت اللغة التركية هى لغة التعلم فى أكثر هذه المدارس .

وأهم هذه المدارس شأنا ومستقبلا فى المجتمع العراقى المدارس العسكرية التى ترشح طلابها لتولى وظائف الدولة ، والتدرب على أعمال القيادة وفنون القتال ، وكثيراً ما يكون لمتخرجيها حظ الإيفاد إلى مقر الخلافة فى الاستانة . وقد عصف الزمان ، وأودى الإهمال بهذه المعاهد إلا « المدرسة الرشدية العسكرية » .

لم يكن أمام الرصافى إلا سلوك أحد النهجين ، فصار يتخبط فى حيرة واضطراب . يسير فى الطريق الأولى ولا يكاد يصل إلى غايتها ، حتى يعرج على الثانية ولكنه يخفق فيها ، فيضطر إلى العود إلى ما انتهى عنه !

ومن الطبيعى أن هذا التردد ليس من ورائه إلا الإخفاق ، والوقوف دون الغاية ، فلم يكن الرصافى بسبب هذه الدراسة فقيها فى الشريعة ، ولا أستاذاً للغة يتصدر مجالسها ، ولم يكن موظفا يتسنم الوظائف العامة أو ضابطاً يقود الجيش .

* * *

أرسلته أمه فى سن مبكرة إلى أحد كتاتيب بغداد ، فظل به إلى أن أتم حفظ آيات الكتاب الكريم ، وتعلم مبادىء الكتابة . وغادر الرصافى معهد تعلمه الأول ليلحق بمدرسة ابتدائية ، فقضى فيها سنوات ثلاثا ، حتى أتم الدراسة فيها وحصل على شهادتها ، ولحق بعد ذلك بالمدرسة « الرشدية العسكرية » ، وهى المدرسة الباقية من آثار الوالى المصلح « مدحت باشا » فى دار السلام . فمكث فيها سنوات ثلاثا ، وصل فيها إلى الصف الثالث ، وفى السنة الرابعة لم ينجح فى امتحانها ، فحمله ذلك على ترك المدرسة ، وكان هذا الإخفاق سببا فى نكوصه عن متابعة الدراسة .

ولقد أضاع الرصافى هذه الفترة من حياته فيما لم يعد له نفسه !

وانسد بإخفاقه فى مسعاه السبيل الثانى ، الذى يؤهل للوظيفة العامة ؛ والراتب المغرى ، والجاه العريض ، ولم يفد معروف منه كذلك شيئاً فى علمه ، ولا زيادة فى معرفته .

وربما كان هذا الإخفاق خيراً للرصافى ولأمته ، وللغتها ولآدابها ، فكسب ذكراً وخلوداً ، ما كنا نظنه يحلم بهما من وراء الوظيفة العامة ، والراتب المغرى ، والجاه العريض .

ولم يكن بد لهذه الشاعرية المستقرة فى قرارة نفسه ، والملكة التى وهبها من تنمية ورعاية ؛ ولا سبيل للتنمية والرعاية غير الدرس والتحصيل والتزود من اللغة التى تمده بزاد من مفرداتها وأساليبها ؛ والاطلاع على المأثور من جيد كلام العرب ، حتى يعرف طرقهم وأساليبهم فى التعبير عما يختلج بين جوانحهم من المعانى والأفكار .

وأتاحت له الأيام بعد هذه الجولات التى آب منها صفر اليدين أن يرد بحراً زاخراً بالعلم الإسلامى والأدب العربى هو « السيد محمود شكرى الألوسى » فاتخذه شيخاً وأستاذاً ، وقد سبق أن هذا السيد الجليل هو الذى لقب معروفا بلقبه الخالد « الرصافى » . فدرس على يديه مبادئ العربية والفروع ، ولازمه مدة اثنتى عشر سنة .

كما تتلمذ على غيره من أشياخ ذلك الزمان منهم « الشيخ عباس القصاب » و « الشيخ قاسم القيسى » الذى قرأ عليه كتاب « الهداية » فى الفقه الحنفى ، وكتاب « الولدية » فى آداب البحث . ويذكر الرصافىّ فى الأبيات التالية مواهب شيخه « قاسم القيسى » وحذقه لعلم المنقول والمعقول :

هو العالمُ الحبرُ الذى من يلُذْ به ... يكنْ فائزاً بالعلم والأدب الجمّ
بما شاء فى التوضيح من واقد الذكا ... وما شاء فى التقرير من صادق الحكم
بقيّةُ أعلام مضَوا ، وكفى به ... من العلم طوْداً فوق أطواده الشُّمّ
له نظرٌ فى غامض العلم نافذٌ ... ورأىٌ سديدٌ لا يحومُ على الوهم
إذا ما نحا فى العلم قتل عويصةٍ ... رماها بسهمٍ من فطانته مُصْمِ

ويعرّج على ذكر والده « الشيخ أحمد » فيصفه بالذكاء ، وحذق مسائل الميراث ، فيقول :

نماه أبوه الشيخ أحمدُ للعُـلا فبُورِكَ فى الآباء من والدٍ شهمِ
فقـد كان فرداً كابنه فى ذكائه فجـاء ابنه قَرْماً تولّد من قَرْمِ
وكانــ بتقسيمِ المواريث بارعاً يُنيفُ بها رأياً على ثاقب النجمِ

ولقد كانت دراسة الرصافى لعلم العربية ووقوفه على شواهد نحوها من أهم الأسباب التى نبّهت ملـكاته ، فقد حفزته على البحث عن تلك الشواهد فى مظانها ، والاطلاع على قصائدها كاملة ؛ ولعل حبّه للتفوّق على أقرانه ؛ ورغبته فى زيادة معرفته على معرفتهم ، هو الذى دفعه إلى هذا الاستقصاء ؛ الذى كان من نتيجته محاولة التقليد ، وقد روى الأستاذ طه الراوى[1] عن الرصافى قوله فى هذا الصدد : « حبّب إلىّ فى بدء دراستى العربيّة التبسّط فى فهم الشواهد وشروحها ، وتذوّقُ ما فيها من بلاغة ، فـكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه وما يلحقه من أبيات ، فاجتمع فى حقيبتى وفى حافظتى منها شىء كثير . وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر محاكياً ومحاذياً ، فقرضت الشعر ، وسنى دون السادسة عشرة ، فاجتمع عندى منه طائفة صالحة ؛ وقد كان القريض يأخذ من وقتى الشىء الـكثير » . ويؤكد الرصافى نفسه هذه الحقيقة فى تأثير دراسة الشواهد النحوية فى شاعريته بقوله فى حديث أدلى به إلى محرّر مجلة « الحرية » [2] :

« كنت أدرس العربية على أستاذى المرحوم « محمود شكرى الألوسى » وأنا إذ ذاك دون العشرين ، حتى حفظت ألفية ابن مالك ، وقرأت لها عدة شروح ، وكنت مولعاً بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم ،

---

(١) صديق الرصافى : للمرحوم طه الراوى فى مجلة « عالم الغد » البغدادية ، العدد التاسع من السنة الأولى : ص ٢٦٣ .

(٢) مجلة الحرية : المجلد الأول ، الجزء الأول من السنة الثانيـة ، فى أول تموز سنة ١٩٢٥ .

وكنت إذا مرّ بي فى أثنـاء الدرس بيت من الشعر راجعت فيه الشروح والحواشى ، فعلمت مَن قائله ؟ وماذا بعده أو قبله من الأبيات لحفظتها ، وكنت قوىّ الحافظة ، حتى حفظت شيئاً كثيراً من هذا القبيل ، بحيث أن أستاذى كان يلقبنى بالشواهدى ، وكنت أشعر بميل شديد إلى الشعر لشدة تأثيره فىّ .

وبينما أنا فى درس ألفية ابن مالك ، نظمت فى إحدى الليالى أكثر من عشرة أبيات ، وجّهت الخطاب فيها إلى شيخى وضمّنتها شيئاً من مدحه دون أن أذكر اسمه فيها ، وأتيت بها صباحاً إليه ، ولم أنشده إياها ، بل أعطيته الورقة التى كتبتها فيها ، وأنا خائف ألا تـكون مقبولة لديه . فقرأها جهراً ، بعد أن سألنى عن ناظمها وعلم أنها من نظمى ، وكان يقرؤها باستحسان ، وينظر إلىّ فى أثناء قراءتها بتعجب ، ثم قال : ولـكن عادة الشعراء أن يتخلصوا فيما ينظمونه من الشعر إلى ذكر اسم الممدوح ، وأنت أهملت ذلك ، فمن تعنى بهذا المدح ؟ فقلت وأنا فى قبضة الخجل : إننى قصدت مدحكم ، وظننت أن تقديم الأبيات إليكم كاف لإعلامكم أنها فى مدحكم ، واعتذرت !

ثم مضى علىّ زمن ، وأنا أنظم البيت والبيتين والثلاثة ، ولم أطلع على ما نظمت أحداً حتى جاءنى الحبّ ، فنظمت شيئاً كثيراً فى الغراميات ، وكان الذى أنظمه لا يزيد على خمسة أبيات أو ستة ؛ وقد جمعت ذلك مع بعض المقاطيع الهجائية التى دعت إلى نظمها إذ ذاك مماحكة بعض الأصحاب فى كراسة .

غير أنى لما تقدمت قليلا فى الإجادة فى نظم الشعر مزّقت تلك الـكراسة ، ولم أبق على شىء منها . وبعد ذلك أخذت أنظم الشعر فيما أشاهده من الحادثات اليومية التى تحدث بين يدىّ ، وكانت مشاهد البؤس من أشدّ الدواعى عندى إلى نظم الشعر . . »

ومن هذا نرى أن دراسة العربية ونحوها ، والعكوف على شعر الشواهد ،

هو الذى شجعه على الاطلاع ، وهو الذى فتق أكمام شاعريته ، وشحذ مواهبه ، وهيأ له معرفة كاملة باللغة ، وإلماماً بغريبها ونحوها وصرفها وبلاغتها وأدبها ، واستطاع الرصافى بهذا القدر من الثقافة ، وبما وهب من حدة الذهن وصفاء الطبع أن يكون الشاعر الفحل ، وأن يكون فيما بعد أستاذاً فذًّا فى العربية فى أكثر من معهد من المعاهد العالية فى تركيا وفلسطين والعراق .

وكان للرصافى ولوع بفيلسوف المعرة أبى العلاء ، فأكب على شعره ، وحفظ أكثره ، وتشرب آراءه فى الكون والحياة والناس ، كما كان له مثل ذلك الولوع بأبى الطيب المتنبى الذى كان يلقبه « شاعر العرب » وقد نقل شعره فى كراسات ظل يحتفظ بها ويداوم النظر فيها طول حياته . ولا شك أن الوقوف على الشعر الفحل ، ومعرفة منازع الشعراء فى التعبير عن عواطفهم ؛ من أهم ما يعين الشاعر الموهوب ؛ ويأخذه بيده إلى سبيل الإجادة والإحسان .

الفصل الثانى

كفاح الحياة

الرصافى المعلم :

فى أثناء هذا الجد فى الدرس والتحصيل وقرض الشعر الذى كان ينفق فيه وقتا غير قليل ، كان الرصافى فى حاجة ملحة إلى المال ليستعين به على مطالب حياته ، ويتقوى على متابعة الدرس ، وينهض بأعباء نفسه ومن يعنى به من ذوى قرابته ، وهو الأبى الذى يعاف أن يمد يده . فكان عليه أن يعمل ليكسب من العمل ما يحفظ ماء وجهه من أن يراق ، وهو القائل :

لا تشك للناس يوماً عسرة الحال   وإن أدامتك فى هم وبلبال
وجانب اليأس واسلك للرجا طرقاً   فالدهر ما بين إدبار وإقبال
واركب على صهوات الجد مغترباً   فيما تحاول ذا حل وترحال
واطلب على عزة بيض الأنوق ولا   تطلب لعمرك أن تحظى بمفضال
لم يبق غير الذى غلت أنامله   إما بأغلال شح أو بإقلال

وأقرب الأعمال وأيسرها على مثل الشاعر بهذا القدر من الثقافة الذى حصله ، مهنة التدريس فامتهنها فى بعض المدارس الرسمية الابتدائية فى بغداد وكان يتقاضى على هذا راتبا ضئيلا .

ولكن الأمل بدأ يرسل وميضاً على حياة هذا الشاب الذى بدأ يستقبل

الحياة ، فقد خلت وظيفة التدريس فى قضاء (مندلى)[١] ورأت الحكومة أن يكون أساس التعيين التفوق فى امتحان مسابقة يجرى بين الراغبين فى هذه الوظيفة ، وكان عدد المتقدمين لذلك الامتحان أحد عشر رجلا ، أحدهم معروف الرصافى ، وقد كتب له الفوز والغلبة على سائر المتقدمين . ولعل هذا كان أول فوز يظفر به الشاعر فى حياته ، ويفتح له أبواب الأمل . ولكنه لم يكد يتمتع باقتطاف ثمار هذا الفوز حتى رغب إليه مدير معارف بغداد بإيعاز من واليها (ناظم باشا) التركى أن يتنازل عن التدريس فى القضاء المذكور على أن يعتاض عنه تدريس آداب اللغة العربية فى المدرسة الإعدادية الرسمية فى بغداد براتب لا يقل عن راتب التدريس فى القضاء المذكور ، وإن كان السبب الذى طلب إليه من أجله الاستعاضة عن هذه الوظيفة بتلك غير معلوم . فقبل ذلك وبقى فى عاصمة العراق يقوم بتدريس العربية فى المدرسة المذكورة إلى إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م[٢] .

ولقد كان الرصافى مدرساً ناجحاً ، بعلمه وشخصه : مهيباً من طلابه ، محببا إليهم . ويصف الدكتور إبراهيم عاكف الألوسى شخصية الرصافى وتأثيرها فى نفوس طلابه بقوله : « إنى أذكر الرصافى الذى كان أول مدرس تلقيت عنه اللغة العربية فى الإعدادية الملكية قبل التحاقى بمعهد الطب فى الآستانة ، أذكر فيه اتزانه ووقاره ، والله لقد كان التلميذ منا يفرق لطلعته وهيبته ، ويشعر بالاحترام والطاعة ، ويستجمع شتات أفكاره ، ليصغى ويسمع ، وقد ظلت حلاوة ألفاظ الرصافى بعد هذا العهد الطويل تتمثل لى فى مختلف أدوار حياتى ، وإنها تتجدد الآن ، فكأنها قيلت اليوم » .

---

(١) قضاء من اقضية لواء بغداد و « القضاء » فى العراق مثل « المركز » فى مصر و « اللواء » فى العراق هو « المديرية » و « المحافظة » فى مصر .

(٢) روفائيل بطى « الأدب العصرى فى العراق العربى » المطبعة السلفية — مصر ١٩٢٣ جـ ١ ص ٧٠ .

وفى هذه الأثناء كان الرصافى يقرض الشعر الرصين ، ويبعث به إلى أمهات الصحف فى العراق وسائر البلاد العربية ، فنشر كثير من شعره السياسى والاجتماعى فى صحف مصر وسوريا ، ولا سيما صحيفتى المقتبس والمؤيد ، فطوف ذكر الرصافى فى بلاد العربية وشرق وغرب وذاع صيته ، واعترف له الفضلاء بالفضل ، والأدباء بالإجادة .

الرصافى فى تركيا :

كان بين العرب والترك أخوة يرفرف فوقها علم الإسلام ، ولكن غلبت على بعض الترك العنصرية ، فغلبوها على سياستهم ، وأساء بعضهم إلى العرب فهبوا ينتقصونهم ، وظهرت بوادر الفتنة ومبادىء الشقاق والتفرقة ، وقامت بعض الصحف التركية تزيد الفتنة اضطراماً ، وصادف أن زار القسطنطينية « السيد رشيد رضا » فهاله ما رأى من انقسام الرأى وبواكير التفسخ، وهو من دعاة الوحدة الإسلامية ، فأنذر بالكارثة . ولكن القوم لم يصيخوا له وكان أكثر رجال الصحافة تعنتاً وتعصباً وكراهية للعرب « أحمد جودت » صاحب جريدة « إقدام » التركية ، فقد نال من العرب وتطاول على مجدهم ، وعلى رجالهم فقام جماعة من المخلصين للعروبة ، فأهانوا صاحبها كما أهان عروبتهم ، وذهب جماعة من الممثلين للعرب فى مجلس المبعوثان العثمانى إلى الصدر الأعظم ، وشكوا إليه تجنى الجريدة وصاحبها ، فأرضاهم بتعطيل الجريدة ومصادرتها ، ولم يلبث صاحبها أن أعاد إصدارها بعنوان جديد ، واعتذر إلى العرب عما كان منه ، وأراد أن يبالغ فى تبرئة نفسه من سوء النية ، فأعلن عزمه على إصدار جريدة عربية تشيد بذكر العرب ، وتقرب الهوة بينهم وبين الترك ، فأرسل إلى معروف الرصافى يطلب إليه الشخوص إلى تركيا للمساهمة معه فى إصدار هذه الجريدة فسر الرصافى بهذه الدعوة وخدعه الوعد الخلاب ، فلبى الدعوة وأسرع إلى

القسطنطينية ، يحدوه الأمل فى خدمة أمته والإشادة بمجدها ، ولـكن خاب فأله إذ وجد أن « أحمد جودت » لم يكن صادق الرغبة فيما وعد ، فبقى الرصافى هناك لا عمل له، وشهد كثيراً من الأحداث التاريخية التى اعتورت نظم الحـكم فى تركيا ممـا سنشير إليه فى بحث « شعره السياسى » .

وفى هذه الأثناء اتصل الرصافى بأحرار الانقلاب الدستورى ، وأيّدهم ، وأخذ ينافح جهاراً عن مبادىء العدالة والحرية ، ثم قصد إلى سلانيك ، و بقى فيها شهراً . ثم قفل راجعاً إلى القسطنطينية ، وسافر منها إلى بغداد . وفى طريق عودته أعوزته نفقات السفر، وهو فى بيروت ، فابتاع مجموعة شعره « محمد جمال » صاحب المـكتبة الأهلية — وقد نظم هذه المجموعة وجمعها العـالم الأديب « محيي الدين الخياط » فى ديوان أصدرته المطبعة المذكورة باسم (ديوان الرصافى) .

عاد الرصافى إلى بغداد ، وقبل أن يستقر به المقام فيها وصلت إليه برقية من إخوانه العرب الذين تركهم فى القسطنطينية ومنهم «فهمى المدرس» و« جميل صدقى الزهاوى» وغيرهما يستحثونه على العودة إلى قاعدة الدولة فى تركيا ، بعد أن يسروا له سبيل التحرير فى جريدة عربية اسمها « سبيل الرشاد » وكان يصدرها هناك « عبد الله مبعوث آيدين » فلبى الرصافى الدعوة ، وتسلم وظيفته الجديدة ، وظل يحرر فيها نحو سنة . وإلى جانب هذا العمل الخطير كان يقوم بالتدريس فى المدرسة الملـكية العالية ، يدرس فيها العربية ، ويدرس آدابها فى مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف . وقد طبعت محاضرات الرصافى التى ألقاها فى هذه المدرسة عن الخطابة عند العرب فى كتاب طبع فى تركية بعنوان « نفح الطيب فى الخطابة والخطيب » كما أن مجلة المنتدى الأدبى نشرت بعض محاضراته هناك فى الأدب والشعر .

وقد بقى الرصافى مدرساً وصحفياً حتى انتخب سنة ١٩١٢ مندوباً عن

(المنتفق) فى المجلس النيابى العثمانى ، وقد عرض عليه رئيس الاتحاديين ، وكان الرصافى اتحادى النزعة إذ ذاك ، النيابة عن بغداد أو غيرها فأبى الرصافى قائلا : إن هناك من أشراف بغداد ورجالها من هو أحق بها منه . ورضى أن يكون نائباً عن الناصرية (المنتفق) فتم له ما أراد .

أصبح الرصافى من نواب المبعوثان وبقى فى الآستانة طيلة الحرب العظمى الأولى ، وكان يساكنه السيد عبد الله آيدين الذى عرض عليه الزواج ليهيىء له أسباب الراحة والاستقرار ، ويبعده عن مواطن الريب والشبهات ، فتزوج ثيباً من نساء أزمير تدعى « بلقيس » شقيقة ضابط متقاعد يدرس فى المدرسة الحربية العسكرية ، فبنى بها وسكن معها فى بيت صغير ، وكانت عقيماً فلم تنجب ولداً . وقد طلقها معروف وهو فى تركية لغير سبب معروف ، مدعياً أن دخله لا يساعده على القيام بأعباء أسرة ينفق عليها ويكترى لها بيتاً ، هذا هو السبب الذى ذكره الرصافى لخاصة أصدقائه . ولكنه طلقها برضى منها ، بعد أن عزم على الرجوع إلى بغداد ، وكان راتبه من التقاعد الذى يتقاضاه من حكومة العراق ثمانية عشر ديناراً فى الشهر . والواقع أن الرصافى كان رجلا لا يقوى على تحمل المسؤليات ، ولو أراد الولد لكان له مندوحة فى التزوج من غير هذه الزوجة العقيم[1] .

---

(١) أفدنا فيما سقناه عن زواج الرصافى وطلاقه زوجته مما كتبه الأستاذ عطا حمدى الأعظمى فى كتاب قيد الطبع ، ومما وقع تحت أيدينا من المصادر وما يعرفه أكثر الناس ، ولكن معالى الشبيبى (حفظه الله) أنبأنا أن الرصافى أسر إليه حين عودته إلى العراق بعد الحرب العامة الأولى أن له زوجاً فى تركيا ، وأنه يحن إلى العودة إلى تركيا ليلتقى زوجه ، وعلى هذا يجوز أن يكون الطلاق قد وقع بعد هذا الحديث الذى سبقت الإشارة إليه. ويتفق الأستاذ مصطفى على (أدب الرصافى ٧٦) مع معالى الشبيبى فى أن الرصافى عندما غادر الآستانة فى أوائل سنة ١٩٢٣ وسافر إلى سورية ومنها إلى العراق ترك زوجه بالآستانة دون أن يطلقها. قال : وأعلم يقيناً أنه كان عدما بالمال ، وهو بالعراق ، وكانت بينهما مراسلة . غير أن زمان البعاد قد طال بينهما ، وأمد الفراق قد امتد ، ومرت على الرصافى أيام عابسة فلم تسعفه ذات =

كان الرصافي يلبس العمامة فى تركية ، ولـكنه طالما ضاق ذرعاً بهذا الرمز الدينى ، وهو المتحلل من التزمت والتوقر ، فأراد أن يجارى المجتمع بالخروج من هذا المظهر الذى يحد من حريته، فخرج للناس فى ثوب جديد، إذ ترك العمامة التى كانت تشعره بالهرم قبل أوانه ، وتمنعه من أن يخوض مع الناس كالذى خاضوا .

وذلك ما كان يميل إليه وطالما صرح به ، ويذكر السبب المباشر الذى أدى به إلى خلع زى المشايخ وارتداء الزى الأوروبى ، فقد روى أنه سافر مع صديق له من الضباط الأتراك إلى سلانيك، وكان رجال السلطة إذ ذاك يطاردون ذوى العمائم ، الذين كانوا يشجعون الناس على الثورة وشق عصا الطاعة ، وفى الطريق غاب عنه الضابط قليلا ، والرصافى فى انتظار عودته ، وإذا رجال الشرطة يقبضون على معروف ، ويقودونه إلى مخفر قريب ، ظناً منهم أنه أحد المشاغبين .

وقد عدّ الرصافى هذه الحادثة من جناية العمامة عليه ، وما هى إلا فترة وجيزة حتى خلع الرصافى ما كان عليه من ثياب وغطاء ، وارتدى ثياباً عصرية ، ولبس طربوشاً ، وقبض على عصا مفضضة قصيرة ، كان شباب الأتراك يحملونها للزينة إذ ذاك .

وقد كان معروف بذلك راضياً مسروراً ، فرأى نفسه من رجال العصر فى فكره وبزته ، واندمج بين الناس ليؤدى رسالته فى خدمة العروبة وتناسى ما كان فى بدايته من مظهر دينى ، فخاض فى الذى خاضوا ، وأمّ المجتمعات ،

= يده بما يقيم أوده ، ولا بما يعد به زوجه ، وقد رأت هى ألا أمل فى عودة حياتهما ، ولا رجاء فى استئناف الصلة ، فاستفادت من القانون المدنى التركى ، وطلبت الفراق ، فحكمت به المحكمة التركية .

وصار رجلا جديداً فى كل شىء . وكثيرا ما خاض فى السياسة وهاجم الجامدين من رجال الدين .

وترى مصداق ذلك فى أبيات من قصيدته « تجاه الريحانى — هى النفس » يسائله فيها عن حقيقة ما رأى فى رحلته من تقاليد سمع الرصافى عن وجودها فى بعض بلاد العروبة التى زارها الريحانى ورأى فيها تعلقاً بالشكليات وإنكاراً لبعض المظاهر والأزياء كحلق اللحى وإرسال الشوارب بقوله :

فما حالةُ الإخوان فيها فإننا ... نرى الناسَ عنهم يذكرون الغرائبا
فهلْ كفَّرُوا من ليس يرسلُ لحيةً ... وهل فسَّقوا من ليس يُحفى الشواربا
وما أنا من قومٍ يدينونَ باللِّحى ... ولم يقبلوا إلا من الحلق تائبا

وفى قوله فى « رخص المناصب » :

نحنُ قومٌ من الدراويش تغنى ... عندنا عن مدارس العلم « تَكيَّةْ »
رخُصتْ عندنا المناصب حتَّى ... قد شروْها بسُبحةٍ وبلحيةْ

وقد ظل الرصافى فى تركية حتى فتح الإنكليز العراق ، ووضعت الحرب أوزارها ، فغادرها إلى الشام ، وأقام فيها حيناً غير سعيد ، ذاق فيه ألم الحرمان بما عرف عنه من الإباء والترفع ؛ فلم يسعد بما سعد به غيره من المنصب والجاه والعطاء فى عهد حكومتها العربية .

ولم يطل به هذا الألم ، فقد استدعى إلى بيت المقدس ، ليقوم بتدريس الآداب العربية فى دار المعلمين ، فغادر الشام ، وابتسمت له الحياة ولقى من التكريم والتقدير فى فلسطين ما هو أهل له ، وقد سجل الرصافى فى شعره عتبه على الشام ما لقى فى أرضها مما خيب أمله ، لولا أن فلسطين فتحت ذراعيها لإيوائه قال :

فليت سوريّة الوطفاء[1] مُزنتها   عن العراق وعن واديه تُغنيني
قد كان فى الشام للأيام مُذ زمنٍ   ذنبٌ محتْه الليالى فى فلسطينِ
إذ كان فيها (النشاشيبيُّ) يسعفنى   وكنت فيها خليلا (للسكاكينى)
وكان فيها (ابنُ جبر)[2] لايقصر فى   جبر انكسار غريب الدار محزونِ



الرصافى فى عنفوان شبابه

(١) سحابة وطفاء أى مسترخية الجوانب لكثرة مائها .

(٢) الكاتب البليغ والأديب النابه المرحوم الأستاذ إسعاف النشاشيبي، والمرحوم الأستاذ خليل السكاكينى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والسيد عادل جبر من أعلام فلسطين .

فى عهد الحكم الوطنى :

ولما قامت الحكومة الوطنية المؤقتة فى العراق سنة ١٩٢١ دعى الرصافى إلى وطنه، ليساهم بعقله وفضله وجهاده فى نهضة وطنه فلبى الدعوة، واستقبل فى وطنه استقبالا رائعا . وقد عينته وزارة المعارف نائباً لرئيس « لجنة الترجمة والتأليف » ويبدو أن الرصافى لم يكن مرتاحاً لإسناد هذا المنصب إليه ، فكان يراه أقل من منزلته وأدنى من همته ، وزاد فى ألمه أنه لم يعيّن رئيساً لتلك اللجنة ، ولا سيما أنه لم يكن لها رئيس ؛ وقد صوّر أحد أصدقائه نقمته على الحكومة ؛ وسخطه على هذا المنصب الذى اختارته له بقوله : اتصل بالرصافى ذات يوم أن الحكومة عيّنته نائب رئيس للجنة التأليف والترجمة والنشر ، فزارنى فى منزلى مرعداً مز بداً وهو يقول : يا أخى عجيب والله أمر هؤلاء القوم ! ليس فى بغداد لجنة للتأليف والترجمة والنشر، وليس لهذه اللجنة المزعومة رئيس، وفيها أعضاء، فما بالهم يعينوننى نائباً للرئيس؟ هل لك يا أخى أن تشرح لى الحكمة فى هذه التصرفات ؟ ألا ترى فيها نهاية التحقير والإهانة ؟ لقد رفضت المنصب حفظاً لكرامتى ، ألا ترى أننى أحسنت ؟ ! ثم يتطلع الرصافى إلى أحوال المجتمع فيسوؤه هذا الخمول المستولى على الشعب[1] :

أيا سائلا عنا ببغدادَ إننا ... بهائمُ فى بغدادَ أعوزها التبنُ

ونحن أناسٌ لم نزل فى بطالةٍ ... كأنا يهودٌ كلُّ أيامنا سبتُ

ويبدو أن الرصافىّ اضطر أخيراً لقبول هذا المنصب على مضض، أمام ضغط الحاجة وأمام إلحاح أصدقائه ، ولم يطل بقاؤه فيه أكثر من سنة ونصف؛ والظاهر أن اعتزاله المنصب يرجع إلى عاملين أولهما ما قدمنا من قبوله إياه كارهاً ، والآخر

(١) أنا ومعروف الرصافى — للأستاذ عبد الله المشنوق فى العدد الثانى من السنة الأولى لمجلة « الشعلة » الصادر فى ١٨ آذار سنة ١٩٤٧ م .

رغبة أولى الأمر عن ثورته وعنفه فى نقد الساسة والمجتمع ، ويبدو ذلك من أبياته التى وجهها إلى « أولى الأمر »[1] يخاطب بها رجال الحكومة سنة ١٩٢٢ والتى يقول فيها :

يا مُبعديَّ بظلمٍ عن مناصبهم　　وقاطعينَ إلى ما أبتغى طرقِى
علمتُ كلَّ خفىٍّ من ضمائركم　　وما علمتُ الذى ترضَوْن من خُلقِ
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم　　حتى يكون لديكم حائزَ السَّبَقِ
إن كان عقلٌ ، فإنى عاقلٌ فطنٌ　　أو كان حمقٌ فعندى أحمق الحمُقِ
فجرِّبونى تفوزوا عند تجربتى　　بما تريدون من طيشٍ ومن نزَقِ
وإنْ أبيتم سوى مَنْ عرضه دَنِسٌ　　فلستُ معكم على شىء بمتّفقِ
لا أبعدَ اللهُ غيرى عن مناصبكم　　إنى بتدنيس عرضى غيرُ مُرتزِقِ

ولم يطق الرصافى صبراً على البقاء فى العراق ، فآثر الهجرة عن وطنه على مقاساته آلام الحرمان فيه . فسافر إلى الآستانة ؛ ويقول الأستاذ مصطفى على : إن الرصافى كان قد تزوج فى الآستانة ، وأبقى زوجه هناك عند ما أراد أن يعود إلى العراق بعد إعلان المدنة ، ولما أزمع السفر من العراق تذرع برغبته فى زيارتها ، ليتمكن من نيل ما له من إجازة ، ويتسلف رواتبه عنها ، فيستعين بها على تذليل عقبات السفر ، ولكنه لم يوفق لما أراد ، وقد أشار الرصافى إلى تلك الذريعة بقوله :

قد عاقنى الإملاق عن سفرى إلى　　من طال معتلجاً إليه حنينى
وأنا المشوق ولست ممّن شاقهم　　بقر العُذيب ولامها يَبرينِ
لكنّ قلبى لا يزال يشوقُهُ　　ظبىٌ أقام بدار قسطنطين

(١) ديوان الرصافى ٤٨٠ .

وأشار في قصيدة أخرى إلى زوجته ساعة التوديع ، حين اضطر في سفره هذا إلى مغادرة الآستانة قافلا إلى العراق :

تقول ابنةُ الأقوامِ وهيَ تلومُني ... وأدمُعها رقراقةٌ في المحاجرِ
إلى كم تجدّ البين عني مسافراً ... أما تستلذّ العيشَ غير مُسافرِ
وأسكتها عنّي نَشيجٌ فلم تزلْ ... تردِّدهُ منها بأقصى الحناجرِ
إلى أن تفانى الصبرُ فافترّ مدمعي ... كدمعها عن لؤلؤٍ متناثرِ
ولا غروَ أن أبكي أسىً من بكائها ... فأعظمُ ما يُشجي بكاء الحرائرِ
وقلتُ لها : إني امرؤٌ لي لبانةٌ ... مَنُوطٌ مداها بالنجوم الزواهرِ
تعوّدتُ ألا أستنيم إلى المُنَى ... وألا أرى إلا بهيئة ثائر
وأن أمضيَ الهمَّ الذي هو مُقلقي ... بطيٍّ الفيافي أو بخوض الدياجرِ
أما ترينَّ الوجه منّي شاحباً ... لكثرة ما عرّضْتُهُ للهواجرِ

و بعد نحو سبعة أشهر من مغادرة بلاده :

آب المســافرُ للدّيا ... رِ على اضطرارٍ في إيابهْ
لو كان يجنحُ للايا ... بِ لما تعجّل في ذهابهْ[1]

ولما عاد الرصافي إلى بغداد ، أصدر جريدة يومية باسم (الأمل) ولكنها احتجبت بعد مدة قصيرة ، ولم يصدر منها غير ثمانية وستين عدداً ؛ ونذكر هنا قولا للأستاذ محمود المبطة ، كتبه في مجلة الجزيرة التي تصدر في الموصل ، ولهذا القول إن صح قيمة تاريخية كما سترى ، قال :

(١) محاضرات الأستاذ مصطفى علي التي ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية عن (معروف الرصافي) ص ٨ .

سألته — يعنى الرصافى — عن جريدة « الأمل » التى يصدرها فى بغداد ، فقال : إنها ليست لى ، وإن وضع اسمى عليها ، وذلك لأن المرحوم « حلمى العمر » كانت قد سحبت إجازة جريدته ، فبقى بدون رزق ، فأخذت له امتيازاً باسم « الأمل » وكان يتعيش منها ، وليس لى من هذه الجريدة إلا الاسم فقط[١] . .

* * *

وبعد أن انتهى دور الحكومة المؤقتة، وذلك على أثر دعوة المجلس التأسيسى الذى سنّ دستور العراق وغيره من القوانين الأساسية ، التى عنيت نظام الحكم فى العراق ، وحدّد مسئولية الحكومات أمام المجالس التشريعية إلى غير ذلك من الأصول المدونة فى الدستور العراقى ، مال الرصافىّ فى هذا الدور إلى وظائف الدولة ورأت وزارة المعارف أن تفيد من اختصاصه فى اللغة العربية وآدابها، فعينته مفتشاً للّغة العربية فى مدارسها ، وذلك حينما تقلد منصب وزارة المعارف الأستاذ رضا الشبيبى ، وذلك فى سنة ١٩٢٤ ، وكان رئيس الوزارة فى هذا الوقت السيد ياسين الهاشمى السياسىّ العراقىّ المشهور .

وقد قام الرصافى فى وظيفته هذه بجولات فى شمال العراق وجنوبه ، لتفتيش المدارس ، وله فى هذا الباب تقارير مفيدة ، وظل الرصافىّ يشغل هذه الوظيفة حتى سنة ١٩٢٧ ، وفيها عيّن مدرساً للّغة العربية وآدابها فى دار المعلمين العالية ، وهى آخر وظائف الحكومة التى تولاها ، وقد طبعت محاضراته التى ألقاها على طلاب هذه الدار فى كتاب سماه « دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية »[٢] .

---

(١) الرصافى قال لى — للأستاذ محمود العبطة — مجلة « الجزيرة » الموصلية ، العدد ١٢ من السنة الأولى . أول نيسان ١٩٤٧ .

(٢) نشر ملحقاً بمجلة التربية والتعليم ، ثم طبع فى مطبعة دار السلام سنة ١٩٢٨ م .

وعندما استقال من التدريس بدار المعلمين العالية سنة ١٩٢٨ حاول أن يهجر العراق ، فسافر إلى البصرة ، ونزل عند صديقه « عبد اللطيف المنديل » غير أن صديقه « عبد المحسن السعدون » شعر بسفره وعزمه ، فحال دون بلوغه ما يروم(١) .

وفى سنة ١٩٣٠ انتخب الرصافىّ نائباً فى المجلس النيابىّ العراقىّ عن لواء « العمارة » ، وهذا المجلس هو الذى عرضت عليه المعاهدة الانكليزية ، فكان الرصافى من معارضيها ؛ وأعيد انتخابه فى ذلك المجلس مرة أخرى نائباً عن لواء « بغداد » وأعيد انتخابه بعد ذلك ثلاث مرات عن لواء الدليم .

وكان الرصافى قد غادر بغداد إلى « الفلوجة » منذ سنة ١٩٣٣ ، واتخذها دار إقامة فقدم له صديقه « السيد عبد العزيز آل عريم » داراً جميلة تطل على الفرات ، ومن حولها حديقة جميلة ، وقد بقى هناك موفور الكرامة ، ينتجعه أهل الأدب والمعجبون به ، وهنالك ألف كتابه « الشخصية المحمدية » أو « حلّ اللغز المقدس » . وقد وصف الرصافى ديوان آل عريم فى الفلوجة بهذه الأبيات التى نقشت على صدر ذلك الديوان :

ديوان آل عُرَيْمٍ خيرُ الدواوين مبنَى
على الفرات مُطِلٌّ يحكيه فيضاً وحسنا
ما جاءه الضَّيفُ إلا أطال شكراً وأثنَى
من قبلُ كان «علىٌّ» به يقوم ويُعْنَى
واليوم بابن علىٍّ فيه الفخارُ تكنَّى
بُشرى لآل عُرَيمٍ فذكرهمْ ليس يَفْنَى

---

(١) أدب الرصافى للأستاذ مصطفى على ٧٩ .

وقد بقى الرصافى فى الفلوجة إلى سنة ١٩٤١ وفى تلك السنة غادر الفلوجة إلى بغداد ، فسكن داراً فى ضاحية الأعظمية فى أحد شوارعها الرحبة الجميلة ؛ غير أن الفترة التى قضاها فى الأعظمية ، وهى أواخر سنى حياته ، كانت فترة شاقة قاسى فيها كثيراً من الآلام النفسية، بسبب ما كان يعانى من ضيق مادىّ ؛ فإن الرصافى لم يحاول فى مرحلة من مراحل حياته أن يوازن بين نفقاته ودخله ؛ ولم يحسب فى يومه حساباً لغده ، ولم يكن يتوقع فى شبيبته أن يصيبه هذا العنت فى شيخوخته ، فألفى نفسه فى أخريات عمره ضحية قومه الذين أنفق حياتهم فى الإشادة بهم ، وتنبيههم إلى مدرج العلياء ومراقى السعادة والسيادة :

يا قوم إنى فى الدنيـا ضحيتـكم ... فقرّبوا من حياتى كل قربان

يا لاهجين بشتمى فى مجالسهم ... ناموا على الأمن فى أحضان غفرانى

لا تحسبونى منكم جازعاً ضجراً ... وإن يكن شظفى فى العيش أضوانى

إنى ألِفْتُ على الأيام مخمصتى ... فالنعم والبؤس عندى اليوم سيّانِ

وظل الرصافى يعانى من العوز والإملاق ما يعانى ، حتى كتب أحد أدباء العراق مقالا فى مجلة « الأديب » التى تصدر فى بيروت ، وصف فيه ما وصلت إليه حالة شاعرنا من البؤس والفاقة ، ووقعت هذه الكلمة فى يد سرىّ كريم هو السيد « مظهر الشاوى » فأثارت نخوته وهزّت أريحيته ، وأنكر أن تصل حال الرصافى إلى هذه الحال من الهوان على بلده وقومه ، فأسرع إلى نجدته ، وكتب إليه كتاباً جاء فيه « . . وقد علمت والألم يحزّ فى نفسى أنك تعانى فى هذه الأيام السود حالة لا تشرف القوم الذين أوقفت عليهم حياتك منذ صباك ، تذود عنهم بمقولك ، وتنافح دونهم ببيانك ، وساءنى أن تتحالف عليك صروف الدهر ، وأنت ابن هذا الوادى الذى كنت به برًّا ، فلم تلق من أبنائه غير العقوق والجفاء ، وها أنا أتقدم إلى أستاذى وأخى معروف وأنا المعجب بإبائه ،

الفخور بأنفته وكبريائه بهذه الهدية المتواضعة ، راجياً التنازل بقبولها ، سائلا المولى أن يديم أستاذنا ذخراً للوطن ممتعاً بصحة وعافية ، حتى تكتحل عيناه برؤية بلاده حرة عزيزة كريمة . . »

وكانت الهدية مبلغاً من المال قدرها خمسون ديناراً . . . وأردف هذا الكتاب بكتاب آخر جاء فيه « . . شق على أخيك الذى يكن لك أنبل عواطف الإخلاص ما صرت إليه فى الأيام الأخيرة بعد تنكر الدهر لك وثقل المرض عليك ، وأسفت أن يحول عدم معرفتى بما تعانيه — كما يشهد الله — بينى و بين القيام على رعايتك والعناية بك ، ولقد أقدمت على إرسال خمسين ديناراً إليك وأنا متهيب خشية أن يثور إباؤك ، ولكن حبى لك وإكبارى لنفسك الكريمة السمحة شجعانى على الأمل بأن أظفر بتنازلك بقبولها . وقد وقع نظرى فى هذا اليوم على مقال منشور فى مجلة « الأديب » البيروتية فاهتاجت لواعج الحزن فى قلبى، واضطرمت نار الألم بين جوانحى ، وكبر علىّ أن تألف على الأيام المخمصة ، وأن تتساوى لديك النعم والبؤس ، وهأنذا أتقدم مرة أخرى ، وليست أخيرة من أخى وأستاذى بمبلغ مائة دينار ، متمنياً على الله أن يكلأ صحته الغالية بعنايته ، و يرعاه بلطفه ، راجياً منه قبولها . مع العلم بأنى قطعت على نفسى عهداً أن أجرى عليه مرتباً شهرياً قدره أربعون ديناراً ، يتقاضاها منى مدى الحياة . ولئن كانت الحكومة قد حرمتك النيابة عن الأمة فإن لك مكانتك الحقيقية التى تتمتع بها فى قلوب الذين يقدرون شرفك وعظم نفسك وكريم سجاياك ما يغنيك عن كل نيابة زائفة أو عينية مصطنعة . و إن لك من رزق أخيك الحلال الوافر الذى يقاسمك إياه راضياً مغتبطاً فخوراً ما يزهدك فى كل مرتب آخر عداه . . »

وكان هذا العطاء السمح الرضىّ خير عزاء للرصافى فى محنته ، أطلق شاعريته فى تمجيد ذلك الشهم الأبىّ :

أمظهرُ قد أخرستنى إذْ شملتنى ... بعاطفة قد ضاق عنها التصوّرُ
على حين كان الناسُ شتّى قلوبهم ... وكلٌّ لكلٍّ كارهٌ متنكّرُ
فأطلقتَ بالإحسان حرًّا مقيّداً ... به يتراءى جدُّه المتعثّرُ
سأشكرك الشكرَ الذى أنت أهلُه ... وإن كان شكرى عن نوالك يقصُر
وأجعلُ قرص الشمسِ عند طلوعها ... علامةَ شكر كل يوم يكرّرُ
إذا ذرّ قرنُ الشمس عند كل صبيحةٍ ... تلا قرنَها شكرٌ كوجهك مزهرُ

ولم تقف عطايا السيد « مظهر الشاوى » عند المال ، بل أرسل رسله يجوبون الأسواق ويبتاعون له الحلل والكسا ، وعاقه أن يفعل ذلك بنفسه أنه كان معتقلا فى « العمارة » وذلك ما أكبر صنيعه ، وجعله مثلا نادراً وأعجوبة فى الحياة المعاصرة ، وهذا ما جعل الرصافى يكتب إليه « . . أسفت على تجشمكم هذه الكلفة واقتحامكم تلك المصاعب فى جمع هذه الثياب بإرسالكم الرسل إلى الأسواق ، وهذا وإن كنت لا أستغربه من كرم أمثالكم ، إلا أن معاناتكم هذا العناء من أجلى ، وأنتم فى المعتقل ، جعلنى آسفاً لأنى كنت السبب فيه ، ومهما يكن فإنى أرجو ألا تغرقونى كل الإغراق فى لجة إحسانكم بل اتركوا لى مجالا للتنفس حتى أستطيع أن أقوم بواجب شكركم إذا وفقنى الله . واعلم أيها الشهم الهمام أننى اليوم أعيش فى حياة معتلة وصحة مختلة ، وفى آخر أيام الحياة التى لم يبق عندى شيء من آمالها ولا من لذاتها سوى آلامها . فلذا أصبحت الماديات لا قيمة لها عندى ، فلا أنظر إليها إلا فى الدرجة الثانية من أمور الحياة ، وإنما يهمنى وينعش نفسى وينفس كربى عطفكم على وعنايتكم بى واهتمامكم بأمرى ، فهذا عندى لا تعادله الدنيا بجميع زخارفها . أما الدنانير والثياب الفاخرة فتأتى فى المرتبة الثانية فى نظرى ، ولا تحسبوا هذا زهداً منى فى الدنيا ، كلا ! بل هو مقت لها وتذمر من أهلها الذين نسيت

نفسى لأجلهم ، وقضيت عمرى فى البكاء على ما نابهم ، وما أنا بنادم على ذلك . . »

يا خير ذى نسبٍ بالنبل معتجرٍ بالمجد مؤتزرٍ بالفخر ملتحفِ
أهديت لى حُلةً غيظ الحسودُ بها لأنها تحفة من أنفس التحفِ
فرحت أرفلُ فيها وهى ضافيةٌ وأنت ترفُل فى الضاف من الشرفِ
وصار عيشى بما أوليتنى رغداً وكان من قبلُ رهنَ البؤس والشظَف
يابن الذين أقاموا فى مواطنهم للمجد صرحاً منيفاً عالى الشُّرَفِ
قد خلفوك لعالى مجدهم خلَفاً لله درُّك ما أزكاك من خلَفِ
لا زلتَ موئل ذاك المجد تحفظه مما يئول به للهلْكِ والتلفِ

وتوالت نعم هذا الحرّ الأبىّ على الرصافى فاستأذنه فى أن يقدم إليه سيارة يركبها فى غدوّه ورواحه غيظًا لشانئيه وكيداً لحسّاده ، ورجاه أن يتقبل هذه الهديّة ليتم سروره وتكمل هناءته ، ولكن الرصافى أبى هذه السيارة ورجاه إعفاءه من قبولها لأنه « فى غنى عنها ، ولأن الإنسان لا ينفك أسيراً لحاجاته فى الحياة والسعيد من قلل تلك الحاجات ، وأنا اليوم كما قال من قال :

رضيت بوحدتى ولزمت بيتى فطاب العيشُ لى ونما السّرورُ

واستبدل الشاوىّ بعصا الرصافى النخرة عصا جديدة من « الأبنوس » زينها الصابئة وصاغوا لها مقبضاً من الفضة مطعماً بالذهب على شكل حية ، وشكره الرصافى بهذه الأبيات :

أنا شيخٌ وذى عصاىَ فتيّة قد أتتنى من (مظهر) لى هديّه
صاغةُ الصابئين قد ألبسُوها حليةً ذاتَ صنعةٍ عبقريّه
وشحوها من مظهرٍ بكلام مُعرب عن مودةٍ أخويّه

هى تحكى عصا ابن عمرانَ قدراً　　فلذا صيغ رأسُها رأس حيَّه

فسأمشى بها قويّا سويّا　　بعد ما كنت ماشياً كالحنيَّه

وستبقى الذكرى بها لإخاء　　موثق بالوشائج الأدبيَّه

شرفٌ قد أفادنيه إخائى　　لكريمٍ من أسرةٍ حميريَّه

ولم يقف بر السيد مظهر الشاوى بالرصافى عند هذا السخاء الحاتمى الذى يذكر بأجواد العروبة الأفذاذ فى الجاهلية والإسلام ، مما يعدّ مثلا فريداً للبذل والسخاء فى أيامنا الحاضرة التى لا يشبع فيها المثرون من الثراء ولا يعرفون سبيل العطاء ، بل إن برّه تجاوز ذلك ، وأمر بإجراء راتب شهرى قدره أربعون ديناراً كل شهر ، يقبضها الرصافى ما دام حيًّا ، وأقر على نفسه أمام كاتب العدل أن هذه الهبة باقية ما عاش — الشاوى — فإذا مات لزمت ورثته من بعده ؛ وذلك الصنيع هو الذى عناه الشاعر العربى قديماً فى قوله :

ونكرمُ جارنا ما دام فينا　　ونُتبعُه الكرامةَ حيثُ مالا

وكان آخر مال وصل إليه من السيد مظهر ١٠ ديناراً قبضها الرصافى فى ١٠ آذار سنة ١٩٤٥ أى قبل وفاته بستة أيام[1] ، وقد كتب الرصافى ردًّا على تلك الأفضال المتتابعة إلى الشاوى « ليس من المستغرب أن أعيش مرفهاً بفضلكم وإحسانكم ، كما عاش الأُزرى قبلى مرفهاً أيضاً بفضل أحد أجدادكم وهو سليمان بك الشاوى الشاهرى العبيدى الحميرى ، على ما ذكره لنا العارفون من رواة الأخبار ، فقد قالوا إن الشاعر المشهور بالأُزرى قد سكن فى محلة

---

(١) لقد بلغ ما وصل إلى الرصافى من هبة السيد مظهر الشاوى من المال ٣١٠ من الدنانير ، غير الملابس والهدايا ، وذلك فى المدة القصيرة منذ علم الشاوى بما يعانى الرصافى فى ٨/١٠/١٩٤٤ إلى ١٠/٣/١٩٤٥ .

« الدهانة » داراً كبيرة ذات حرم وديوان كان قد وهبها له سليمان ، والسكنى في هذه الدار لا تسكون إلا لذوى العيش الرغيد .

أما أنا ، فبالنظر إلى كونى مختل الصحة ، عديم الراحة ، معتلج الهموم ، مضطرب الجنان ، أرانى هامة اليوم أو الغد على شفير القبر ، أنتظر يومى المحتوم ، فلا تعلق نفسى بأمل ، ولا تسكن إلى رغبة ، ولكنى — ولله الحمد — مطمئن النفس بأنى سألاقى ربى بوجه أبيض وقلب سليم وسريرة نقية ، ذلك لأنى قمت بالواجب بحسب المستطاع ، حتى نسيت نفسى ، ولم أقصد فى كل ما قلت أو فعلت إلا منفعة وطن عشت فيه ، وقوم نشأت بينهم .

أنا اليوم فى السبعين ، ولقد قضيت أكثر من خمسين عاماً من عمرى فى غناء ونواح بالشعر ، فطوراً أتغنّى بمجد العرب والإسلام ، وطوراً أنوح على ضياعه منذ أيام عبد الحميد الظالم المستبد . كانت صحف مصر تنشر لى من القصائد الصاخبة ما يحيّر الألباب ، ويشنج الأعصاب ، حتى ادعى بعض الصحافيين بأن «معروف الرصافى» اسم مستعار غير حقيقى ، وإلا فكيف تنشر هذه القصائد ، وصاحبها مغلوم ، فى بلاد تغتال فيها الأحرار ، ولا حرية فيها للأفكار ؛ فلما جاءت دولة العرب كان جزائى منها جزاء سنمار ، حتى اضطرتنى أن أقول :

ويلٌ لبغدادَ مما سوف تذكرُه عنّى وعنها الليالى فى الدّواوينِ
لقد سقيتُ بفيض الدمعِ أربُعَها على جوانب وادٍ ليس يسقينى

ويبدو من هذا أن الرصافى وجد فى هذا العطاء الرتيب ما يسد حاجاته المادية فى أخريات أيامه فى الحياة الدنيا ؛ وإن كان يحسّ الألم الممض من اعتلال صحته ، واعتلاج همومه ، واضطراب جنانه ؛ وهو فى دور الوداع لهذه الحياة التى كابد فيها ما كابد .

وفى حياة الرصافى علمان آخران مدّا إليه يد العون فى بعض مراحل حياته وهما « السيد حكمت سليمان » وأخوه « السيد خالد سليمان » رحمه الله .

وظل الرصافى على الحال التى ذكرنا حتى لفظ آخر أنفاسه صباح يوم الجمعة ١٦ آذار (مارس) سنة ١٩٤٥ ، فى الدار التى كان يسكنها فى « الأعظمية » من ضواحى بغداد مع خادمه وأثيره « عبد بن صالح » الذى لزمه أمداً غير قصير .

وكانت تربط الرصافى بهذا الخادم الوفىّ ، والتابع الصفىّ ، روابط العطف والحنان ، وكانت منزلته من سيده منزلة الابن من أبيه .

وكان الرصافى هو الذى زوّجه ، وأعقب بنات ، وظل « عبد » على الوفاء لأبيه الروحى والولاء لمولاه حتى النفس الأخير . وإنك لتقرأ الوصية التى كتبها الرصافى بخط يده ؛ فلا ترى فيها ذكراً إلا لهذا الخادم الأمين الذى أوصى له الرصافى بكل ما خلّف ، وماذا خلّف الرصافى ؟

خلف عصارة ذهنة ، وسلافة عبقريته فى سطوره وكتبه ؛ ولم يخلف مالاً ولا عقاراً ؛ ويوصى الرصافى أن تنشر هذه الآثار بعد موته ، إذا لم تمد له الحياة فى حبلها فلا يقوم هو بنشرها ، وأن يكون ريع تلك الآثار خالصاً لعبد بن صالح دون سواه .

وقد ذكر الرصافى السبب الذى من أجله آثر هذا الخادم بما أوصى ، وهو أنه — أى الرصافى — هو الذى شجعه على الزواج والإنجاب ؛ ولذلك فهو يحمّل نفسه وزر هذا التشجيع ، ويحمل عليها تبعة تلك الجناية ، ففى تلك الوصية تكفير عما فعل ، وكأنما ارتكب إدًّا ، فأوصى له بتلك الآثار التى لا يملك غيرها .

وصية الرصافي :

إلى إخواني الكرام

أراهم يهيجون عليّ العوامّ باسم الدِّين ، وما أظنّهم يتركونني حتى يعدموني الحياة . وليس لي من ألتجئ إليه سوى الله ، وكفى بالله حافظاً وحسيباً ، وليس لي من الأقارب من أعهد إليهم بوصيتي سوى معارفي من الأصدقاء الأحرار من أهل البلاد ، فلذا أكتب هنا إليهم عسى أن يقوموا بتنفيذه ، ولهم من الله الأجر .

كل ما كتبت من نظم ونثر ، لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية ، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه ، والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم ، فلذا لم أوفّق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة .

كل من اعتدى عليّ في حياتي فهو في حِلّ مني ، وإن كان هنـاك من اعتديت أنا عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عني ، وإلا قضى بيني وبينه الله الذي هو أحكم الحاكمين .

أنا — ولله الحمد — مسلم مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيماناً صادقاً لا أرائي فيه ولا أداجي ، إلا أني أخالف المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين ، وليست هي منه إلا بمنزلة القشور من اللباب ، ولا يهمني من الدين إلا جوهره الخالص ، وغايته المطلوبة ، التي هي الوصول إلى شيء من السعاده في الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية ، ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور ، وبعمل الصالحات ، وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهو وسيلة إليه ، وواسطة له ليس إلاّ .

بما أن عبد بن صالح الذى هو معاونى على العيش فى مسكنى ، كنت أنا السبب فى زواجه ، وقد ولد له بنات صغار ، وليس له من أسباب المعيشة والكسب ما يجعله قادراً على إعاشتهن . أرجو من أهل الخير فى الدنيا ، ومن أصدقائى الكرام الأحرار ، أن يسعوا فى إيجاد شغل له يكسب به ما يقوم بإعاشتهن ، و إن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

كل ما عندى من الكتب المخطوطة التى كتبتها أنا تباع لمن يرغب فى شرائها على أن يكون له حق الطبع والنشر ، ولا يكون لى فيها سوى الاسم ، ويدفع المال الحاصل من بيعها إلى بنات عبد .

أدفن فى أى مقبرة كانت ، على أن يكون قبرى فى طرف منها ، وأن يكون فى أرض مظلومة ، وهى التى لم تحفر قبلا .

إن كانت الحياة نعمة سابغة من الله على عباده ، فإن الموت رحمة واسعة منه عليهم ، فالموت هو رحمة الله الواسعة التى وسعت كل شىء . كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

المؤمن بالله وحده لا شريك له

معروف الرصافى

الفصل الثالث

أخلاق الرّصافى

وَكيفَ يصبحُ مِن دنياهُ فى دَعةٍ
مَن باتَ فى نَفسه الآمالُ تزدحمُ ؟

* * *

نشأ الرصافى على ما قدمنا هذه النشأة المتقلبة التى لا تكاد تستقر : سواء فى ذلك حياته التعلمية بين كتاب ، ومدرسة رسمية ، ومدرسة عسكرية ، ودراسة دينية ، وحياته العملية أوالتعلمية والصحفية فى تركية وفلسطين وفى بلده ومسقط رأسه العراق .

وهى حياة ملأى بالمغامرات التى لامبعث لها إلا هيام الشاعر بالحرية والطلاقة وكأن الرصافى خشى فى كل مرحلة فى هذه المراحل الحافلة أن يتحكم فيه العمل ، وتقيده العادة فيحد ذلك من حريته ، ويأسره فى قيود قوانينه ونظمه ، وهو الحر الطليق الذى لا يعترف بعالم السدود والقيود .

فالخلق المتميز فى الشاعر تعشقه للحرية ، وكان هذا الخلق وحده هوالذى اختط له سبيل المجد وفتح له أبواب النبوغ ، وهو القائل :

إذا لم يعشْ حراً بموطنه الفتي
فسمِّ الفتى ميتاً وموطنه قبراً

أحرِّيتى إنى اتخذْتُكِ قبلةً
أوجِّهُ وجهى كلَّ يوم لها عشراً

وأمسكُ فيها الركنَ مستلماً له　　وفى ركنها استبدلتُ بالحجر الحجْرا
إذا كنتُ فى قفر تخذتكِ مؤنساً　　وإن كنتُ فى ليلٍ جعلتكِ لى بدراً
وإن نابنى خَطبٌ ضممتُكِ لاثماً　　فقبّلتُ منكِ الصدرَ والنحرَ والثغرا
وإن لامنى قومٌ عليكِ فإننى　　لملتمسٌ للقوم فى جهلهم عُذراً

* * *

وثمة صفة اتصف بها وما أجدره بها وهو الإنسان والشاعر المرهف الحس الرقيق الشعور الحاد العاطفة ، وهى صفة إنسانية وفضيلة نفسية طبع عليها وهى خلق الوفاء . والمظهر العام لهذا الخلق البارز والصفة المتميزة له وفاؤه لوطنه الأكبر وطن العروبة التى ينمى إليها ويحيا فى كنفها ، ووفاؤه لوطنه العراق الذى أظلت ساكنيه سماؤه ، وغذتهم أرضه ونماؤه . وإن يكن حظ الرصافى منه ما رأيت فى الكلمات السابقة وما عبر عنه فى قوله :

أنا ابن دجلة معروفاً بها أدبى　　وإن يك الماء منها ليس يروينى

وحسبنا هنا التلميح و الإشارة ، فسنعرض لذلك عرضاً وافياً حين نعالج شعره فى الوطنيات .

هذا هو المظهر العام لخلق الوفاء البارز عند الرصافى . أما مظاهره الخاصة فلا نرانا محتاجين إلى التدليل عليها ، فهذا وفاؤه لأمه يحدثنا عنه صديقه الحميم المرحوم الأستاذ طه الراوى فيقول : « زرته ذات مرة فى بيته فلمحت على وجهه أمارات الانفعال وآثار الدموع ، فلم أكتم عنه مالمحت ، فقال لى : سمعت قينة إلى جوار منزلى هذا ، تغنى غناء شجياً أذكرنى البيت الذى كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمى التى كانت تحنو على حنواً ما عليه من مزيد . وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسما وروحاً ، فتعنى بنظافة ثيابى وجسمى ، وتسألنى عما كنت أقرأ فى

الكتاب والمدرسة . وكانت ـ رحمها الله ـ لا يقر لها قرار حتى ترانى إلى جنبها ولا أزال أذكر لها اهتمامى بمطعمى وملبسى وكل ما يدور حول تهذيبى وتعليمى .. ومهما تطاولت بى الأيام فإنى لا أزال أذكر عيشتى تلك معها وأحن إليها .. ولما رجعت إلى بغداد بعد طول الغيبة ، وقد انتقلت إلى جوار ربها .. لم أقو على رؤية البيت الذى كنا نعيش فيه ، بل لم أستطع سلوك الطريق الذى يتصل به .

لقد كان فراق الرصافى لأمه من أهم أسباب الألم الذى أمضه فى غربته ، وجعل حنينه إلى العراق ؛ وهو يطوف فى ابتغاء المجد ؛ لا يفتر ؛ ولا تخمد جذوته :

خليلىّ هل مَنْ بالرصافة عالمٌ ... بأنى إلى مَنْ بالرصافة شيِّقُ
بلاد إذا ما هبّت الريح نحوها ... تمنَّيْتُ لو أنى بها أتعلقُ
أبيتُ على شوق ، وقلبى مُوثَقٌ ... بهمّ ، ودمعى فوق خدى مطلقُ
إذا ما تذكرتُ العجوز بكيتُها ... بدمع به الأهداب تطفو وتغرقُ
وما شرقى بالدّمع يا أمُّ وحده ... ولكن بروحى عند ذكراكِ أشرَقُ

ويؤكد هـــذا الوفاء لأمه تلك المحاولة التى حاولها أحد أقاربه ليبتز منه ما يستطيع من المال ، فلم يجد وسيلة توصله إلى غايته إلا أن يأتيه (من نقطه الضعف) التى يعرفها فيه ، وهى حبه لأمه فزعم له أن قبرها قد تهدم وأنه فى حاجة إلى الإصلاح فنقده الرصافى كل ما كان يملك من المال ليقوم بهذا الواجب المقدّس نحو أمه التى أحبها فى حياتها وبكاها بعد وفاتها .

ثم وفاؤه لعبد بن صالح ذلك الخادم الذى وفى له ، فقد جعله الرصافى شريكه فى حظه وقسيمه فى رزقه ، وقد قام الرصافى دونه باحتمال أعباء الحياة وفعل معه ما لا يفعل كثير من الآباء مع أبنائهم فقد رعاه وزوجه ورزق بنات ، ولدن فى كنفه

ونشأن فى منزله ، وصـارت أسرة تعمر الدار ، وعميد هذه الأسرة وربها المسئول معروف وحده ، وتلك عاطفة ما نظنها اتخذت هذا المظهر فى المعاصرين ، كما ضمن لهذا الخادم وبناته الرزق ما استطاع بما أوصى به من كتبه ومخطوطاته ليكون ريعها راتباً يجرى عليهن بعد وفاته . ويتقدم إلى أصدقائه الأحرار الـكرام بالرجاء أن يجدّوا فى إلحاق عبد بعمل يدر عليه الرزق

هذا هو الوفاء ، وهذه الإنسانية الـكاملة ، تتجلى فى الشاعر البائس الذى وهب نفسه للبائسين ووهب لهم شعره وشاعريته ، وهؤلاء هم ملهموه أغر قصائده ، وأروع شعره كما سترى ، وهو القائل :

من ليس يبكيه من أبناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح !

أما وفاء الرصافى لأساتذته وإشادته بذكرهم ، وقيامه بشكرهم ، على ما أوردوه من موارد المعرفة ، فحدث عنه وأطنب ولا حرج . ومن كبار أساتذته الذين مدحهم ووفى لهم بما قاموا به نحوه من رعاية (السيد محمود شكرى الألوسى) وقد رثاه الرصافى بعد وفاته بأكثر من مرثية من خير شعره ، ومن قوله فيه مما تلمح فيه أثر الفجيعة فى قصيدته التى سماها (واشيخاه !)[1]

إذا ذكرناكَ يوماً فى محافلنا قمنا لذكراكَ تعظيما وإجْلالا
إنى أخِفُّ لدى ذكراك مضطرباً وإن حملتُ من الأحزانِ أثقالا
لأشكرنَّكَ يا (شكرى) مدى عُمُرى وأبكينَّكَ أبكاراً وآصالا
فأنت أنت الذى لَقَّنْتَنى حِكَمًا بها اكتسَيْتُ من الآداب سِرْبالا
أوْجَرْتنى[2] من فنون العلمِ أوديةً شفتْ من الجهل داءً كان قتّالا

(١) ديوان الرصافى ٢٩١

(٢) الوجور: بفتح الواو كرسول الدواء يصب فى الحلق، وأوجرت المريض إيجاراً فعلت به ذلك ووجرته أجره من باب وعد لغة . (٣) ثل الـكنانة ثلا استخرج ما فيها من النبل .

فصحّ عقلى وقبلا كنتُ مُشتكيًا   من علة الجهل أوجاعًا وأوجالا
أنا المقصِّرُ عن نعماك أشكرُها   ولو ملأتُ عليك الدهرَ إعْوالا
فاغفرْ عليك سلامُ اللهِ ماطلعتْ   شمسٌ وما ضاء بدرُ الليلِ أو لالا

ومن صور وفائه لأساتذته كذلك تلك الأبيات العاطفية العذبة التى ضمّنها قصيدته فى أستاذه الشيخ « قاسم القيسى » ومنها :

إذا «قاسمُ القيسىُّ» مرَّ بخاطرى   تذكرتُ عهدافى الصِّبا مرّ كالحُلْمِ
تذكرتُه إذ كنتُ للعلم طالبًا   بفكرى وسَعيى مجهدَ النفسِ والجسمِ
فقد كنتُ أحيانًا أزورُ فِناءهُ   وأنتابُه للرّشف من منهل العلمِ
وكم زرتُه فى «جامع الفضل» راجيًا   شفاءً لما فى مُدنَفِ الفهم من سُقمِ
إذا جئته يومًا تثلتُ[٣] كنانتى   فتثقف منها كلّ ما اعوجّ من سهمِ
وعدت صحيح الفهم منه قد انجلتْ   بلُقياه عنّى غمّةُ الغُرم بالغُنْمِ

* * *

وثمة سمة ثالثة اتسم بها الشاعر ، وهى اعتزازه بنفسه اعتزازاً يدل عليه شممه وترفعه عن المواربة ، طمعاً فى مغنم أو دفعاً لمغرم ، وكانت هذه الصفة وما تفرع عنها من الصفات ، سبباً من أهم الأسباب فى نفور الناس عنه ، إذ هو يجانبهم فى غير أناة على ما يفرط منهم ، مما يراه ماساً كرامته ، أو ينال من شخصيته .

فقد كان الرصافى « كثير الحرص على كرامته ، بل كان يعتبرها أثمن ما يملكه وأعز ما يحرص عليه ، فإذا شعر، ولو من بعد ، أن أحداً تعرض له فيها هاج ولا هياج البحر الزاخر . وكل الذى أصابه من مجافاة بعض إخوانه ومجافاة بعض خلصائه متولد من هذه الناحية . فإنه إذا شم من أحد رائحة تخيل منها

أنها تحط من كرامته ، أو تخدش عزة نفسه قطع ما بينه و بينه غير آسف ولا نادم .

على أنك إذا أوضحت له الحقيقة ، وكشفت له عن السرّ عاد إلى سيرته من الصحبة ووصل ما انقطع من الألفة[1] .

كما كانت هذه السمة من عوامل إخفاقه فى الحياة التى تحتاج إلى شىء من محاولة استرضاء الناس وكسب عطفهم والاحتيال لجلب مودتهم ، ولا سيما أولى الأمر منهم الذين يملكون له أكثر مما يملك لهم ، ولكن هذا وإن جرت به العادة ورضيه بعض القوم فهيهات أن ترضى به نفس الرصافى الأبية . ولعله لو صانع مع المصانعين ، وأدلى دلوه فى الدلاء لما امتنع عليه منصب وإن سما ، وما تأبّى عليه مال وإن كثر .

ولقد أحسّ الرصافى بأنّ بعض ذوى الغيرة يستحثون الكرام ورجال الحكومة لمعاونة الرصافى على الحياة ، وتهيئة أسباب الحياة الكريمة له فى أيام عوزه وإملاقه فثارت نفسه الأبيّة ، وكتب بياناً يشكر فيه لأولئك الداعين نخوتهم ؛ ويعلن أنه لا يشكو فاقة ولا عوزاً ؛ ولا يطلب من أحد عطاء ولا إحساناً ؛ وأن حالته التى يعانيها هى حالته التى ألفها فى شبابه ومشيبه ؛ وليست جديدة عليه .

ولم يكن جزاء الرصافى غير جزاء غيره من الأحرار الذين تشبثوا بأذيال الحرية ، وآلوا على أنفسهم أن يكونوا من ضحاياها وشهدائها ، فقاسوا قسوة الزمن ، وأشربوا نغب التهمام أنفاساً .

* * *

---

(١) صديق الرصافى : للأستاذ طه الراوى .

وكان جديراً بالرصافى ، وقد نشأ فى هذه الأسرة الرقيقة الحال ، المحدودة الموارد من جهة ، وعانى ما عانى فى بعض فترات حياته من ألوان الحرمان. من جهة أخرى ، أن يكون حريصاً على ما تصل إليه يداه من مال ، يستعين به على حرب الأيام إذا ما صارحته بالعداء ، أو ليساعده هذا الحرص على الاحتفاظ بالإباء ، وهو الخلق الذى تمكّن منه ، وجرى فى عروقة مع دماء الحياة .

ولكن الشاعر الحرّ لم يقم لما كسب — وإن كثر ما كسب — وزناً . فلم يعرف عنه حرص ، ولم يعهد عليه ميل إلى الادخار ، وإنما كان ينفق كل ما وصل إلى يديه ، وإنه لكثير .

حتى لقد أعوزته الدراهم وهو فى الشام ، فلم يستطع العودة إلى العراق بعد رحيله من تركيا ، بعد مجد فى الصحافة ومجد فى التدريس ، ومجد فى التمثيل النيابى ، ودخل ليس بالقليل . ويضطر الشاعر لبيع نفثات قلمه ، وجواهر شعره ، وهى كل ما يملك ، فيبيعها سلعة نافقة فى سوق الأدب بعد جهد ومساومة .

وإن بدا على الرصافى فى أخريات أيامه شىء من الحرص فلم يكن ذلك حرصاً ، وإنما كان اضطراراً لرعاية خادمه وبناته الكثيرات اللاتى نشأن فى كنفه وتحت ظلاله ، مما أشرنا إليه حين عرضنا لصفة الوفاء فيه .

* * *

ولم يحرم الرصافى نفسه شيئاً من لذائذ الدنيا ومتعها فنهز مع النواة ، وأسام مسرح اللهو حيث أساموا ، وهو الذى لم يكون بيتاً يأوى إليه ، ولم يبق على زوج يسكن إليها ولم يعقب غلاماً ولا جارية .

فكان له أن يعوض عما أفقده الزمن إياه فى مجالس الأنس ، ومعاقرة

الـكأس ، ولهو برىء ، وغير برىء ! . قال فى « ليالى الأنس[1] » يصف الخمر وفعلها ، ومجلس شربها ، مما يذكرنا بخمريات أبى نواس :

ذكرتُ ولستُ فى الذكرى بناسِ ليالىَ بِتُّهنَّ مبيتَ حاسِ
بنـادٍ تزدهيكَ به انتظاماً مقابلةُ الأسرّة بالـكراسى
به اجتمعت غطارفةٌ كرامٌ أبَوْا شيم التخالف والشِّماسِ
يطوف عليهم رشأٌ رخيمٌ يغازل مقلتيه فم النعاسِ
براح فيك تبتعث ارتياحاً وتنسفُ طودَ همِّك وهوراسِ
يُشبّ لمزجها بالمـاء وقدٌ تـكاد تهمّ منه إلى اقتباسِ
تُميتُ همومَ شاربها سروراً فتدفنُهنّ فى حفر التناسِى
وصاح وجّه الندماء كأساً إليه فقال : لستُ لها بحاسِ
وغالى فى الإباء فـارسوه فلانَ أبيُّه بعـد المراسِ
فقال وقد مشت فيـه ودبّتْ دبيبَ الماء فى ورق الغراسِ
لعمرك إنّ فى الصهباء معنًى دقيقاً ليس يعرَف بالقياسِ

ويبدو أن الرصافىّ كان يعفّ عن الخمر فى مطلع حياته ، وكان يراها أولى البليات التى يصاب بها الإنسان ، ويرى « الدخان » ثانى تلك البليّات ، ومع اعترافه بضرره ، وسوء مغبته على شاربه ، كان يدخّن لأن العادة هى التى جرّت عليه هذا البـلاء ، كما يبدو ذلك من قصيدته التى أسماها « العادات قاهرات[2] » والتى يقول فيها :

---

(١) ديوان الرصافى ١٠٥ .
(٢) ديوان الرصافى ١٢٩ .

وربٌ بيضاء قيدِ الأصبع احترقتْ في الكفّ وهي احتراقٌ في الحُشاشاتِ
إنْ مرّ بين شفاه القوم أسودُها ألقى اصفراراً على بعض الثنيّاتِ
إنْ كلّفتني السكارى شُربَ خمرتهم شربتُ لكن دخاناً من «سكاراتي»
واخترتُ أهونَ شرّ بالدخانِ وإن أحرقتُ ثوبيَ منه بالشراراتِ
وقلت يا قوم تكفيكمْ مشاركتي إياكمُ في التذاذٍ بالمُضرّاتِ
إني لأمتصّ جمراً لُفّ في ورقٍ إذ تشربون لهيباً ملء كاساتِ
كلاهما حُمقٌ يفترّ عن ضرر يسمّ من دمنا تلك الكُريّاتِ
حسبي من الحمق المعتادِ أهونُه إن كان لا بدّ من هذي الحماقاتِ
يا مَنْ يدخّنُ مثلي كلّ آونةٍ لُمْنِي أَلُمْكَ ولا تَرضَ اعتذاراتي

على أن الرصافيّ وإنْ شرب الخمر وإن دَخّن التبغ ، فلم يكن في الأولى محلاً لها ، ولا في الثانية راضياً عنها ؛ بل يعترف أنه مقهور مغلوب على أمره بفعل العادة التي استشرت في المجتمع ؛ فجعلته أسير تلك العادات :

وربّ شنعاء من عاداتنا حسنتْ في زعمنا ، وهي من أجلى الشناعاتِ
لو لم يكُ الدهرُ سوقاً راج باطلُها ما راجت الخمر في سوق التجاراتِ

وقال يخاطب نفسه الأمارة بالسوء :

نهيتك عن هواك فما انتهيت ولكن قد فعلت كما اشتهيتِ
فيانفسي عن الشهوات كُفِّي فأنت عليك يا نفسي جنيتِ
وما أمارةٌ بالسوء يوما سعت في المنكرات كما سعيتِ

* * *

ومن أخلاق الرصافى التطرف ، ترى هذا الخلق فى آرائه السياسية تصريحاً فى قوله :

سأقول فيها ما أقول ولم أخف   من أن يقولوا شاعر متطرف !

ويتطرف فى معاقرة الخمر ، فيسرع إليه السكر ، فبينه و بينه خمس دقائق :

إذا ما عقدنا مجلس الأنس بالطلا   فبينى و بين السكر خمس دقائق
أقوم إلى كبرى الزجاجات مدهقا[1]   بمستقطر من خالص التمر رائق
فأقرع بالكأس الروية جبهتى   بشرب كما عب القطا متلاحق

ويتطرف فى سخطه كما يتطرف فى رضاه ، كما يتطرف فى اعتقاده ولقد كان هذا التطرف من أشر ما منى به الرصافى .

ـ اـلكأس ملأها ، وكاس دهاق ممتلئة .

الفصل الرابع

عقيدة الرصافي

هل أنّ لى فى معرض الشكّ ربضةً   ورُبَّ يقينٍ ناله المــتربصُ

ولا بدلنا أن نعرض لعقيدة الشاعر التى شغل بها كثير من رجال العلم والأدب ، ولاسيما فى أيامه الأخيرة ، وأصبحت حديث الأندية والصحافة ، حتى حار الناس فى أمره ، وكان منهم من نسبه للإيمان ، كما كان منهم من ضمه إلى جماعة الزنادقة والملاحدة ، فاختلف النـاس فى عقيدته اختلافهم فى فيلسوف المعرة (أبى العلاء) .

* * *

ولــكى نساير هذه العقيدة منذ نشأتها ، ونعرف ما اعتورها فى سائر مراحل حياة الشاعر علينا أن نسجل بيتين نظمهما ، ونقف عندهما وقفة ، لأنهما المرحلة الوسطى ، أو الحد الفاصل بين نظرتين : أولاهما نظرة الإيمان والتسلم ، وثانيتهما نظرة الحيرة والتردد فيما بدأ من الإيمان والتسليم ، وهذان البيتان [1] :

لُقِّنْتُ فى عهـد الشباب حقائقاً   فى الدين تقصُرُ دونَها الأفهامُ
ثم انقضى عصرُ الشباب وطيشُه   فإذا الحقائقُ كلُّها أوهامُ

والشاعر فى البيتين يذكر إيمانه الذى لقنه فى منزله على يد أمه ومن يلوذ به

---

(١) ديوان الرصافى ٤٦٨ تحت عنوان « الحقائق الملقنة »

من أسرته ، وهو إيمان تقليدى ، اعتقده الشاعر لاعن بصيرة وتفهم ، وهو إيمان لافضل لعقله فيه ، وتدين كسبه بالوراثة ، لادخل لتفكيره فى كسبه ، وشب الشاعر فتلقى هذا الإيمان عن أشياخه الذين رسخوه فى قلبه ، وثبّتوه بما وجدوا من أدلة العقل والنقل .

ومضى الشباب ، زمن التعلم والتلقى والتلقين ، فإذا الرصافى يجد هذه الحقائق أوهاما ، و يجد أن ما كسبه فى حاجة إلى التثبت و إعادة النظر .

إلى هنا لاضير على الشاعر ، ولا نجد طعنا صريحا فى دينه وعقيدته ، وهو إذ يقول ذلك يصور مرحلة التردد والشك التى تعتور كثيرا من رجال الفكر ولكنه لم يصرح بنقض هذه العقيدة وإحلال ما ارتضى من العقائد محلها .

على أن تلك الحقائق التى أشار اليها الرصافى لم يوضحها ، ولسنا ندرى إن كان الشاعر يريد أصول العقيدة ، أم إنه يرمى إلى نقد ما فى البيئة التى يعيش فيها من الترهات والأباطيل والخرافات ، التى غشت الناس فى أعقاب الفتره المظلمة ، فجعلتهم يزاولون هذه الخرافات ، و يحسبون أن لها أساساً من الدين والعقيدة ، فجعلوها حقائق ، وهى أو هام ؟

وهذه الحيرة هى أول مراحل اليقين، الذي سيجد الشاعر فى تحقيق أسبابه ، ليدلنا على هذه الحقيقة التى اهتدى إليها ورضيها واطمأن إلى اعتناقها :

على أنّ لى فى معرض الشك ر بصةً ورُبَّ يقــــينٍ نالهُ المتربِّصُ

ونعود إلى البيتين لنرى حظ الشاعر من الجد فى هذه المقالة ، فهو يقول إنه لقن هذه الحقائق الدينية فى عصر شبابه . وعصر الشباب هو عصر القوة وعصر الفتوة فى الجسم والعقل ، ولو قال الشاعر إنه لقن هذه الحقائق فى عصر الطفولة لكان له عذر فيما ذهب إليه من القسر والإكراه ، بدل الشباب الذى هو عهد الطواعية والاختيار ؛ والتمرد على ماهو معروف مألوف من العادات والتقاليد .

على أن وصفه عهد الشباب بالخفة والطيش لا نراه يلتئم مع الإيماز الذى قال إنه لقنه ؛ إذ التلقين يستلزم الهوادة والاستسلام ؛ لا الطيش ولا النزق اللذين رمى الشاعر بهما نفسه . فنحن أمام اضطراب وتناقض ؛ وكأن الشاعر كان يريد أن يقول فلم يقل شيئاً ، ولم يأت بجديد بل هى محاولة الهدم ؛ الذى لم يقم على أساسه بناء جديد .

وعندى أن ما منى به الشاعر من إدمان القراءة والإسراف فى الاطلاع ، هو الذى زج به فى هذا المضيق الوعر ، ولا سيما فى هذا العصر ، الذى فتن فيه الناس ببعد الصيت وذيوع الشهرة ، فكان التشكك سلاحهم الذى صبوا به إلى هذه الغاية ؛ حتى يعدهم الناس فى المفكرين وأولى الرأى ، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى هذه (الحقائق الوهمية) بعد أن يقضوا وطرهم ، ويسموا إلى غايتهم ، ولا يعجزنا فيما نذهب إليه دليل ، ولا يعوزنا تمثيل بأقطاب العلم والأدب فى عصرنا الذى نعيش فيه ؛ والذين اتخذوا من التشكيك فى الدين ، والزراية بالعقائد سلماً إلى الشهرة ، وسبيلا للترويج لأسمائهم ؛ جرياً على المبدأ المشهور « خالف تُعرف » إذ أن الموافق المتبع ، قلما يظفر من الشهرة وذيوع الصيت بما يظفر به المخالفون والمبتدعون .

* * *

نشر الرصافى « رسائل التعليقات » وهى ثلاث رسائل كتبها تعليقاً على ثلاثة كتب أصدرها بعض الكتاب فى السنوات الأخيرة ، وهى وإن كانت مختلفة الموضوعات ، فإنها تجمعها جامعة واحدة وهى الجامعة التاريخية . تبحث الرسالة الأولى فى الرد على بعض ما جاء فى كتاب « التصوف الإسلامى » الذى ألفه الدكتور زكى مبارك ، وتبحث الثانية فى الرد على بعض ما جاء فى كتاب (النثر الفنى) للمؤلف نفسه ، أما الرسالة الثالثة فقد تناولت الرد على بعض ما ذكره

المستشرق الطلياني « لئونا كايتاني » في كتابه التاريخ الإسلامي[1] .

والرسالة الأولى من هذه الرسائل هي أخطرها شأناً ، وهي التي تناول فيها مسائل من التصوف الإسلامي ومعتقدات المسلمين ، وتأولها التأول الذي ارتآه ؛ والذي آثار عليه العلماء ورجال الدين ، ورموه بسببه بالكفر والإلحاد .

وأهم ما في هذا الفصل هو قول الرصافي (بوحدة الوجود) وهو المذهب الذي نادى به جماعة من المتصوفة وفلاسفة الإسلام القائلين بالكشف وفيما وراء الحس : يريدون أنه تعالى الموجود المطلق وأن غيره لا يتصف بالوجود أصلا حتى إذا قالوا : (الإنسان موجود) فمعناه أن له تعلقاً بالوجود وهو الله تعالى .

ومن أقوالهم في ذلك : « إن جميع العوالم كلها على اختلاف أجناسها وأنواعها وأشخاصها موجودة من العدم بوجود الله تعالى لا بنفسها ، محفوظ عليها الوجود في كل لحة بوجوده تعالى لا بنفسها ، وإذا كانت كذلك فوجودها الذي هي به موجودة في كل ، هو وجود الله تعالى لا وجود آخر .

فالعوالم كلها معدومة من جهة نفسها « بعدمها الأصلي » وأما من جهة وجود الله تعالى فقط فوجودة وجودها الذي هي به موجودة ، وهو وجود واحد وجود الله تعالى فقط ، ولا وجود لها من جهة نفسها .

وعندهم أن الوجود الحق عين ذات الحق تعالى ، وهو وجود واحد ، لا ينقسم ولا يتبعّض ولا يتجزأ ولا يتنقّل ولا يتغيّر ولا يتبدّل أصلا ، وهو مطلق عن الكيفيات ، والكميات ، والأماكن ، والأزمان ، والجهات ، ولا يتصور فيه الحلول في شيء ، إذ ليس معه شيء سواه ، وإنما جميع الأشياء موجودة بوجوده الذي هو عين ذاته[2] .

---

(١) مقدمة رسائل التعليقات بقلم الشاعر نعمان ماهر الكنعاني .

(٢) مذكرات في علم الكلام للأستاذ محمود البشبيشي ، نقلا عن الشيخ عبد الغني النابلسي من كتابه « إيضاح المقصود في معنى وحدة الوجود » .

وهم يسمون هذا وأشباهه (علم الحقيقة) وأشار إليه الإمام الغزالى حيث قال : « العارفون بعد العروج على سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق ، واستهوت عقولهم الفردية ، فصاروا كالمبهوتين فيه ، ولم يبق فيه متسع لذكر غير الله ، ولا لذكر أنفسهم أيضاً ، فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم « أنا الحق » وقال الآخر « سبحانى » وقال غيره « ما فى الجبة غير الله » فلما خف عنهم سكرهم ، وردوا إلى سلطان العقل ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق :

أنا مَنْ أهوَى ومَنْ أهوَى أنا   نحنُ روحان سكنَّا بدنا
فإذا أبصرْتَنِى أبصرْتَه   وإذا أبصرته أبصرْتَنا

ومن أعلام القائلين بوحدة الوجود محيي الدين بن عربى وابن الفارض وأبو مدين التلمسانى ، الذى عبر عن المذهب وأدلته فى هذا الشعر :

اللهَ قُلْ وذَرِ الوجودَ وما حوَى   إن كنتَ مرتاداً بلوغ كمالِ
فالكلُّ دونَ الله إن حقَّقتَه   عدمٌ على التفصيل والإجمالِ
واعلمْ بأنكَ والعوالم كلها   لولاهُ فى محوٍ وفى اضمحلالِ
من لا وجودَ لذاتِه من ذاتِه   فوجودُه لولاه عينُ محـــالِ
والعارفون فَنُوا به لم يشهدُوا   شيئاً سوى المتكبّر المتعالِي
ورَأَوْ سواهُ على الحقيقة هالكا   فى الحال والماضى والاستقبالِ

* * *

والرصافى يرى التصوف مذهباً فلسفياً ، ويرى القائلين بمثل ما سبق من الأقوال فلاسفة مفكرين لا عباداً متزهدين ، وإن بدا عليهم شىء من الزهادة فذلك وسيلة لتصفية الفكر ، وإعداده لفهم هذا المذهب واعتناقه ، أعنى مذهب

وحدة الوجود ، ويقول فى ذلك : إذا قلنا التصوف فلا نعنى به سوى مذهب وحدة الوجود المبنى على أساس التفكير الحر المقترن بصفاء النفس ، وإذا قلنا الصوفية فلا نعنى بهم أهل الخانقاه والتكية ، ولا هؤلاء الدراويش من لابسي الصوف والمرقعات ، ولا هؤلاء المشعوذين من حاملى الدبابيس وضاربى الدفوف وناطحى الجدران بالرءوس ... وإنما نعنى بهم رجالا من المسلمين أولى الأفكار الحرة والنفوس الزكية الطاهرة القائلين بوحدة الوجود[1] .

ويقرر الرصافى أن البحث والتفكير قد ألجأه إلجاء لا محيص عنه إلى الإيمان بوحدة الوجود ، وجعلاه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن التصوف إسلامى محض ، فى نشأته وتطوراته ، وأنه فكرة فلسفية مجردة لا علاقة لها بالزهد والعبادة ، ولا بالزهاد والعباد ، وأن الصوفيين هم فلاسفة الإسلام الذين لا يرون فى الكون باطلا ، والذين تساوت عندهم المعانى المتضادة من حسن وقبح ، ومن خير وشر ، وهدى وضلال ، وأنهم — أى الصوفية — أبعد الناس عن الزهد والتقشف ، وأن طريقتهم الوحيدة فى فلسفتهم هى التفكير المقترن بصفاء النفس ليس إلا ؛ وأنهم لا يسعون جهدهم إلى تصفيه النفس من أدران كل ما يعكر صفو التفكير إلا لكى يقترن تفكيرهم بصفاء النفس فيكون نقياً خالصاً من شوائب كل غفلة ، ويكون لهم أهدى إلى معرفة الحقيقة الكلية المطلقة اللانهائية ، وبعبارة أخرى إلى معرفة الله . . .

هذا ما يقوله الرصافى عن صوفية الإسلام ؛ ونحن لا ننكر أن فى الصوفية كثيراً من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم التفكير الإسلامى ، ولكننا لا نوافقه على أن أولئك الصوفية المفكرين كانوا على هذا الرأى الذى يتضح فساده من النظرة الأولى ؛ وقد يكون فيهم كما يقول الرصافى الذين تتساوى

---

(١) رسائل التعليقات ص ٤٦ .

عندهم المعانى المتضادة ، ولا يرون فرقاً بين الحسن والقبيح ، ولا بين الخير والشر ، ولا بين الهدى والضلال ، ولكن أولئك ليسوا من الصوفية فى شىء ؛ وإنما حملوا أنفسهم على أهل التصوف حملا ؛ أو حملهم الجهال عليهم ليشبعوا شهواتهم تحت ستار الصوفية الذى يبرأ منهم ، ويأبى كل الإباء أن ينتسب إليه أولئك الضالون المضلون ، « وطريقة الصوفية إنما تتم بعلم وعمل ، وحاصل عمل الصوفية قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله . . ويرون ألا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق [1] .

فأين هذه الصوفية العالمة العاملة ، التى تفرق بين الحق والباطل ، وبين النور والظلمات ، وتتحامى البدع والشبهات ؛ من صوفية لا تفرق بين الخير والشر ، ولا بين الهدى والضلال ، وترى كل ما ترى حقاً ، وكل زور وبهتان صدقاً ، وتستوى عندها الطاعة والمعصية .

ثم إن ادعاء الرصافى بأن التصوف كما يفهم معناه ؛ وهو هذا المعنى الذى يشجع الإباحية ، وييسر الخروج على العقائد والثورة على الآداب الإنسانية والفضائل النفسية ؛ إسلامى محض ، فيه تجاوز للحقيقة ، لأن هذه الآراء الهدامة ، إنما هى بقايا مذاهب بائدة ؛ وفلسفات قديمة ؛ وإلا فإن الفكر الإسلامى لا يمكن أن يقر هذه الترهات ؛ وآيات القرآن صريحة فى أن الخير غير الشر ، والصالح غير الفاسد ، والمؤمن غير الكافر .

(١) الإمام أبو حامد الغزالى — المنقذ من الضلال ١٢٧ .

« أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور »

والقرآن الكريم ، وهو كتاب العقيدة الإسلامية يفيض بهذه الآيات التى تفرق بين المؤمن والكافر ، والعمل الصالح وغير الصالح ، ويرتب الجزاء الحقّ على ما قدم الإنسان « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ولو كان كلاهما سواء كما زعم الرصافى ، أو كما زعم غيره من الذين نقل عنهم ، لكان جزاؤهما سواء ، بل لم يكن هنالك من حاجة إلى ذلك الجزاء .

بل إن الرصافى نفسه يكتب فى وصيته التى كتبها قبيل وفاته أن غاية الدين المطلوبة هى الوصول إلى شىء من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية ، والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور ، و بعمل الصالحات ! !

والرصافى حين يقول بهذا الرأى وهو وحدة الوجود يقول : (ليس حديثى هذا بالمرجم ولا اعتقادى بالمتوهم ، فقد اتضح لى كالشمس فى رأد الضحا أن محمداً « رسول الله » جاء بحقيقتين ناصعتين : إحداهما وحدة الإله ، والثانية وحدة الوجود . أما الأولى فقد قالها بمنطوق العبارة ، لكى يحرر بها الناس من كل عبودية لغير الله وهى : « لا إله إلا الله » ، وأما الثانية فقد قالها بمفهوم العبارة لكى يوصل بها أولى المواهب الفطرية العالية إلى الكمال النفسى الذى لا يتم إلا بمعرفة الله ، وهى « لا موجود إلا الله » [1] ويأخذ الرصافى فى عرض جملة من آيات القرآن الكريم منها قول الله تعالى فى سورة الحديد « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » فإن هذه الآية — كما يقول الرصافى — تدل بمفهومها دلالة صريحة على أنه لا موجود إلا الله ، هو « الأول » الذى ليس له بداية ؛ و « الآخر » الذى ليس له نهاية . وليس معنى هذا

(١) رسائل التعليقات : ص ١٢ .

إلا أنه السرمديّ اللانهائى . وهو «الظاهر» الذى نراه بأعيننا وندركه بحواسنا[١] ، « والباطن » الذى لا نراه ولا ندركه . وليس معنى هذا إلا أنه هو كل شىء ، وأنه لا موجود غيره . ونحن إذا أخذنا صفو المعنى من عبارة الآية قلنا بأن الله هو الوجود الكلى المطلق اللانهائى ، وأنه لا موجود غيره . . وفى القرآن أيضاً عدا الآية المتقدمة آيات أخرى تؤيد نظرية وحدة الوجود وتوضحها ، منها قوله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » وقوله « وهو معكم أينما كنتم » وقوله « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » فمن السهل الخالى من كل تكلف أن تتمشى المعانى الرائعة فى هذه الآيات مع نظرية وحدة الوجود ، فهى بمثابة شرح لها وإيضاح[٢] .

ولا يحتاج فهم هذه الآيات إلى هذا الجهد ، يبذله رجل يعرف العربيّة وسنن العرب فى كلامها ، ويفصل بين حقائقها ومجازاتها ؛ ويفطن إلى أسرار التعبير بها ، فالظاهر آيات الله ؛ وبقوته وعونه رمى النبى حين رمى ، ومعنى قوله تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله » بعد قوله « ولله المشرق والمغرب » أن بلاد المشرق والمغرب كل له وهو مالكها ومتوليها ، ففى أى مكان فعلتم التولية ، يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة ، بدليل قوله تعالى « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وثم وجه الله ، أى الجهة التى أمر بها ورضيها ، والمعنى إنكم إذا منعتم الصلاة فى المسجد الحرام أو فى بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ، فصلوا فى أى بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها ، فإن التولية ممكنة فى كل مكان[٣] وبقية الآيات على ذلك النحو من التوسّع والمجاز .

ومع ذهاب الرصافى هذا المذهب فى اعتناقه نظرية « وحدة الوحود » يوافق

---

(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

(٢) رسائل التعليقات ٤ .

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفى ١ / ٥٥ .

القائلين بتكفير كل من قال من البشر أنا الله ، وذلك لأن « أنا » جزئية المدلول ، والله كلّى الوجود ، ولذلك كفر الحلاج لما قال « أنا الله » . ويقول الرصافى : إنى لا أشك فى أن الحلاج لم يكن من الراسخين فى نظرية وحدة الوجود ، وأن عدم رسوخه فيها هو الذى حمله على هذه (الشطحة) المنكرة[1].

ولا أظن أحداً من الصوفية أنفسهم ، إن كانوا حقاً من الصوفية ، يوافق الرصافى على قوله ، الذى تنكره روح التصوف ، وفلسفة الأخلاق ، وقواعد السلوك ، وتنكر أشد إنكار قوله : « ليس التصوف زهداً وعبادة وإنما هو فكرة ونزاهة ، يتساوى فيه الترهب والخلاعة ، ويتلاقى فيه التزمّت والدعارة ، لأن الله فى مذهب وحدة الوجود يعرف بكل ما فى هذا الكون ، وأن كل ما فى هذا الكون حق عند أهل وحدة الوجود ، فلا أدل عليه من آثاره ، ولا أهدى إليه من سواطع أنواره[2] .

هذه هى وحدة الوجود وهذا هو المذهب الذى دافع عنه الرصافى فى تعليقاته .

* * *

وقد أثارت هذه التعليقات ثائرة بعض المسلمين فى بلاد العربية ، ولغطت به الصحف والمجلات وقتاً غير قصير ، ولم يعدم الرصافى مؤيدين يذهبون إلى أن يقول كل إنسان ما شاء ، ويعتقد ما يشاء ، ويرون أن تعقب أمثال الرصافى فيما ذهب إليه إنما هو حجر على العقل ، وقتل للمواهب ، ووأد للحرية فى العقيدة والقول فى القرن العشرين ، ومعارضين أشفقوا على المؤمنين أن تؤثر مثل هذه الأقوال فى معتقداتهم. ولقد اقتحم الرصافى بين هؤلاء وهؤلاء ميدان الجدل فما شفى غلة ولا نقع صدى .

ولكنه كما قلنا قرأ ، وقرأ كثيراً وتأثر تأثراً ليس كثيراً بما قرأ ، يدلنا

(١) رسائل التعليقات ١٦ .

(٢) رسائل التعليقات ٨٥ .

على قلة هذا الأثر فى عقله وعقيدته أنه كان وقتياً ، لم يلبث أن تبخر مع الأوهام وعادت الحقيقة الراسخة إلى موطنها من قلبه وعقله .

* * *

والرصافى مع إيمانه بالبعث لا يؤمن بالصفة التى قيل إن الإنسان يبعث عليها ، ويرى أن البعث من المغيبات التى يكتفى فى الإيمان بها بالنقل، إذ لا مجال للعقل فى إدراك الصورة التى يبعث عليها الإنسان .

والإيمان بالبعث عند الرصافى مع ذلك معقول مقبول : (لأن الغاية المقصودة منه هى اعتقاد المؤمن بيوم الدين الذى هو يوم الحساب والجزاء ، ذلك اليوم الذى فيه يجازى المحسن ويعاقب المسىء ، ولا ريب أن الإنسان إذا كان مؤمناً بيوم الدين إيماناً صادقاً ، اجتنب الشرور وكف عن العدوان ، وبذل الجهد فى الأعمال الصالحة ، وهذا هو كل ما تريده جميع الأديان فى كتبها السماوية ، وجميع الحكومات فى قوانينها الأرضية ، وعليه فلا مرية فى أن الإيمان بالبعث يكون من أهم الوسائل المؤدية إلى السعادة فى الحياة الدنيا ، لأن المؤمن بيوم الجزاء يستحيل عليه عقلا وعادة أن يرتكب الشرور وأن يعمل غير الصالحات . ومتى كان كذلك كان صالحاً للحياة الاجتماعية فى الدنيا بكل ما اشتملت عليه من حقوق وواجبات .

وتالله إنى لا أرى فى الوسائل العلمية والأدبية وسيلة تؤدى إلى إصلاح الإنسان فى حياته الاجتماعية أنفع ولا أنجع ولا أروع من إيمانه بيوم الجزاء المترتب على إيمانه بالبعث، ولا ريب أن الفضل كله فى ذلك راجع إلى دين الإسلام القائل بالبعث دون غيره من الأديان) .

هذا ما قاله الرصافى فى رسائل التعليقات عن كل هذه المعانى السامية ، وأنت ترى أنه غلب الغاية الاجتماعية ، ولا شك أن من جملة الغايات الكبرى التى

ترمى إليها الأديان المنزلة صلاح المجتمع وإزالة أسباب الفوضى والاعتداء فيه .

أما مسألة بعث الموتى بأرواحهم وأجسادهم ، فرأيه أنه عقيدة قائمة على الإيمان الصرف ، وليس للعقل فيها مجال ، ولا يخفى أن الإيمان بالغيب يتسع لأكبر منه وأبعد ، ومما لا غناء فيه إقامة الأدلة العقلية على أمور لا تقوم إلا بالإيمان فى جميع الأديان ، وليس الدين فى بعض نواحيه إلا إيماناً بالغيب كما جاء فى القرآن الكريم : (الذين يؤمنون بالغيب) فالإيمان بالغيب هو من أسس الأديان كلها . وعقول البشر عاجزة عن إدراك بعث الموتى من قبورهم شعثاً غبراً ينفضون التراب عن رءوسهم .

هذه آراء الرصافى استقيناها مما كتب بخط يده ، ولعل فى هذه الأقوال الضافية الصريحة ، ما يزيل كل لبس وغموض فى إيمان الرجل وعقيدته ، مع ما عرفناه من عدم رضاه بغير إيمان من ورائه عقل يؤيده ، وفكر يشد أزره ويعاضده .

* * *

وقد ولع الرصافى ولوعاً شديداً بحكيم المعرة وفيلسوفها « أبى العلاء » وكتابه (فى سجن أبى العلاء) يرينا هذا الولوع والإعجاب ، فقد نصب نفسه للدفاع عن أبى العلاء ورد الكيد عن إيمانه ، وشرح أفكاره ، وتحبيذ نظرياته .

وغير خفى أن هذا الولوع ، وهذا الإعجاب دعا جماعة من الناس إلى تتبعه وتعقبه فى كل ما يكتب ، والذهاب بكلماته إلى غير ما يقصد منها ، فمن ذلك المحاورة الخيالية بين أبى العلاء و بينه[1] (وقد ذكرت له « للمعرى » أحد العظماء من البشر بما أوتى من سؤدد وشرف ، فقال لى منغضاً رأسه ومغضياً عينه :

وأشرف من ترى فى الناس قدراً   يعيش الدهر عبد فم وفرج

---

(١) رسائل التعليقات : ص ٩٩ .

فهاج عليه من هاج من الناس وثاروا ووجدوا فى هذه الرواية الخيالية مطمعاً يشبعون منه نهمهم ، ورأوا أنه يقصد بقوله « أحد العظماء » محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يطق الرصافى صبراً على هذه الفرية ، فدحضها عند من يهمهم التثبت من أمر طويته ، وحقيقة عقيدته ، واتهم مبتدعيها بمرض نفوسهم وعمه بصائرهم ، ورد بأنه يرى أن العظماء من البشر إنما هم عظماء بالنسبة إلى سائر الناس ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما هو عظيم بالنسبة إلى عظماء البشر لا بالنسبة إلى سائر الناس ، وأن هذا الرأى فى رسول الله لم يقله الآن بل هو مدون فى كتابه منذ أكثر من عشر سنين . فلو كان يقصده فى هذه المحاورة الخيالية لما قال أحد عظماء البشر(١) .

ثم هو يؤكد لكل من يدرك معنى صحيحاً للشرف فى ذهنه ، سواء اتصف به أم لم يتصف ، أنه فى هذه المحاورة الخيالية عند ما قال « أحد العظماء » لم يخطر على باله ، ولم يدر فى خلده أى شخص معين من البشر ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وإنما جل مقصوده ، هو أن يذكر لأبى العلاء هذا البيت الناطق بحقيقة لا يمترى فيها كل من عرف نفسه أنه من عباد الله .

ويرى بعد كل هذا أن أبا العلاء لم يأت فى هذا البيت بشىء من عنده ، وإنما أخذ هذا المعنى من الحديث النبوى المشهور « إنما يسعى المرء لغاريه : بطنه وفرجه »

ذلك ما رد به الرصافى على معارضيه ، ودحض به حجة الذين كانوا يتسقطون كلمات تصدر عنه ، ثم يؤولونها تأويلا يرضونه ، ولا يرضاه الرصافى .

ولقد كان ما طبع عليه الشاعر من الاعتزاز بنفسه ، والاعتداد برأيه هو

---

(١) من رسالة خاصة بعث بها الرصافى الى أحد خاصة أصحابه فى (١٨ — ٢ — ١٩٤٤) نشرتها مجلة (الوادى) البغدادية س ٧ العدد ٦ السنة ٧ الصادر يوم السبت (٢٣ آذار سنة ١٩٤٦) .

الذى جعله يقتفى مقتفيه بالرد والإيضاح ، ودحض ما يعرض من شبه فى شعره وفى آرائه ، رده نثراً كما رأيت ، ورده شعراً فى هذه الأبيات :

أيا بغدادُ لا جازتْك سحبٌ ... ولا حلّت بساحتك الجدوبُ
تطاولَ ساكنوك عليّ ظلما ... فضاقَ عليّ مغناك الرحيبُ
وكم نطقوا بألسنةٍ حداد ... يسيلُ بها من الأشداق حوبُ
رمانى القومُ بالإلحاد جهلا ... وقالوا عندَه شك مريبُ

وهكذا يعد هذه الحملات عليه ظلماً وحرباً ، وعلل لذلك بجهلهم ، وغرقهم فى بحور الضلال والخرافات ، ثم ينكر عليهم معرفة طويته ، وهم المحجوبون عن الغيب ، ثم يقول إن له موقفاً معهم أمام الله ، ويعلن إيمانه صريحاً بأن الله مطلع رقيب :

ألا يا قومُ سوف يجدُّ جدى ... وسوف يخيبُ منكم من يخيبُ
فمن ذا منكم قد شقَّ قلبى ؟ ... وهل كشفتْ لكم فىَّ الغيوب ؟
فعند الله لى معكم وقوفٌ ... إذا بلغت حناجرَها القلوبُ
يقينى شرَّ فِريتكم يقينى ... بأن الله مطلعٌ رقيبٌ

* * *

ولعلنا بعد كل ما أوردناه لا نجد أنفسنا فى حاجة إلى تعمق كثير فى حقيقة طوية الشاعر ومعتقده ، فقد كفانا مئونة البحث وأغنانا عن تتبع النصوص الواردة فى شعره أو فى نثره ، ولو فعلنا ذلك لوجدنا كثيراً من الأبيات التى لا يلتئم ظاهر معناها مع صدق الإيمان وصحة العقيدة .

فمن ذلك قصيدته التى سماها (حقيقتى السلبية)[1] وفى وصفه هذه الحقيقة

---

(١) ديوان الرصافى ص ٢٠١ .

بالسلب ما يؤيد قولنا آنفاً أن الرصافى وقف موقف المتشكك الذى يريد أن ينقض الحقائق التى أخذها بالتلقين فوقف منها هذا الموقف السلبى؛ على الرغم من هيامه بالحرية وتقديس الصراحة والنفور من المصانعة والرياء :

أحب صراحتى قولا وفعلا وأكره أن أميل إلى الرياء
فما خادعتُ من أحد بأمر ولا أضمرتُ حَسْوًا فى ارتغاء

وهذه الأبيات وما يليها أكبر الظن بالرصافى أنه أنشدها فى حال ثورة نفسية عنيفة على العقائد ورجال الدين ، الذين لم يرقه إذ ذاك ما كانوا يفعلون أو لعل الرصافى ، وقد ولع بأبى العلاء ولوعاً شديداً ، اقتفاه فى تسجيل جميع خطراته فجاءت مزيجاً من متضاربات ومتناقضات . وكذلك تقرأ الإيمان فى شعر الرصافى الذى سقنا أمثلة منه يبرأ فيها ممن رموه بالكفر والإلحاد ، ولكن أولئك الذين أفتوا بتكفيره معذورون إذ لم يجدوا تأويلا لمثل قوله :

ولست من الذين يرون خيراً بإبقاء الحقيقة فى الخفاء
ولا ممّن يرى الأديان قامت بوحي منزل للأنبياء
ولكن هنّ وضع وابتداع من العقلاء أرباب الدهاء
ولست من الألى وهموا وقالوا بأن الروح تعرجُ للسماء
لأن الأرض تسبح فى فضاء وما تلك السماء سوى الفضاء
ولست من الذين يرون فخراً لمفتخر بإهراق الدماء

وما أظن إنكاراً للدين وكفراً به وضح هذا الوضوح ، ولا أجد صراحة فى إعلان هذا الإنكار والكفر أصرح من هذا الإعلان !

ماذا كان الرصافى ينتظر من رجال الدين ؟ بل ماذا كان ينتظر من غيرهم من الناس خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهالهم ؟ إذا قرءوا هذا الشعر الذى

ينكر الأديان ويكفر بالوحي والنبوات ويجعل الأنبياء جماعة من العقلاء الدهاة سخروا من عقول الناس فأحدثوا فيها تلك العقائد ؟ إن الرصافي في هذه الأبيات لا يلف ولا يدور ، ولا « يضمر حسواً في ارتغاء » كما يقول ؛ بل يصرّح في جرأة لا تعرف المواربة ، فأنّى لرجال الدين بل أنّى لغيرهم أن يلتمسوا مخرجاً ، أو يجدوا لمثل هذا الكلام متأولا ؟ !

إن الكفر جريمة لا يغفرها الله ؛ كما أن تكفير مسلم ورميه بالإلحاد والزندقة كبيرة من أعظم الكبائر ؛ ولكن ما حيلة المؤمنين إذا رأوا هذا الكفر صريحاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ؛ ووجدوا من الرصافي مباهاة به ؛ وإذاعة له ؟ أتراهم يرون في هذه الكلمات آيات الإيمان الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ؟

إذن فلم يتطاول عليه ساكنو بغداد ظلماً ؛ ولم يرموه بالإلحاد جهلا كما يدّعي ، بل هو الذي تطاول على نفسه وعلى معتقدات الناس ؛ وهو الذي أباح عرضه لهم ، بما ادعاه من الصراحة ونال به من الوحي والنبوّات ؛ ونشره في ديوانه الذي قرأه كل قارئ عرف أن من أعلام الشعر الحديث شاعراً فحلاً كالرصافي .

أترى الرصافي كان يتوقّع من المفتين ورجال الدين أن يقولوا له أحسنت ، وهذا إيمانك قدوة كل المؤمنين وسبيل المهتدين ، ليصبحوا في نظره منصفين عالمين ؛ وقد دعا هو الناس إلى ذمه ، فذمّوه بالحق لا بالباطل ؟

إن رجلا يصف نفسه بالصراحة ويباهي بها ، ويعد ما تقدّم صراحة ، كان ينبغي ألا يبالي بمقالة الناس ، ولكن ما باله يفزع هذا الفزع ، ويثور هذه الثورة الجامحة التي ينال بها من ناقديه وأعراضهم وأحسابهم وأنسابهم ، وهو صاحب رأي وهم أصحاب رأي ؛ والرأي يفنّد بالرأي ، والحجة تقرع بالحجة عند من يعدون أنفسهم مفكرين ، أو يعدهم الناس في المفكرين . ولكن

انظر إلى منطق الرصافي في هذا الهجو المقذع في الرد عليهم[1] :

وإن كنتَ قد كفّرتني بجهالةٍ فبالبهت كم كفّرت من مسلم قبلي
وإنك في تكفيرك الناسَ كافر تهاون بالله الذي جلّ عن مثلِ
رُويدَك قد كفرتَ يا وغدُ مؤمناً وكذّبتَ فيما تدّعي سيد الرسْلِ
وأنت امرؤ لم تجهل العلمَ وحده بل الجهلَ أيضاً بل وجهلَك بالجهلِ
وأنت من الإسلام في كل حالة بمنزلة الظلم الصريح من العدلِ
نطقتَ بُبطل القول تهذي مخرقاً ومثلك من يهذي وينطق بالبُطلِ
ألستَ الذي أعطى اللئام كرامةً وكشر فيه الأصل عن أربع عصلِ
وكم قرطستْ فيك الرماةُ ووتّرتْ عليك القَسِيّ الملس يا جعبة النَّبْلِ
فياعلجُ أقصرْ عن نهيقك إنه أضلّ كإضلال الخُوار من العجلِ
أنزّه عنك السيف في قتلك الذي تحتّم ، لكنْ يا مخنّث بالنّعلِ

وما كان مثل هذا الهجو المقذع منطق المفكرين من أصحاب الرأي والصراحة !

* * *

على أن هذه الثورة العارمة لم تلازم الرصافي طيلة حياته ، ولذلك عللناها أنها كانت ثورة نفسية ، تعتريه في بعض حالاته ، نتيجة لسخطه على حظه في الحياة ، وتبرمه بالناس ، وما لقي منهم من صنوف الأذى والحرمان ؛ وربما كان لبعض رجال الدين يد في ذلك الحرمان .

إنك تقرأ في بعض ما كتب الرصافي في « رسائل التعليقات » دفاعاً منصفاً

---

(١) ديوان الرصافي ٤٦٥ تحت عنوان « فاسق مراء ، أو جاهل يدعى العلم » .

عن الإسلام والمسلمين ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يسعك وأنت تقرؤه إلا أن تعترف له بصدق الطوية مع احترام سلطان العقل . فقد قرأ كتاب « التاريخ الاسلامى » الذى ألفه المستشرق الطليانى « ليونا كايتانى » ، قرأه مترجماً إلى اللغة التركية ، بقلم الكاتب التركى المشهور « حسين جاهد » وكان الرصافى يحسن اللغة التركية ، فعثر على نسخة من هذه الترجمة عند الأستاذ « كامل الچادرچى » فاستعارها ، وطالعها من أولها إلى آخرها بتدبر و إمعان وعلق عليها بعض التعليقات [1] .

ثم إنك تقرأ فى وصيته ، وهى التى كتبها قبيل وفاته ، توبة نصوحاً ، و يعلن فيها أنه ، ولله الحمد ، مسلم مؤمن بالله ، و برسوله محمد بن عبد الله ، إلا أنه يخالف المسلمين فيما يراهم عليه من أمور يرونها من الدين ، وليست هى منه إلا بمنزلة القشور من اللباب ، ولا يهمه من الدين إلا جوهره الخالص . و يختمها بأنه مؤمن بالله وحده لا شريك له .

والله يتوب على من يشاء ...

---

(١) رسائل التعليقات ١٢٣ .

الباب الثاني

شعر الرصافي

الفصل الأول

في سبيل الوطن

ألا إنما حريةُ العيشِ غادةٌ　　مُنى كلِّ نفسٍ وصلُها ووفودُها
يُضيء دجنّاتِ الحياةِ جبينُها　　وتبدو المعالى حيثُ أتلع جيدُها
لقدْ واصلَتْ قوماً وخلَّتْ وراءها　　أناساً تمنّى للموتَ لولا وعودُها
وقدْ مرضتْ أرواحُنا فى انتظارِها　　فما ضرّها ، والمفتنا ، لو تعودُها !

— ١ —

فى العهد العثمانى

لئن عاش كثير من الشعراء بأشخاصهم فى هذا العصر ، وعاش شعرهم فى الفترة المظلمة ، لقد عاش الرصافى بشخصه وشعره فى هذا العصر ، واتخذ من سماته سمات لشعره ، فكان طائره الغريد ، الذى يردد آياته فى الصباح والمساء ، ويرسل ألحانه فى أجواز الفضاء ، فاستوحى لحنه من الحياة الجديدة الزاخرة بصنوف التجديد فى الماديات والمعنويات .

بدأ الرصافى حياته فى أخريات القرن التاسع عشر ، فى الوقت الذى كان الشعراء يصدرون فيه عن نزعة واحدة ، ويوقعون لحناً واحداً ، على مزهر واحد أصابه البلى . ويعالجون أغراضاً تافهة لا تمثل حياة الأمة ، ولا تعبر عن غاياتها وأهدافها التى تصبو إليها من خلع ربقة الاستعباد ، والثورة على الأوضاع القائمة

والحكام الغاشمين ، والثروات المستنزفة ، والجهل الناشر ألويته على ربوع العراق وغيره من البلاد العربية ، والفاقة التى تسود أكثر طبقات الأمة ، والولاة الذين يفكرون فى كل شيء ؛ إلا الاهتمام بما تعانى هذه الأمة البائسة ، التى أسلمتها الأيام إلى الذل والهوان .

وأولو الأمر والنهى ، وأصحاب الحل والعقد فى البلاد ، هم أولئك الولاة والعمال ، الذين تغدق عليهم تركيا الرواتب والرتب ، ولكنهم لا يقنعون بما يكفى للإنفاق على حاجاتهم ، والانصراف إلى ما تستلزمه وظائفهم من العناية والسهر على خدمة الأمة التى وكل إليهم العناية بها ولكنهم يقضون مدة ولايتهم وعمالتهم فى جمع مال يضمن لهم غنى الحياة ، إذ هم مهددون دائماً بخطر الخلع والإبعاد عن المنصب والجاه والمال . وأكثرهم ذكاء وأبعدهم نظراً من يشترى هذا المنصب ، أو يشترى البقاء فيه ، ما مدت له الأيام فى حبل البقاء . ولا سبيل إلى هذا الأمل المحبب ، إلا بإرضاء الباب العالى ، وما أدراك ما الباب العالى ؟ وما السبيل إلى إرضائه ؟ أهو الإخلاص للوظيفة ، والقيام بمقتضياتها فى السلم ، من توفير السعادة فى ربوع البلاد التى يتولونها ، وصون الأمن فى ربوعها ، ونشر العلم بين ظهرانى سكانها ، ورعاية العدالة والإنصاف ، وبسط الرغد والرفاه كما تقتضى كل أولئك الإنسانية ، وحقوق الولاية ، وكما يحتم الدين القويم ، الذى يحكمون البلاد باسمه ، وكما يمليه الواجب الملقى على عاتق أولئك الذين يتسنمون مقعد رسول الله ومقعد خلفائه الراشدين ؟ ؟

والقيام بمقتضياتها فى الحرب ، من إمداد الدولة بالرجال والعتاد إذا دعا داعى الجهاد فى سبيل الدين ، ولذود الطامعين ، ومنتهكى الحرمات ، والعائثين فى الأرض بالفساد ؟

ليس كل أولئك ، ولا شيئاً من أولئك ، ولكن هناك وسيلة فريدة

يعرفها الراسخون فى علم الولاية ، العارفون ما يرضى الباب العالى ، وما يغضب الباب العالى !

وقوام تلك الوسيلة ، التقدم بالهدايا والألطاف والتحف ، وأنى لهؤلاء الولاة بالهدايا والتحف والألطاف ؟ إنها ستؤخذ قسراً أو سيؤخذ ثمنها كرهاً من أهل البلاد الذين ليس عليهم إلا الغرم ، ولمستعبديهم دونهم الغنم ، وليس لأبناء العراق نصيب من حكم أنفسهم وخير بلادهم على حين أن هؤلاء الولاة المستبدين يعيشون عيشة البذخ والإسراف ، على حطام أبناء البلاد وأشلائهم .

وبقية هذه الطبقة القليلة ، جماعة قليلة أيضاً ، من أبناء البلاد هم أثارة من رجال العلم ، وبقية من رجال الدين ، وهؤلاء يحظون بقدر محدود من الحياة المناسبة بالنسبة إلى غيرهم من إخوانهم أبناء العراق[1] .

تلك حال العراق إذ ذاك ، والشعراء الذين هم فى كل زمان لسان أمتهم ، المعبر عن شكاتها ، المطالب بحقها لا تجد أحدهم إلا مادحاً والياً ، أو مثنياً على عظيم ، أو متوجعاً من صبابة ، أو واصفاً مجلس لهو تدار فيه ابنة الحان ، أو باكياً الدمن والأطلال ، وهو فى كل ذلك مقلد للسابقين ، تقليداً لا استقلال فيه ، وصدى لا حياة فيه . ومن المجلين فى هذه الحلبة عبد الغفار الأخرس[2] ، الذى

---

(١) الواقع أن الأتراك لم يرسخ حكمهم إلا فى بعض المدن العراقية الكبرى كبغداد والبصرة والموصل وأما المدن الصغرى والأرياف فكانت الحكومة فيها من قبل زعماء القبائل وبعض الأمراء الإقطاعيين وذلك وفق النظم القبلية ، وقلما استتب الأمن والطمأنينة على عهد الأتراك فى أرياف العراق شمالا وجنوباً ، حتى أن جباية الضرائب كانت تستدعى فى كل سنة تجهيز حملة عسكرية كبيرة ولا يمكن بدون ذلك استيفاء الضرائب المطلوبة ، كما أنه لم يكن للغة التركية ولا للأدب التركى شأن يذكر إلا فى بعض المدن الكبيرة المذكورة ، فكانت العربية لغة الأدب والتعليم داخل البلاد . (العلامة الشبيبى)

(٢) هو السيد عبد الغفار بن عبد الواحد بن وهب الملقب بالأخرس ، ولد فى الموصل سنة ١٢٢١ هـ ، ثم رحل إلى بغداد واتخذها دار إقامة ، وكان فى أثناء إقامته بها يتنقل فى أنحاء العراق ، ويتردد على حواضره ، لا سيما البصرة ، يقيم بها ما شاء مادحاً أعيانها الذين كانوا يحبونه ويجزلون له العطاء ، لما اتصف به من حدة الذكاء ، وحضور البديهة ، وقدرته =

عرف بمديحه ووصفه وغزله ، فى ثوب تقليدى ، لا أثر للجدة ولا لأمانى بلاده فيه ثم عبد الباقى العمرى[١] ، الذى عرف بموالاته للولاة ، ومدائحه للخلفاء وآل البيت فى أسلوب بديعى يظهر عليه التكلف والصنعة ، ثم محمد سعيد الحبوبى[٢] الذى اشتهر بموشحاته الغنائية وشعره الوجدانى ، وكاظم الأزرى[٣] ،

= على ارتجال الشعر . وقد تثقف ثقافة عربية خالصة على يد العلامة أبى الثناء الألوسى ، الذى أجاز له قراءة كتاب سيبويه فى النحو .

وقد أرسله « داود باشا » الوالى التركى إلى بعض أطباء الهند ليعالج لسانه ، فقال له الطبيب : أنا أعالج لسانك ؟ فإما أن ينطلق أو تموت ! فأبى وقال : لا أبيع بعضى بكلى ! وكر راجعاً إلى بغداد . وتوفى بعد ظهر يوم عرفة سنة ١٢٩١ هـ .

وللأخرس ديوان ضخم جمعه أحد أعيان العراق « أحمد عزة باشا الفاروقى » وسماه « الطراز الأنفس فى شعر الأخرس » .

(١) هو السيد عبد الباقى الفاروقى ابن سليمان العمرى حفيد أبى الفضائل على المفتى الحنفى الموصلى ، ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولد بالموصل سنة ١٢٠٣ هـ فى بيت عريق ، وقد رباه والده تربية صالحة ، وعلمه علوم الدين واللغة ، وظهرت مواهبه مبكرة ، فعين نائباً لوالى الموصل وسنه لم تتجاوز العشرين ، وظل يرتقى حتى عين نائباً لوالى دار السلام. وكان منزله فى بغداد منتدى الأدب يلتقى فيه العلماء والشعراء وسراة البلاد ، حتى قدر له أن يسقط من طارمة بيته ، فكان ذلك سبب وفاته سنة ١٢٧٨ هـ .

وكان له ولوع بالبديع . ولا سيما الاقتباس والتجنيس ، كما كان يعنى بتشطير شعر غيره وتخميسه وتأريخ الحوادث بالشعر . وأكثر شعره فى مدح آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، واجتمع له من مدائحه فيهم ديوان سماه « الباقيات الصالحات » ؟ وله ديوان شعر سماه « الترياق الفاروقى » وكتاب أدب اسمه « أهلة الأفكار فى معانى الابتكار » وكتاب أدب وتراجم سماه « نزهة الدهر فى تراجم فضلاء العصر » وكتاب « نزهة الدنيا » فيه تراجم جماعة من فضلاء رجال الموصل .

(٢) هو السيد محمد سعيد ابن السيد محمود الشهير بحبوبى النجفى ، ينتهى نسبه إلى الحسن ابن على بن أبى طالب ، ولد فى النجف سنة ١٢٦٦ هـ فى أسرة محبة للعلم يسكن بعضها النجف من أرض العراق ، وبعضها نجداً ، وقد شب وترعرع فى النجف ، ثم سافر إلى نجد فقضى فى الحجاز وبلاد نجد شطراً من شبابه ، فأفاده ذلك قوة فى الشاعرية وصفاء فى الخيال ، ثم عاد إلى النجف فدرس علوم العربية والدين ، وفى أثناء ذلك كان كلفاً بقرض الشعر ولكنه خشى أن يشغله الشعر عن التفرغ لطلب العلم ، فهجره بعد نيف وعشرين سنة من عمره ، وأكب على تحصيل العلم ، وما لبث أن عاد إلى الشعر مرة ثانية ؟ ولما ناهز الخمسين من عمره انقطع عنه ولم يعد عليه ، وتفرغ للعلم ، واشتغل بالتدريس ، فكان من الأساتذة المبرزين ، حتى قبض إلى رحمة الله سنة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥ م) — ويقول عنه العلامة الشبيبى : الحبوبى شاعر العشق المطلق والحب الروحى الطاهر، ولا يدانيه من معاصريه شاعر فى هذا الشأن =

وحيدر الحلى [٤] ، ويكاد يكون شعرهما مقصوراً على رثاء الشهداء من آل بيت النبوة الكريم ، مع إغراق فى الصنعة وتكلف البديع .

وبين هذه الأصوات ، صوت خافت ، انطلقت به عقيرة شاعر بدوى هو عبد الحميد الشاوى الحميرى ، يغرد بالعروبة وأمجادها ، ويبكاء ما انتهى إليه أمرها من الضعة والهوان ، وهو أعرق فى منزعه البدوى البعيد عن الصناعة وأشبه بالبارودى فى فحولته ، ولعله أسبق شعراء العراق فى عهد الأتراك إلى التغنى بالقومية العربية ، وذكريات أمجادها ، غير أنه كان مقلا ، وصوته كان خافتاً ، فلم يؤثر لا هو ولا غيره من أهل جيله فى الطبقة التى تلتهم [٥] .

ومن هذا يظهر أن شعراء العراق فى القرن الماضى ، لم يفكروا فيما تعانيه

= ولا فى غير معاصريه فى هذه القرون الأخيرة وقد ترفع بالشعر والأدب إلى المنزلة اللائقة بهما فلم يكن من المادحين إلا فى الإخوانيات ، ولم يكن من شعراء المناسبات .

(٣) الشيخ كاظم الأزرى ، ولد فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى من أسرة عربية ، من بنى تميم وتثقف ثقافة عربية ، وأقبل على دراسة دواوين الشعراء فتأثر بها ، وامتاز بحسن الخلق ، ووفرة العلم ، وحدة الذكاء ، فكان مقرباً إلى وجوه البلاد . وأهم من اتصل به وأكثر من مدحه سليمان بك الشاوى الشاهرى الحميرى الذى اتخذه جليساً ورفيقاً وظل على الوفاء له ، وملازمته إياه ، حتى أدركه الموت سنة ١٢٠١ هـ ، وله ديوان شعر يقع فى نحو مائتى صفحة ، وأكثر أغراض شعره المدح الذى اختص به آل بيت النبوة ، وأسرة الشاوى ، كما نبغ فى الرثاء ، ولا سيما رثاء أهل البيت ، وأكثر شعره فى هذا محفوظ يدور على الألسنة،وقد عمد بعض الشعراء إلى تشطيره أو تخميسه .

(٤) هو أبو الحسين حيدر بن سليمان بن داود،ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب ولد فى الحلة سنة ١٢٤٦ هـ وبها نشأ ، وتوفى أبوه وهو لا يزال طفلا ، ورعاه عمه السيد مهدى ، الذى اشتهر بالأدب وكثرة الاطلاع على أشعار العرب وحفظ سيرهم ، فكان للسيد حيدر أباً وأستاذاً . وقد حفظ القرآن وأجاد اللغة والأدب والبلاغة وعلوم الدين إجادة يشهد بها كتابه « العقد المفصل » وظل حياته يؤلف ، وينظم الشعر حتى توفى سنة ١٣٠٤ هـ فى الحلة ، وحمل جثمانه إلى النجف حيث دفن قرب مرقد الإمام على . وللسيد حيدر الحلى ديوان شعر سماه « الدر اليتيم » كما نثر كثيراً من شعره فى « العقد المفصل » ومما خلد ذكره مرثياته للامام الشهيد الحسين بن على ، التى أثار بها الخواطر وتصرف فى النفوس ، واستمطر الدموع حتى احتذى مثاله كل من جاء بعده ، وعدوه إماماً فى فن الرثاء .

(٥) محمد بهجت الأثرى : المدخل فى تاريخ الأدب العربى ص ١٧٨ .

أوطانهم من صنوف الاستعباد ، والانحلال السياسي ، وأن واحداً منهم لم يرفع عقيرته ليكون من دعاة حرية وطنه ، وتحطيم قيوده ، والثورة على مستعبديه إذا استثنينا هذا الصوت البدوي الخافت الضعيف !

* * *

على أن هناك قلبين امتلآ بسالة ، وروحين فاضا حماسة ، ولسانين أرسلا شعر القوة في عصر الضعف والاستسلام ، وأولهما الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي الذي أرسل الشعر الحر في عصر لم يعرف الشعراء فيه معنى الحرية ، وهو الذي انطلق بشعر السياسة والجامعة ، يحرض هذه النفوس الذليلة المستكينة على الثورة وتحطيم القيود ، وفك الأغلال . استمع إليه في هذا التحريض السافر :

لهف نفسي على رقات شباب   طحنتهم طاحن الرحى النائبات
لو سألت الرقات : ماذا دهاه ؟   لاشتكى من ظلم الولاة الرقات
فوق خدّ البيض الحسان سطورٌ   كتبتْ بالدموع فيها شكاةُ
أرهقوكم ذلا وأنتم سكوتٌ   أينَ أينَ الأحرارَ ؟ أين الأباةُ ؟

ثم استمع إليه مرة أخرى يخاطب السلطان عبد الحميد ، وهو في قاعدة ملكه وعاصمة سلطانه ، وهو معدود في رعاياه ، المشمولين برعايته ، الذين يعيشون على ما يصيبونه من تقريبه وبره :

أيامرُ ظلُّ الله في أرضه بما   نهى اللهُ عنه والرسولُ المبجَّلُ ؟
فيفقر ذا مال وينفي مبرَّأً   ويسجن مظلوماً ويسبي ويقتلُ ؟
تمهلْ قليلا لا تغظ ، إنه إذا   تحركَ فيها الغيظ لا تتمهلُ !
وأيديك إن طالتْ فلا تغترر بها   فإن يدَ الأيام منهنَّ أطولُ

هذا لحن جديد ينم على الإحساس بما يكابد الوطن المكلوم من صنوف

الحيف والعسف . وتقرأ فيه الثورة على الظلم والطغيان .

وثانيهما شاعرنا الرصافى الذى سار مع الزهاوى جنباً لجنب يرددان لحن الألم ، ويرفعان بشعرهما علم الثورة ، ويشعلان النفوس لتعمل وتعمل ، وتظفر بحقها فى الحياة ، وليصل أصحابها إلى ما وصل إليه غيرهم من سكان المعمورة ، وما كان سكان العراق نسل العرب الأمجاد ، وأبطال الجهاد بأقل من غيرهم استحقاقاً للحرية السياسية وحكم أنفسهم بأنفسهم .

على أن هنالك فرقاً بين الشاعرين ، فإن الرصافى كان إذا ثار لم يستطع كبح جماح نفسه ، بل كان يرسلها على سجيتها فى قوة وصراحة ، أما الزهاوى فإنه يغلب على شعره الثورى الرمزية التى كان يتقى بها بطش الطغاة ويدفع بها عن نفسه شر كيدهم ، وقد سمعت أنه كان فى بعض الأحيان يبرأ من شعره ، وينسبه لجماعة من حساده الذين يسعون به ويكيدون له ، على حين كان الرصافى يعتز بشعره وبنسبته له ، ويردده فى مجالسه ليرويه من شاء من الرواة .

وكان الرصافى يرى « أن العصر الحاضر عصر مدنية راقية ، وعلم واسع ، وآثار باهرة ، ومخترعات عجيبة ، ومستكشفات غريبة ، كما أنه عصر نفوس محررة ، وأفكار مطلقة ومدارك عالية ، ومقاصد غالية ، فالشعر العصرى يجب أن يكون منطبقاً من جميع الوجوه على ما تقتضيه روح هذا العصر ، وإلا فلا يستحق النسبة إليه » .

وكان يرى أن الشعر العربى منذ نصف قرن أو أقل أخذ يجرى فى مجرى هذا العصر ، إلا أنه لم يبلغ بعد غايته المطلوبة ، لأن العرب أنفسهم لم يبلغوا بعد غايتهم المطلوبة لا فى العلم ولا فى غيره من مظاهر العصر الحاضر ، ولا يتمكن العرب من بلوغ تلك الغاية على ما يرى إلا إذا ملكوا أمرهم فى السياسة ، لأن جميع الشئون الحيوية من علمية واجتماعية واقتصادية لا تدور فى هذا العصر إلا

على محور السياسة ، فيستحيل على أمة أن تتقدم فى تلك الشئون ، وهى غير مالكة أمرها فى السياسة[١] .

* * *

عاصر الرصافى عصر الترك فى فترتيه البغيضتين : فترة الاستبداد وفترة الدستور الذى بشر الأمم المحكومة بالعثمانيين بالحرية التامة ، فلا يبقى للخليفة إلا التبعية الشكلية،يبقى منها العرض دون الجوهر ، والاسم دون الرسم .

و يندر أن نجد للرصافى قصيدة مستقلة فى السياسة فى الفترة الأولى، و إن كان ذلك لا ينفى أنه عبر فى ثنايا شعره عن انحطاط البلاد فى شئونها العامة نتيجة لعدم الاستقلال السياسى ، وما تكاد تشرق على البلاد بارقة الأمل حتى نجده فى عهد الدستور إنساناً آخر يختلف عن الرصافى قبله ، وفى الأبيات الآتية تجد الانتقام والتشفى من السلطان عبد الحميد :

لقد نقض اليمينَ وخان منها فذاق جزاء من نَقَضَ اليمينا
وقد كانتْ به البلدان تشقَى شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيرانَ ظلم وكم منْ أهلها قتلَ المئينا .
وكان يدير من سَفَهٍ رحاها بجعجعة ولم يُرِها طحينا
وقد كان به الأيامُ تمضى شهوراً والشهور مضتْ سنينا

و يستطرد فى ذكر الآلام التى عانتها البلاد التى كتب عليها أن تذل للسيادة العثمانية وأن تكابد الشقاء وتعانى الظلم وتسفك دماء أبنائها إذا ما حاولوا الهتاف بالحرية والانفكاك من هذه القيود .

ثم يقول إن هذه السنوات العجاف كانت تتثاقل وتتثاقل ، حتى أصبحت

(١) من حديث الرصافى مع محرر مجلة الحرية فى أول تموز سنة ١٩٢٥ .

الأيام شهورا والشهور غدت سنين . وإليك أبياتا من قصيدة أنشأها عقب خلع السلطان عبد الحميد وإرساله سجينا إلى سلانيك وسماها (وقفة عند يلدز) قال يخاطب القصر :

كنتَ مأوى العلا مثار الدنايا مهبطَ العز مصعــدَ الإذلالِ
كنت جُبًّا وأى جُبٍّ عميق بالمنا للنفـــوس والأموالِ
مورد الخائنين كنتَ وكانتْ منك تدنى مطالع السمالِ

إلى أن يقول :

قصرُ عبد الحميد أنتَ ، ولـكن أين ياقصرُ أين عرشُ الجلالِ ؟
أين خاقا نك الذى كان يُدّعَى قاسمَ الرّزقِ باعثَ الآجالِ ؟

ومنها .

قد تخوّنتنا ثلاثين عاماً جئتَ فيها لنا بكلِّ محالِ
تلك أعوامُ رفعةٍ للأدانى تلك أعوامُ حِطّةٍ للأعالى
تلك فيما جرت به نقطةٌ سو داء تبقى بجبهة الأجيالِ

ويستطرد الشاعر إلى أن هذه الفترة فترة خلافة عبد الحميد ، كانت عنوانا للعسف ، وأنها أرضعت الزمان عاراً ، ويصف الوجل الذى حل بالنفوس لحرمها نعمة الأمن والسلامة ، فكل حر يتوقع أن تستصفى أمواله وتعذب ذراريه وهذه النفوس التى أرهقها قد عرجت إلى السماء وترقت إلى ذؤابة أعلى كوكب جوال ، ثم قذفت شهبا متفجرة صعقت الطاغية وأحرقته . وكيف ينسى أبناء البلاد هذه الخطوب التى أحفظت نفوسهم :

يوم كنّا وكان للجهل حكمٌ خاذلٌ كلَّ عالِمٍ مفضالِ
آمر من عتوِّه كلَّ أمرٍ يغرسُ البغض فى قلوب الرجالِ

فالفساد الذى تسلط على النفوس والكراهية التى تمكنت فى قلوب الناس فقطعت بينهم أواصر الأخوة وهدت دعائم الوطنية إنما مبعث كل ذلك الجور والجهل. ومصدر كل حكم قائم على مثل ذلك الأنحلال والتردى والسقوط والزوال.

والرصافى حين يذكر عبد الحميد الخليفة المخلوع لا يعنى فرداً ، وإنما يعنى نظاماً قام على هذه الأسس من الطغيان والفوضى والآلام ، وكان خلفاء العثمانيين وساستهم أمثالا لهذا الجبار العنيد :

ليمضِ عبدُ الحميد فرداً ولكنْ كم لعبد الحميد منْ أمثالِ !

وهذه قصيدة أخرى دعاها « تنبيه النيام » لايذكر فيها عبد الحميد ولا غيره من سلاطين آل عثمان بل ينحى فيها باللائمة على بلاده وساكنيها ، ويرميهم بالخور وضعف الهمة والتفكك وانقسام الرأى مما أطمع فيهم المحتل الغشوم :

أما آن أن يغشى البلاد سعودُها ويذهب عن هذى النيام هجودُها

متى يتأتىَّ فى القلوب انتباهُها فينجابَ عنها رَيْنُهَا وجمودُها ؟

ويصرح بحاجة بلاده إلى زعيم يقف سعى الذئب فى حماها بالفساد :

أما أسدٌ يحمى البلادَ غضنفرٌ فقد عاثَ فيها بالمظالم سِيدُها

وكرر الرصافى هذا المعنى فى كثيرمن شعره ومنه ما قال فى قصيدة أخرى عنوانها (إيقاظ الرقود) والشبه قوى بين العنوانين غير أن القصيدة الأولى يغلب عليها الطابع السياسى والثانية الطابع الاجتماعى ، وفيها يقول مخاطبا بغداد :

تتابعت الخطوبُ عليك تترى وُبدِّل منك حلوُ العيش مُرّا

فهلا تنجبين فتى أغرّا ؟ أراكِ عقمْتِ لا تلدين حُرّا

ونعود إلى القصيدة السابقة لنرى الرصافى يلقى التبعات الثقال على أبناء بلده المتقاعسين عن العمل للتخلص من الأسر الذى أتى بلادهم فى قبضة أولئك

الحكام القساة ، وهو يعجب لاستكانتهم أمام هذه الموبقات التي يجترحها الولاة واتقائهم الدولة ، وهم الذين يمدونها بالرجال والأموال ، وأبناء البلاد يكلفون من أمرهم رهقا ، والحر الأبى منهم ذليل مهين مردود عن قصده بالخيبة ولاذنب له إلا أنه من دعاة حرية وطنه :

برئتُ إلى الأحرارِ من شرِّ أمة أسيرةِ حكام ثقالٍ قيودُها
عجبتُ لقوم يخضعُون لدولة يسوُسهم بالموبقات عميدُها
وأعجبُ من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ، ومنهم جنودُها

ثم يعود الرصافى إلى التغنى بالحرية التي عبدها واستعبدته ، وشبهها بغادة خودتتمنى كل نفس وصلها ، وشبهها بالشمس التي تضيء دجنات الحياة ، وأنها واصلت قوما فسعدوابها وذاقوا لذة وصالها ، وصدّت عن آخرين فتعست حالهم ولولا أثارة من الأمل يتعللون بهـا من وعودها العرقوبية لآثروا الموت على الحياة .

ويعود إلى بنى وطنه فيكرر نقمته على صبرهم على الذل ولو حملت الجبال ما يحملون من الهوان لأثقلها حمله ، وآدها ثقله ، ويستفزهم بتشبيهات لاذعة كما شبههم بالمعزى تتهاوى فوق الجبال عندما ينزو العتود منها :

وماثلةٌ قد أهملتها رعاتُها بمأسدةٍ جاعتْ لعشر أسودُها
فباتتْ ولا راعٍ يحامى مراحها فرائس بين الضاريات تبيدُها
بأضيعَ منكم حيثُ لاذو شهامة يذبُّ الرزايا عنكم ويذودُها

ثم تدركه الحماسة فينادى بأعلى صوته ، مبكتا حينا ، ومثيراً لحمية حينا ؛ مبيناً لبنى قومه أن حقهم المسلوب لن يسترد إلا بالقوة ، ولا بدمن الاحتكام إلى السيف لاستخلاصه من براثن مغتصبيه :

أتطمعُ هذى الناس أن تبلغَ المنى ولم تورَ فى يوم الصدام زنودُها
فهل لمعتْ فى الجو شعلةُ بارقٍ وما ارتجستْ بين الغيوم رعودُها
وأدخِنةُ النيران لولا اشتعالها لما تمَّ فى هذا الفضاء صعودُها
وإن مياه الأرض تعذبُ ماجرتْ ويفسدُها فوق الصعيد رُكودُها
ومن رام فى سُوق المعالى تجارةً فليس سوى بيض المساعى نقودُها

هذا قليل من كثير مما جادت به قريحة الرصافى فى وصف بلاده فى فترة الاستبداد ، وهو شعر كما ترى لا تعوزه الحماسة ، ولا تنقصه الشجاعة، ولعلك تجد فى هذا الشعر ، ولا سيما فى القصيدة الأولى تشابها بين الرصافى والزهاوى فيما أوردناه له سابقاً ، ولا غرو فالشاعران ينزعان عن قوس واحدة و يرميان إلى غاية واحدة ، هى أن ترد لبلادهما حريته المسلوبة ، ليتبوأ المنزلة الخليقة بتاريخه المجيد بين أمم الأرض الناهضة .

* * *

ويجىء الدستور فيبشر هذه الرعية الملتاعة ، باسترداد حريتها المسلوبة ، و بالعدل ينشر ألويته فوق ربوع البلاد ، و بالأمن من كل أسباب الخوف والفزع وليس فى حاجة إلى الإيضاح أن شاعر الحرية سيطرب لهذه النغمات يستخفه الطرب لها ، فيهلل مع الأحرار ، لانبثاق نور الأمل الذى أبى الوصال زمنا غير قصير ، والذى عشى ناظراه فى ترقبه .

لقد كان إعلان الدستور العثمانى فى شهر تموز (يولية سنه ١٩٠٨) فترى الرصافى يشيد بهذا الشهر الميمون والخير الذى يتوقعه لبلده ولسائر البلاد .

أكرمْ بتموزَ شهراً إن عاشرَه قد كان للشرق تسكر يماً وتعزيزاً
شهراً به الناسُ قد أضحتْ محرَّرة من رِقِّ من كان يقفو إثر جنكيزا

وليس يسع الرصافى الوقوف عند مامنيت به أمته من كرام الأمانى فى هذا

الشهر ، بل يذكر أن لهذا التاريخ فضلا مذكوراً فى نهضة الشعوب؟ وتحطيم الاستعباد ، فيذكر أهل باريس ويشير إلى تحطيم سجن الباستيل :

سَلْ أهلَ باريسَ عن تموزَ تلقَ لهم يوماً به كان مشهوداً لباريزا
كانتْ لهمْ فيه لما ثار ثائرهُم بسالةٌ هدّتْ الباستيل مبزوزا

ثم يعود إلى حيث بدأ من ذكرِ آمال بلده فى عهد الدستور :

وإنّ تموزَ شهرٌ قام فيه لنا على اليفاعِ لواء العزِّ مركوزا
فى شهر تموزَ صادفنا لما وعدتْ بيضُ الصَّوارم بالدستور تنجيزا
هى المساواةُ عمَّتنا فما تركت فضلا لبعضٍ على بعضٍ وتمييزا
أمستْ لنا قسمةٌ بالملك عادلة حكمًا وكانت على علاتها ضيزى
كنّا من الجور عيانًا وليس لنا من قائدين ولم نملكْ عكا كيزا
حتى نهضْنا إلى العلياء تقدُمُنا عصابة برّزتْ فى المجـــد تبريزا

ويقول فى الشورى التى كانت من آثار الحرية التى ألقاها الدستور على البلاد وحطم بها قيود الاستبداد :

دارتْ بها شمسُ عزِّ الملك حيث لها حريةُ العيش برْجٌ والنهى فلكُ
قد أصبح الأمرُ شورى بيننا فبه على الرعيَّة لا يستأثر الملكُ
هذا به نهض الإسلامُ نهضته من قبل إذ قام يستولى ويمتلكُ
يا قومُ قد حان حين تسخَرُونَ به ممَّن بكم سخروا من قبل أو ضحكوا

ثم تحدث الحركة الرجعية فى ٣١ آذار (مارس سنة ١٩٠٩) أى بعد إعلان الدستور بنحو تسعة أشهر ويحاول الرجعيون العودة إلى عهد الظلم والطغيان :

فقد هاجوا على الدستور شراً بدار الملك كى يستعبدونا

همُ الأشرارُ باسم الدين قاموا فعاثوا في المواطن مفسدينا
فما تركوا من الدستور شورَى ولا أبقوا لنعمته طنينا

وكان الرصافى إذ ذاك فى « سلانيك » عقب رحيله إليها من القسطنطينية فصادف أن نهض جيش سلانيك ، وزحف بقيادة « محمود شوكت باشا » لقمع هذه الحركة الرجعية ، فوصف الرصافى هذا الزحف :

ولما جدَّ جدُّهم استقلوا على ظهر القطار مسافرينا
فطارُوا في مراكبه سراعاً بأجنحة البخار مُرفرفينا
وظل الجيش صبحاً أو مساء تسيرُ جموعُه متتابعينا
فلم يتصرَّم الأسبوع إلا وهم بُربا فررقَ مخيِّمُونا

ثم يصف باخرة استقلها إلى القسطنطينية مع الجيش الزاحف ليرى بعينه معركة الحياة والموت ، ويصف البحر رهواً ، ويتأمل جمال الطبيعة ويستوحيها ، إلى أن يصل إلى دار الخلافة ومقر الحركة الرجعية :

أتينا دار قُسطنطينَ صبحا وقد فتحتْ لهم فتحا مبينا
وظل الجيشُ جيشُ الله يشفي بحد سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفسَ الطاغين حتى سقاهمْ من عدالته منونا
وردَّ الخائنين إلى جزاء أحلّهم المقابرَ والسجونا
وحطُّوا قصر يلدز عن سماء له فانحطَّ أسفلَ سافلينا
وأصبحَ خاشعَ البنيان يُغضى عيونًا عن تطاوُله عمينا
خلا منْ ساكنيه وحارسيه فلم ترفيه من أحدٍ قطينا

ويجد هؤلاء الأحرار القاضون على فتنة الرجعية أن الفساد والانحلال الذى

أصاب الدولة لاصلاح له ما بقي السلطان عبدالحميد متربعا في دست الحكم ، إذ هو رمز القوة الغاشمة . ولقد تلقى الأحرار درسا ، فإن إعلان الدستور لم يقو على القضاء على الرجعية والرجعيين ، فلابد من البحث عن أصل الداء واستئصاله من جذوره . وليس أصل الداء سوى السلطان عبد الحميد وإن كان هو الذى أعلن الدستور مضطرا فلا بد من خلعه فقد أصبح رمزاً للاستبداد البغيض ، فخلعوه فى ٢٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ ، وأجلسوا على العرش أخاه « محمد رشاد » ونفوا « عبد الحميد » إلى سلانيك ، وتنفس الصباح وتقوض صرح الرجعية ، و بانت معالم الحرية ، وبات العراقيون وغيرهم يرقبون إشراق شمسها على بلادهم بعد الظلام الدامس الذى غشاها ، ولكن ترى هل حظى العراق بأمله الموموق ، وهنائه المرموق ؟

لا ، فإن الأتراك قد طبعوا على الغىّ . ولا يزالون فى طغيانهم سادرين و إذا الآمال هباء ، و إذا المورد سراب !

ترى هل يسكت الرصافى وقد هلل ما شاء له التهليل ، وكبر ما وسعه التكبير ، وطالما ناجى الدستور مناجاة العاشق الذى تيمته الصبابة ، فحظى بالوصال بعد طول الإعراض ؟ وهاجم الأتراك يتخبطون فى سياستهم ، يعدون بالعدل و يظلمون ، و يتظاهرون بالإصلاح و يفسدون ، وتعود النغمة التى شنفت آذان الناس لحنا ثقيلا ، و يتولى « كامل باشا » الوزارة فى العهد الجديد فيسىء التصرف ، ويطالبه أعضاء مجلس الأمة بتبرير أعماله فيراوغ و يطلب الإمهال ، فلا يمهله الأعضاء فيضطر إلى الاستعفاء ، و ينشىء الرصافى قصيدته (بعد الدستور) وفى مطلعها يشرح كيف طرب الناس له :

سقتنا المعالى من سُلافتها صِرفا وغنّت لنا الدنيا تهنئنا عزفا

وزفت لنا الدستورَ أحرارُ جيشنا　　فأهلا بما زفّتْ وشكراً لمن زفا

وحمد الناس القوة فقد نجتهم من الطغيان وانتشلتهم من الحضيض وما كانوا ليحمدوها وهى تبطش بهم وتذيقهم الهوان :

فأصبح هذا الشعبُ للسيف شاكراً　　وقد كان قبلَ اليوم لايشكر السيفا
ولاحتْ لنا حريةُ العيش عندما　　أماطتْ لنا الأحرارُ عن وجهها السّجفا

ثم يصف كيف استقبل الناس الحرية استقبال المشوق المتيم :

نشرنا لها منا لفيفَ اشتياقنا　　ونحن أناسٌ نحسن النشر واللفا
حللنا الحُبا لمّا أتتنا كرامةً　　وقمنا على الأقدام صفا لها صفا
عقدنا لها عقدَ الولاء تعشقاً　　فكنّا لها إلفاً وكانت لنا إلفا
رفعنا لواء النصر يهفو أمامها　　ورُحنا على صَرْف الزمان لها حلفا
فلم تر غير الرفق فينا سجية　　وإن كان بعضُ القوم أبدى لها عنفا

ثم يصف ما آل إليه أمر كامل باشا من اضطراره إلى الاستعفاء ، ويوجه نداء حاراً إلى خلفه الصدر الجديد « حسين حلمى باشا » وإلى مجلس النواب أن يرعى الأمانة حق رعايتها ، ويلفت نظره إلى ناحية خاصة عنت الرصافى فيما عناه طول حياته ، ورددها فى أكثر أغاريده وتلك الناحية الخاصة إنما هى العلم وأرجاء البلاد مقفرة من هذا العماد الذى لا حياة للأمم إلا به ، ويرجع السبب فى عدم استتباب الأمن إلى إهمال هذه الناحية التى جرت البلاد وأهلها إلى الفوضى والانحلال :

ألم تر أرجاء البـــلاد محولة　　من العلم فاستمطر لها الديم الوُطفا
بلادٌ جفاها الأمنُ فهى مريضةٌ　　فحقق لها من طبِّ رأيك أن تشفى

فإنَّ لأهلِها عليــــك لذمةً ومثلك من راعَى الذمامَ ومن وفَّى

هذه أمنية الرصافى ، وطلبته من مجلس النواب ، ومن الصدر الجديد ، وهى أمنية عامة لسائر البلاد المشمولة بالسلطان التركى ، والتى تظلها الراية العثمانية .

وجدير بالرصافى فى هذا المقام أن يذكر بلده (العراق) فهو مبعث ما فيه من حرارة ، وسبب ما يعمر قلبه من وطنية ، وهو القائل :

أأمنع عينى أن تجود بدمعها على وطنى ؟ إنى إذن لبخيل !

إذن فلا بد من التخصيص بعد التعميم ، بعد أن طلب العلم للجميع ، والأمن فى سائر أرجاء المملكة ، فالعراق فى حاجة خاصة إلى العناية بتربيته والسهر على تنظيم ريه ، فقد أقفر بعد الخصب بسبب الإهمال :

ولا تنس مغبرَّ العراق وأهلَه فإن البلاء الجمَّ من حوله احتفا

فدجلةُ أمست كالدُّجيل[1] شحيحة فلا أنبتت زرعاً ، ولا أشبعت ظلفا

وإن الفراتَ العذبَ أمسى مرنَّقا به الماء يجفو ، أو به الماء قد جفا

سل الحِلّةَ الفيحاء عنه ، فإنها حكت شهداء الطَّف[2] إذ نزلوا الطفا

وهو لا ينسى مع هذا التوجيه أن ينحى باللائمة على أهل العراق الذين توانوا وكسلوا ، فضيعوا مجدهم التليد ، وتراثهم الخالد ، ورضوا الذلة والمسكنة ، بعد الدولة والصولة ، والعزة والكرامة ، وقد هوت حالهم وانحطت عقليتهم ، فأخذوا يلتمسون المجد من غير أسبابه ، ويلجون البيت من غير بابه ، فهم صرعى أوهام ، وعبيد خرافات ، لا يربطون الأسباب بالمسببات :

---

(١) الدجيل شعبة من نهر دجلة .

(٢) الحلة قرية فى طرف دجيل بغداد بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ ، والطف أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية وفيها قتل الحسين بن على رضى الله عنه .

فيا ويلَ قوم فى العراق قد انطوَوْا على الذل إذ أمستْ قلوبهمُ غُلفا
ولم يذكروا مجدا لهم كان ضاربا رواقا على هام الكواكب قد أوفى
وكانوا به شُمّ العرانين فاغتدوْا يقاسون أهوالا به تجدع الأنفا
يُرَجّون من أهل القبور رجاءهم ومن يحمل الدّبوسَ أو يضربُ الدفا

وهكذا نجد الرصافى فى جميع (تركياته) يثنى ما وجد فى الثناء قائداً إلى جلائل الأعمال، ومشجعا على تحقيق الآمال، وحافزا إلى بعث الهمم، وينقد ما وجد فى النقد توجيها، أو التمس به إصلاحاً.

وهو لا ينفكّ يكرر تنبيهه إلى حاجة البلد إلى الإصلاح، وأهم وجوهه فى نظره نشر التعليم، والعناية بمرافق البلاد التى توفر لها السعادة والرغادة.

* * *

لقد ولى الاتحاديون الأمر وأسلمت إليهم مقاليد السياسة فى تركيا، وكانت خطتهم عقب إعلان الدستور أن يؤلفوا الوزارات من غير رجالهم، ويجعلوها تابعة فى أعمالها لما يصدر مركزهم العمومى من الأوامر والنواهى، فرجال الوزارة يحتملون أعباء المسئولية أمام الأمة ومجلس نوابها، وهم يأتمرون فيما يفعلون بأمر الاتحاديين الذين وعدوا وأخلفوا الوعد. هذه وزارات ثلاث تعاقبت الحكم تحت نفوذ الاتحاديين، وزارة كامل باشا، فوزارة حلمى باشا، ثم وزارة حقى باشا، ولكنها تجرى جميعا على نهج واحد وتسلك جميعا سبيلا واحداً فى سياستها الداخلية وفى سياستها الخارجية. والرصافى الذى فتح ذراعيه للدستور وأشاد بذكر الاتحاديين حين كان يتوقع الخير على أيديهم للبلاد، ماذا يفعل وقد أخلفوا الآمال؟ استمع إليه فى قصيدة (شكوى الى الدستور [1]).

---

(١) ديوان الرصافى ٢٧٥.

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق
ملوك على كل الملوك ثلاثة لها الحكم دون الناس فى الفتق والرتق
وأقسم أنى لا أكون لغيرها مطيعاً ولو من أجلها ضربت عنقى

ثم يوضح شكاته فيقول إنه كان يرجو أن يرى بالدستور نهضة الشرق ، وأنه صادف أمة أطربتها البشرى وأخذ بلبها التفاؤل فلم يكن عنف فى استقباله كما حدث فى بعض أطراف السلطنة العثمانية :

بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد لديهم فيالله للمسعد المشقى
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به وسدوا على من حولهم منبع الرزق
كأنا لهم شاء فهم يحلبوننا وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ولم يتركوا للساكنيها سوى المذق

وإنك لتسمع فى البيتين الأخيرين لحنا جديداً صريحا ، وقد كنت ترى التلميح فيما مر بنا من الشعر فيما يخص العراق ، وقد تجد الصراحة والنقد اللاذع ولكن ذلك كان فى معرض ذكر الوطن العام ، ونعنى بالوطن العام البلاد المستظلة بلواء العثمانيين ، وكأنه تركى لا يطمع فى غير إصلاح ما أفسد الدهر من الأوضاع المختلة والنظم الفاسدة .

ولكنه هنا يشير إلى ما قاست بلاده التى صارت شاء تحلب ، وغيرها يطعم وهى تشرب الكدر ، وغيرها يسقى الصفو ، وأن أهل البلاد مرت بهم فترة الاستبداد وهم لا يدرون إن كانوا فى بلادهم أحراراً أم هم فيها أرقاء وعبيد شملتهم الذلة ولا نصيب لهم من الكفاح فى سبيل المجد الذى هم أصحابه والعلم الذى هم أربابه .

وزارة مكان وزارة ، وماذا أجدى التغيير وماذا أفاد التبديل ، مادامت السيادة

واحدة وما دام الدستور (حبراً على ورق) ؟ :

ولم نستفـــد إلا سقوط وزارة   وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق
وماذا عسى يجدى سقوط وزارة   إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق ؟

ويشير إلى الحقيقة الراهنة وهى أن الاتحاديين يحكمون من وراء ستار ، فيحتمل غيرهم تبعة الحكم وهم براء من كل عيب أو تقصير فلا ينالهم لوم ولا تصيبهم مؤاخذة :

وما الهم عندى بالذى قد ذكرته   وإن كان يشجينى ويدعو إلى الزعق
ولكن وراء الستر أيد خفية   تزحزح من شاءت عن الأمر أو تبقى

ولولا الغدر والبطش لباح بالسر الذى حرص على إخفائه :

ولولا يد شدت لسانى بنسعة   لبحت بسرٍّ كالشجا هو فى حلقى
فيأيها الدستور فاقض بما ترى   وأبرق ولكنى لا تكن خلَّب البرق
ولسنا نريد اليوم حكماً عليهم   ولكن نناديهم وندعو إلى الحق
تعالوا إلى أمر نساويه بيننا   وبينكم فى الجل منه وفى الدق

ثم يترك اللين إلى الإنذار ، والإنذار إلى الوعيد والتهديد ، لحق العرب فى الحرية والمساواة مردود إليهم لا محالة إن لم يكن عن طواعية واختيار ، فلا بد القسر والإجبار ؛ فبنو العرب يأبون الضيم ، وقد اختبروا الحرب وخبروها ، فعرفوها وألفوها ، وهم الذين لا يعرفون المجد إلا على صهوات الجياد ، وفى أيديهم بيض رقاق المضارب :

فإن يفعلوا هذا فيا مرحباً بهم   وإلا فيا سحق المعاند من سحق
سنطلبُ هذا الحق بالسيف والقنا   وشيبٍ وشبانٍ على ضُمَّرٍ بُلْق

بكل ابن حرب كلما شدّ هزّها   بعزم من السيف المهند مشتق
تراه إذا ماعبس الموت وجهه   بوجه يلاقى الموت مبتسم طلق

وما كان الرصافى فى حاجة إلى هذا الوعيد وذاك التهديد لو أن الاتحاديين صدقوا الوعد فى إفاضة الخير ، وإرسال شعاع النور على البلاد العربية .

ولكن هؤلاء الاتحاديين الذين سموا أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقى) أخلفوا الظنون ، ودعوا إلى فكرة طائشة ومبدأ فاسد ، استمد فساده من منافاته لطبائع الأشياء وما جرت به العادة ، إذ اتخذوا مبدأ (التوسع الطورانى) شعارا لهم ، واستلزم هذا المبدأ المناداة بتتريك الشعوب غير التركية وأكثرهم عدداً العرب والأكراد ، ومعنى ذلك القضاء المبرم على هذه الشعوب وسلبها أخص خصائصها ، فلا حكم لهذه البلاد بأيدى أبنائها ، ولا دخل لها فى رياسة أو سياسة ، ومن اليسير حينئذ أن تدع هذه الأمم لغتها الأصلية فتصبح العربية أثراً بعد عين .

وهكذا صرح الشر وأضحى غير مكنون ، وتكشفت النفوس عن حقيقة ما تنطوى عليه من العمل على إذلال العرب ، والقضاء عليهم قضاء لا نهوض بعده لهم .

ويشتد النزاع لا بين العرب والأتراك فحسب ، بل بين الأتراك أنفسهم ولا نزاع بين القوم ولا اختلاف على شىء سوى الاستئثار بالحكم لما يجر من مغانم وجاه وثراء ، لا لمبادىء الحرية يتنافسون على إقامتها فى خدمة الدستور والحق والعدالة .

وينتهى الخلاف مؤقتاً بسقوط وزارة الاتحاديين وهم الطرف الأول للنزاع . ويتولى الوزارة خصومهم (الائتلافيون) ورئيسهم الغازى (أحمد مختار باشا) فيسجل الرصافى فى قصيدته (الوطن والأحزاب[1]) هذا التطور والتبدل فى الأشخاص ، لا فى أساليب الحكم ، قال فى مستهلها :

---

(١) ديوان الرصافى ٣٨٩ .

متى نرجو لغمّتنا انكشافاً وقد أمسى الشقاق لنا مطافا
ملأنا الجوّ بالجدل اصطخاباً وكنا قبــــل نملؤهُ هُتافا

ثم يذكر ما أصاب الناس من الاضطراب والبلبلة ، وسريان الشائعات بينهم ، حتى غم الأمر عليهم ، والتبس عليهم الاهتداء إلى وجه الحق والصواب فأصبح اللوم موجهاً إلى الحكومة ، وأصبحت تتهم بالعسف ولا فرق بين الراعى والرعية فكلهم أشد ظلماً واعتسافا .

وليس البكاء على الوطن من فرط حب له ، فلم يكن إلا مخادعة للوصول إلى الأمل المنشود وهو التمتع بالحكم واقتطاف ثمراته اللذيذة :

تباكينا على الوطن اختداعا فأنبتنا بأدمعنـــا الخلافا
أجاعتنا المطامع فاختلفنا لنمــلأ فى موائدنا الصِّحافا

والخلاف فى حقيقته خلاف على المطامع ولكنه يغطى بغشاء من حب الوطن ، تمويهاً وستراً للمطامع :

ولكنا من الوطن المفـدى نُخيط على مطامعنا غلافا

ويتنبأ الرصافى بما سيفضى إليه الأمر من استفحال الخطب ، ونشوب الثورات ، وشيوع الفتن فى أطراف البلاد ، ويتساءل فى تشكك عن اقتدار اللاحق على ما عجز عنه السابق :

أرى أنف الحوادث مشمخراً غدا يتشمم الحدث الجُرافا
ويوشك أن يمزق منخريه عطاسٌ يمــلأ الدنيا رُعافا
فهل لوزارة (الغازى) اقتدار تردّ به الهزاهز والثقافا ؟[1]

ثم يذكر الحقيقة الواقعة ، ولو ساء ذكرها القوم ؛ وهى أن الناس فى كل

(١) الهزاهز : الفتن والحروب التى تهز الناس ، والثقاف المغاورة بالسيوف على الرءوس .

الأقطار معرّضون للفرقة والخلاف فى الرأى ، ولكن الخلاف بين الأتراك هو قذف بالتهم ورمى بالقول ؛ لا انتصار للمبادىء :

وما اختلفوا لمصلحة ولكن ليأكل أقوياؤهم الضعافا
هو الدينار منية كل راج وبغية كل من دأب احترافا
نحج لأجله بيت المخازى ونكثر حول كعبته الطوافا

هذا هو أمل القوم ، جمع للمال واحتجان للثروة ، والتماس للغنى من أفواه الذين لا يكادون يجدون القوت ، وإن تظاهر القوم بغير ذلك ، فلإخفاء هذه الغاية وسترها عن عيون الناس ، وهكذا يخادعون الأوطان ويخادعون الناس وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فقد تنبهت الأوطان ، واستيقظ الغافلون ، فما تفيد المخادعة وما يجدى الستر والتمويه ، وأخيراً وليس آخرا هم فى الطمع سواء :

لئن خطّأتُ من راموا (اتحادا) فما صوّبتُ من راموا (ائتلافا)
فإن مشاربَ العدوان منها كلا الحزبين يرتشفُ ارتشافا
وهم كأولى الديانة كلُّ حزب يراه أحقَّ بالحق اتصافا
وماذا نفعُ أقوالٍ سمانٍ إذا أفعالُهم كانتْ عجافا ؟

وكان أن وقع ما توقعه الرصافى من نشوب الثورات ، وانتشار الفتن ، فقد أخذت حكومات البلقان توقد الفتن السياسية فى مقدونيا ، وبلاد الألبان ، وخرج « السلطان محمد رشاد » الخليفة الجديد إلى البلاد المذكورة فى زيارة كانت كفيلة بإخماد نار الفتنة التى نشبت فيها ؛ فامتدحه الرصافى بقصيدةٍ عنوانها (عند سياحة السلطان)[1] وقد أعجب بها السلطان ، فأجازه بساعة ذهبية ذات

---

(١) ديوان الرصافى ٣٩١ .

سلسلة ذهبية أيضاً . وفى هذه القصيدة يذكر ما قامت به حكومات البلقان ، وأن الحكومة كانت غير غافلة عما أعدوه من أسباب الفتنة ، وأنها مستوفزة لهم ، آخذة حذرها منهم ، وكانت زيارة واحدة للخليفة كفيلة بالقضاء المبرم على أسباب الشغب وعناصر الفوضى ، وانتقل من ذلك إلى سوق المديح والإطراء فقال :

يأيها الملك السامى بحكمته   والمبدلُ الناس من ذل بإعزاز
قد عىّ فى وصف ما أوتيت من حكم   كلا كلامىّ إطنابى وإيجازى
غزوت غزو سلام دون غايته   غزوُ الحروب فأنت الفاتح الغازى

وأنه استطاع بحكمته وقدر بحنكته أن يفعل بعفوه ما لا تستطيع أن تفعل الجيوش الجرارة ، ولو شاء شهر السيوف وحمل الرماح لما أعجزه ذلك :

ملكتَ بالعفو والإحسان أفئدةً   كانتْ إلى السيف فيها بعضُ أعواز
وأنت لو شئتَ إرهابا لجئتهم   بصارم لنواصى القوم جزّاز(١)
لكنما جئتَهم بالعفو تأخذُهم   والعفوُ أفضلُ ما يجزى به الجازى
فاغمدْ سيوفك إن العفوَ منصلت   واهنأ بشعبٍ محب غير منحاز
بالترك ، بالروم ، بالألبانِ قاطبةً   بالأرمنيين ، بالبلغار ، باللاز

ويشير عليه فى براعة ظاهرة أنه إن أراد الاستنصار فلا نصير له غير العرب الأوفياء ، الذين يسمون على سائر رعاياه بالوفاء والإخلاص ، ويفضلونهم بالنجدة والبسالة ، ويسأله أن يروض بهم كل صعب ، ويقتحم بهم كل هول ، وهم أهل الصدور ، وهم النسور وغيرهم البغاث :

أما بنو العرْب فالإخلاصُ يرفعهمْ   إلى مقام على الأقوام ممتاز

---

(١) جزاز من الجز بمعنى القطع

إذ هُمْ عمادٌ لعرش أنتَ ماسكه ... فاضربْ بُغاثَ العدى منهم بأبواز[١]

ورُضْ بهم كلَّ صعب إنهم فئة ... تبغى الصدورَ ولا ترضى بأعجاز

وهمْ رِكازُ العلا لو زرتَ أرضهمُ ... يوماً لأركزتَ فيها أىّ إركاز

إن يعجز الأمرُ عن شىء فهم سندٌ ... لو كنتَ مستندَه منهم بعكاز

وإن خشيتَ على البلدان جنتها ... فنُطْ بها من نُهاهم بعض أحراز[٢]

وسيفُ ملكك إن رثّتْ حمائله ... أغنوكَ فى رأبها عن كلِّ خراز[٣]

ثم يتقدم اليه أن يتفضل بزيارة هذه البلاد المخلصة الوفية ليرى بعينه ماطبع عليه القوم من صدق الولاء ، وليرى كذلك ما انتهت إليه حال أهلها من الجهل والفاقة نتيجة الإهمال ، وهو يتوسل إليه أن يستجيب لهذه الدعوة ولو كانت الزيارة سريعة خاطفة :

زُرْ أيها الملكُ المحبوبُ موطنهم ... ولو زيارةَ عجلان ومجتاز

وانظرْ إليه بعين منك شافية ... مانابه اليومَ من جهل وإعواز

أشِمْ وأعرِقْ ورُحْ من بعدُ محتجزاً ... وأيْمِنَنَّ بعزم غير هزهاز[٤]

ماذا على ملكِ الدستور من وطنٍ ... لوجال منه بأطرافٍ وأجواز ؟

* * *

ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى شىء جدير بالإشارة ، ذلك أن هذه التطورات التى اعتورت الحكم فى تركيا لم يسهم العراق فيها بنصيب ، فهو يقف

---

(١) الأبواز جمع الباز .

(٢) الأحراز جمع حرز وهو العوذة التى تكتب وتعلق على الإنسان من العين والفزع والجنون .

(٣) رأبها إصلاحها والخراز فعال من الخرز وهو خياطة الجلود .

(٤) غير هزهاز أى غير مضطرب .

منها جميعا موقف المتفرج الذى لايعنيه الأمر فى قليل ولا كثير ، وكأنه رضى بالتبعية الأبدية لسلاطين آل عثمان .

حقيقة إن حركات قام بها بعض الأحرار العراقيين بين حين وحين ، ولكن أصدق توصف به هذه الحركات ، أنها كانت حركات فردية لم يشترك فيها الشعب العراقى ، أو بعبارة أخرى لم تكن تصدر عن الرأى العام ، والأمل قليل فى جدوى حركات من هذا اللون .

وإنا لنتساءل أين كان الشعب العراقى الذى عرف بالبسالة فى تلك الحقبة الطويلة التى كانت البلاد تئن فيها أنينا متواصلا تحت نير الحكم العثمانى الغاشم ؟ وما حقيقة موقفه إزاء هذه التطورات ؟ وما بالنا لانسمع إلا أصواتا خافتة ، إن جهرت فبطلب الإصلاح ! وأبعد الأشياء عن جهرها المناداة بالحرية والاستقلال ؟ كأن السنين بتطاولها قد أماتت الشعور الوطنى ، وقضت على النخوة العربية المتأصلة فى نفوس العراقيين .

ومن الممكن أن يقال إن العقيدة التى اعتورها الوهن هى العلة الكامنة وراء هذا الصمت العميق ، الذى أنسى القوم عظمتهم ومجدهم إبان حكم العباسيين ، فخليفة من بنى عثمان مكان خليفة من بنى العباس ، وحاضرة للخلافة فى بلاد الروم مكان حاضرتها فى بلاد الرافدين ، والدين هو الإسلام فى العهدين . وفى هذه المظاهر والقشور الكفاية والغناء لمن أراد الكفاية والغناء ، وكفى الله المؤمنين القتال !

وكان حريا بالعراق وغيره من البلاد التى امتحنت بالحكم العثمانى أن تتحين هذه الفرص المتاحة لتحقيق ماتصبو إليه من أحلام الحرية والاستقلال ، ولو حاولت هذه البلاد اقتناص الفرصة ، لنجحت محاولتها وتحققت أحلامها .

ولكن أطراف المملكة الغربية وأعنى بذلك دول البلقان ، التى لم تكن الحال فيها أسوأ منها فى بلاد العروبة كانت كالمرجل فى غليانه ، فهى فى ثورة دائمة ، وفى فتن مشتعلة ، لا يخبو أوارها ، وقد تستطيع الدولة أن ترسل جيشاً تجهزبه على العصاة والمتمردين ، وتسكن الثورة ، وتقضى على الفتنة ، ولكن ذلك كله إنما هو علاج مؤقت لايستطيع أن يستأصل الداء من جذوره ، وليس الداء سوى الوطنية المتأججة بين حنايا الضلوع ، وفى قرارة الأفئدة .

حتى أولئك الشعراء لم يرسلوها كله صريحة تصم الآذان ، ولم يحركوا فى أمتهم ساكناً ، وإن حاولوا فأين آثارهم ، وأين الوثبة المضرية ؟

وذلك موقف عجيب لا يعلل إلا بالعلة التى أوجزناها سابقاً . حقيقة كان هنالك نقدات للدولة وسياستها أرسلها الأحرار من أبناء الأمة ولاسيما الشاوى والشاعرين الفحلين جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى ، ولكن هذه الثورات والأنفاس والنفثات لم تكن ترمى بحال إلى الانفصال عن جسم الدولة العثمانية فى هرمها وفى شيخوختها .

هذا الدستور يعلن فى قلب الخلافة فتهيج الخواطر ، وتثور النفوس فى البلاد الغربية التى يخفق فوقها علم العثمانيين وهو هياج الخلاص ، وثورة النجاة المرتقبة فى هذه الأطراف ، أما الأطراف الشرقية فلا هياج ولا ثورة ، وإنما الرضا والاطمئنان والاستبشار فهل أفاد هذا الهدوء ؟ وهل أجدت هذه الوداعة ؟

لقد سجل الرصافى هذا الهدوء وهذه الوداعة فى كثير من قصائده فى ذلك العهد . وفى قصيدته (بعد الدستور [1]) بيت يتيم يشير إلى الحقيقة السابقة بعد وصف البشرى والتفاؤل بالدستور ونعته بأجل النعوت . قال :

---

(١) ديوان الرصافى ١٣٢ .

فلم تر الرفق فينا سجية وإن كان بعض القوم أبدى لهاعنفا

وكنا نرغب إلى الرصافى لوأسهب بعض الإسهاب ، وأفاض بعض الإفاضة لنتبين منه ما يريد صريحاً لا لبس فيه ولا محاولة إخفاء ، وهو فى معرض الاستيعاب والتقصى .

وثمة بيت آخر من قصيدة عنوانها (شكوى إلى الدستور [١]) يذكر هذا المعنى أيضا فيقول مخاطبا الدستور :

فصادفتَ منا أمة قد تعشقتْ لقاءك حتى جاوزتْ مبلغ العشق

ولم نبد عنفا حين جئتَ وإنما هتفنا جميعا بالوفاق وبالرفق

وفى هذه الإشارات مع ماسبق من ثنائه على خلفاء بنى عثمان ونقد سياستهم ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الدعوة التى أرسلها الرصافى فى شعره كانت دعوة إصلاح شامل ، داخل حدود تركيا وخارجها دون تفكير فى الانفصال عن جسم الدولة العثمانية أو الدعوة إلى استقلال العراق عن التبعية لها [٢]

---

(١) ديوان الرصافى ٣٧٥ .

(٢) اطلع على هذا الفصل معالى السيد محمد رضا الشبيبى ، وعلق عليه هذا التعليق النفيس وقد آثرنا إثباته كاملا ، لما يحوى من تحقيق تاريخى ، إذ كان من أهم غاياتنا التعريف بالبيئة التى عاش فيها الرصافى ، تعريفاً شاملا جهد الطاقة . كتب حفظه الله .

(يقظة قومية فى العراق فى عهد الحكم التركى)

تشير كثير من الأحداث والاضطرابات التى وقعت فى بغداد والحلة وكربلاء والنجف وغيرها من جهات العراق شرقاً وغرباً ، وذلك فى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة ، وفى عصور بعض المماليك ، وفى طليعتهم داود باشا وهى حوادث واضطرابات معروفة فى تاريخ العراق ، لا يجهلها العراقيون ولا الأتراك ، تشير هذه الأحداث والاضطرابات إلى وجود ضرب من الوعى القومى فى العراق ، فهى ترمى غالباً إلى التخلص من الإدارة المركزية أو من الحكم التركى كيفما كان .

فقد قامت فى جنوب العراق وفى البصرة قاعدة الجنوب ، وذلك فى صدر القرن العشرين حركة قومية خطيرة ، معروفة فى تاريخ العراق الحديث ، اتجه أقطابها والقائمون بها إلى فصل العراق أو اقتطاع البصرة وما يتبعها على الأقل عن إدارة الدولة العثمانية ، ومن ثم تكوين دولة عربية حرة فى هذا الجزء من البلاد على أن ترتبط هذه الدولة برابطة الحلف مع الدول والإمارات =

لقد أتيح للرصافي أن يسافر إلى تركيا غير مرة وأن يقيم في ربوعها ، فقد سافر إليها لتلبية دعوة صاحب جريدة (إقدام) التركية ليشرف على إصدار أخت لها عربية ، وقد عرفت أن صاحب الجريدة عدل عن فكرته ، إذ لم يكن فيها مخلصا أو صادق الرغبة في محاولة التقريب بين الأمة العربية المحكومة والدولة العثمانية الحاكمة ، فاضطر الرصافي إلى ترك العاصمة والسفر إلى سلانيك للنزهة ، ثم صحب حملة الأحرار للقضاء على الحركة الرجعية الشهيرة بحركة ٣١ مارت . وقد سافر إليها للمرة الثانية بعد برقية تنبيء بتعيينه مدرسا للغة العربية في المدرسة الملكية العالية وللتحرير في جريدة « سبيل الرشاد » العربية ، وقد عهد إليه في هذه الأثناء ، بالإضافة إلى هذين العملين الخطيرين تدريس الآداب العربية في مدرسة الواعظين التابعة لوزارة الأوقاف ثم انتخابه سنة ١٩١٢ مبعوثا عن لواء المنتفق

= العربية المتاخمة للعراق من الجنوب براً وبحراً ، وغرباً ، وشرقاً ، ومن ذلك إمارة (الكويت) وإمارة (المحمرة) وإمارة (السعود) في شبه الجزيرة ، وإمارة (البحرين) وغيرها من الإمارات الواقعة على الخليج الفارسي . وكان السيد (طالب النقيب) السياسي العربي المشهور عميد هذه الحركة القومية ، وقطبها الذي تدور عليه .

كان للسيد طالب النقيب المذكور جهود فذة في هذا السبيل ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه سياسي لا يجارى في جرأته ، أعلن خصومته للأتراك ، وأذاع مقاصده ، وهي التخلص من سيطرتهم وتحرير كل ما يمكن تحريره من بلاد العرب لإنشاء دولة عربية فيها . على أن تسعى هذه الدولة إلى تعزيز كيان العرب القومي . وقد انقسمت جهود السيد طالب قسمين فقد كان يعمل في جنوب العراق على تنسيق الأعمال ، وتوحيد الجهود ، وإثارة عرب الجنوب في الحواضر وفي الأرياف على طغيان الأتراك ، وخصوصاً في الأقاليم القريبة من البصرة ، ومنها المنتفق والعمارة والكوت والديوانية والحلة وما إلى ذلك .

كان للسيد طالب أيضاً اتصال وثيق بكثير من ضباط العرب المستخدمين في الجيش التركي ، كما اتصل بكثير من زعماء القبائل المعروفين في دجلة والفرات وأخذ منهم عهوداً على معاضدته وشد أزره ، نعرف من بينهم مثلا صديقنا المرحوم الشيخ (مبدر آل فرعون) شيخ مشايخ قبيلة (الفتلة) وغير واحد من زعماء قبائل العمارة والكوت ، ووجهاء المدن هناك ، وقد قوبلت دعوته بالترحاب والحماس في هذه الأقاليم .

وقد طارد الأتراك بعض أنصار هذه الدعوة ووضعوا خطة للانتقام منهم حيثما وجدوا ، ونحن نعرف أسرة كريمة في الكوت قضى الأتراك على أفرادها جميعاً ، بعد استيلائهم على البلدة المذكورة في الحرب العامة ، ولا سبب للانتقام منها إلا جهودها السابقة في سبيل =

فى المجلس النيابى العثمانى ؛ وظل بتركيا حتى انتهت الحرب العظمى ، وقد اتصل الرصافى مدة إقامته بأحرار الأتراك وأبطال الانقلاب ؛ وكان يرمى إلى خير بلاده من وراء هذا الاتصال ، فيبثهم آلام أمته وآمالها ، ويتحدث إليهم عما تعانية من جور وانحطاط ؛ ولكننا لا نعرف شيئا عن مواقفة البرلمانية فى مجلس المبعوثان ؛ ولم يصل إلينا حديث عن هذه الفترة من حياة الرصافى التى تعد أزهر حياته من حيث الجاه والأخذ بأسباب التمدن .

غير أنه مما لاشك فيه أن الشاعر أخذت لبه المدنية البراقة التى وجدها فى (إسطنبول) و (سلانيك) وغيرهما ؛ وما كان ليجد شيئا من ذلك فى بغداد ولعل ما رأى أكسبه شيئا من الهدوء فى تركيا وهو رجل الثورة ، فقد حظى بصداقة كثير من ذوى الجاه والنفوذ الذين أعجبوا به لحسن عشرته وصراحته ،

= القضية القومية .

وقد أنشأ السيد طالب فى البصرة إذ ذاك حزبا عربيا دعاه (حزب الاصلاح) وصدرت عدة جرائد عربية كانت كلها بمثابة لسان حال الحزب المذكور ، وهى تتنكر بجرأة نادرة لسياسة الأتراك العنصرية ، ومنها جريدة تدعى (جريدة الدستور) وفى وسعنا أن نقول : إنه قد وضعت الأسس لبعث حركة أدبية وصحفية فى البصرة ، وقد استطاع السيد طالب أن يجتذب إلى عاصمة الجنوب كثيراً من الشعراء والأدباء ، الذين كانوا يشيدون فى قصائدهم وينوهون بهذه الحركة القومية ، وينشرون الدعوة إلى عضدها وتأييدها ، وكان فى طليعتهم (السيد عبد المطلب) الشاعر الحلى المشهور ، فقد نظم قصائد عديدة مشهورة فى هذا الشأن ، جلبت عليه نقمة رجال الدولة العثمانية ، فكانوا يضيقونه ويلاحقونه أينما سار فى الأقاليم الجنوبية ، وخصوصاً فى الحلة وما إليها مدة غير قصيرة .

هذا من جهة ، وكانت للسيد (طالب النقيب) من جهة ثانية صلة وثيقة بأمراء الجزيرة المستقلين استقلالا تاماً أو شبيهاً بذلك مثل أمراء (الصباح) فى الكويت ، وأمراء (السعود) فى الرياض ، وأمير المحمرة (الشيخ خزعل) وغير هؤلاء من أمراء العرب فى الخليج الفارسى ، وقد شرع فى عقد حلف عربى بينه وبين بعض هؤلاء الأمراء ، ومن مرامى هذا الحلف تحرير العراق ، وجزيرة العرب كلها من حكم الأتراك . هذه حقائق تاريخية تتضح منها مساعى أبناء العراق وجهودهم القومية . ومع أننا لا ننكر فى هذا الباب فضل الشعراء الذين أشار إليهم المؤلف فى بعث الشعور القومى فى العراق فى مستهل القرن العشرين إلا أن عدهم على سبيل الحصر قول لا يخلو من تجاوز .

(محمد رضا الشبيبى)

وقد حداهم هذا الإعجاب إلى أن يهيئوا له من أسباب الأنس والمسرة ما يستطيعون .

ولاشك أيضا أن إقامته فى تركيا واتصاله بالأتراك عن كثب قد أفاد الشاعر فائدة جلى . فقد درس البلاد وأهلها ، وألم بأخلاقهم ، ووقف على ميولهم ، وعرف بنفسه حقيقة شعورهم نحو العرب ، وما يرمون إليه فى سياسة العرب ومعاملتهم ، و يبيتون لهم من الأمر . فكان من أثر ذلك ما مر من أمثلة لنظمه السياسي وشعره الحماسى .

وأملنا بعد هذه الإفاضة أن نكون قد انتقلنا بك أيها القارىء الكريم مع الشاعر فصحبته خطوة خطوة ، وسرت معه فى تنقلاته ، وعرفت خلجات فكره ، وحقيقة شعوره ، و يقيننا أننا قدمنا مافيه الكفاية فى شرح اتجاهات الرصافى وموقفه من الأتراك فى النصف الأول من حياته .

* * *

انتهت الحرب العامة الأولى وقضى القضاء الأخير على هذه الدولة المترامية الأطراف ، ففقدت ممتلكاتها وتقلصت أطرافها ، واقتطعت حواشيها . وقبعت فى هذا الجزء المحدود الذى لا تزال تشغله حتى الآن . وزال كل أثر للعثمانيين وقضى مصطفى كمال (أتاتورك) على معالم الخلافة ، وصيّرها شعبية جمهورية ، بعد الوراثة الاستبدادية .

ولقد كان القضاء على الدولة والتخلص من سيادتها من أثر عاملين : أحدهما خارجى وذلك اجتماع انكلترا وحليفاتها التى ظلت تحارب العثمانيين بشتى الوسائل ، وتثير عليهم الحفائظ ، وتهيج عليهم شعور البلدان المحكومة لهم حقداً وحسدا ؛ وواتتها الفرصة التى كانت تتحينها إذ انضمت تركيا إلى ألمانيا فى تلك الحرب ، فسفرت العداوة ، بعد أن كانت تجرى فى طى الخفاء دسائس ومؤامرات.

والعامل الثانى داخلى أو عربى ، وهى الثورة العربية ، التى شهرها العرب فى وجه الترك بقيادة الملك حسين بن على ملك العرب .

ولقد اتحد العاملان ، وكل عامل يساعد الآخر و يشد أزره و يعاضده ، ونجح الاتحاد ، وزال الظل العثمانى عن البلاد العربية إلى غير رجعة . وكان أن سقطت بغداد فى يد الإنـكليز مدّعين أنهم فعلوا ذلك لتخليص البلاد مما تعانى من استبداد الأتراك العثمانيين ؛ ولا يعدم أولئك المستعمرون حجة يتذرعون بها فى سبيل بسط سيادتهم على البلاد التى يفتحونها ، وهو على كل حال منطق الاستعمار العجيب الذى يقضى على استبداد ليحل محله استبداداً ؛ وهو فى حقيقته صراع الأقوياء على التحكم فى رقاب الضعفاء .

وهنا يظهر معروف على حقيقته ، ويبدو شعوره نحو العثمانيين واضحا جليا ، وهو شعور الحزن والأسى على زوال هذه السيادة ، وحلول غيرها مكانها ، ولقد عبر الشاعر فى اثنين وثلاثين بيتا عما يخالجه من الأسى والأسف لما انتهى إليه أمر بغداد فى قصيدة طويلة عنوانها (نواح دجلة) قال فى مستهلها :

هى عينى ودمعُها نضّاح كلُّ حزنٍ لمائها يمتاحُ
كيف لاأذرفُ الدموع وعزّى بيد الذلّ هالك مجتاحُ ؟
قد رَمْتنى يدُ الزمان بخطبٍ جللٍ ما لليلِه إصباحُ

ولقد كان سقوط بغداد فى نظر الرصافى قاضياً على الشرف الوضاح الذى أسبغه العثمانيون على وادى الرافدين ؛ فهويتساءل فى لذعة وألم عن حماة الوادى ، كيف أمسوا لا يذودون الضيم عنه ؟ وكيف أصبحت البلاد جيشاً بلا قائد ؟ وسفينة تجرى بغير شراع ولا ملاح ؟ ويصور نهر دجلة نائحا حزينا منتحبا يقول :

ليس ذا الموجُ فىّ موجاً ولكنْ هو منّى تنهدٌ وصياحُ

إن وَجدى هو الجحيمُ ولولا أدمعى أحرقتنىَ الأتراحُ
لو دَرَى منبعى بما أنا فيه من أسى جفَّ ماؤه الضحضاحُ
علَّهُ قد دَرَى بذاك فهذا هو باكٍ ودمعه سفاحُ

ومنها ما يدل على أن العثمانيين لاذوا بالفرار ، وتركوا وراءهم أرض العراق دون دفاع ، وذلك ما يعزّ على العراق وساكنيه ، فإن هذا الفرار الفجائى والبعاد الذى مابعده من تلاق يحز فى نفوس العراقيين ، ويعرض أرواحهم للتلف ، ويبيح للأعداء استباحة مايحرصون عليه من العزة والكرامة :

أين أهلُ الحفاظ هل تركونى نهبةً فى يد العدوّ وراحُوا
برحُوا وادىَ السلام مجالا أفَجِدٌّ براحُهم أم مزاحُ
مالهم يبعدون عنّى انتزاحا وعزيزٌ منهم علىَّ انتزاحُ ؟
أو ما يعلمونَ أنَّ حريمى للمُعادينَ بعدهم مستباحُ ؟
فلئن يَبعدوا فإنَّ فؤادى لإليهم بودّه طماحُ
تركونى من الفراق أقاسى ألما ما تُطيقُه الأرواحُ
لو رأونى سبياً بأيدى الأعادى لبكوا مثلما بكيتُ وناحُوا
لا مسائى بعدَ البعاد مساء يومَ بانوا ولا الصباحُ صباحُ

ثم يمنى الشاعر نفسه أو يمنى العراقيون أنفسهم ، بأن الأتراك لم يغمض لهم جفن منذ غادروا العراق مضطرين ، وأنهم لا بد سيعيدون الكرة لاستخلاصه لأنفسهم ، وإنقاذه من أيدى أعدائهم :

أنا أدرى بأنهم بعدَ هجرى لم يذوقوا غمضاً ولم يرتاحُوا
بل همُ اليومَ عازمون على الزحـ ـف بجيش به تغصّ البطاحُ

إن تأنوْا فربضةُ الليث تأتى بعدها وثبةٌ له وكفاحُ

هذه عواطف الرصافى ، وهذا شعوره الفياض نحو الترك ، وقد كان حقده على الحركة الجديدة والانقلاب الجديد ورجاله ، هو الذى دعاه إلى الإشادة بذكر الذين أذلوا العراق ، واستنزفوا ثروته ، وأعملوا فيه الجور والفساد ، وعملوا على القضاء على مافيه من آثار أمجاد العروبة .

وكيف يحن الرصافى إليهم ؟ وكيف يصف عهدهم بأنه زان وادى الرافدين بما أسبغ عليه من الحب والوداد ، وأنه قد توج بتاج من فخر بنى عثمان ، وأنه اتخذ هلالهم رمزاً له ووشاحا ؟

ولا يسع الرصافى على الرغم من أنينه وحنينه إلا أن يعترف بالحقيقة ، وبأن أولئك الأتراك قد أدموا فؤاده ، وما كان ليجحد ذلك ، وهو الذى سجل فى هذه القصيدة نفسها ماقاسى العراق من ويلات الأتراك ونكباتهم :

أنا باقٍ على الوفاء وإنْ كا نتْ بقلبى ممّن أحبُّ جراحُ

فإليهمْ ومنهمُ اليومَ أشكو بلّغيهمْ شكايتى يارياحُ

وما كان الرصافى فى كل أولئك بدعاً من شعراء هذا العصر ، فى أوائل هذا القرن على وجه التخصيص الذين مجّدوا العثمانيين ؛ وبكوا دولتهم بالغالى من أشعارهم ، مدفوعين إلى ذلك بعاطفتهم الدينية من جهة ، وفرقهم على بلادهم من جشع دول الغرب المستعمرة التى سعت إلى هدم دولة الترك ، ليخلولها جو التحكم والاحتلال من جهة أخرى ، ولأكثر شعراء الشرق وفى طليعتهم شوقى وحافظ إبراهيم ، كثير من القصائد العثمانية التى تفيض ولاء وانتصاراً للترك ، ولوحدة الهلال ، مماليس هذا موضع تفصيله .

٢

فى عهد الانتداب - فى عهد الحكم الوطنى - فى عهد الاستقلال

يامَوْطناً لستُ منه فى مُوادعةٍ ... عِشْ بعد مَوتى عيشَ الوادِع الهانى
فكلُّ من فيكَ تَغنيني سعادتُهمْ ... وكلُّ أبنائِك الأعداء إِخوانِي
إنْ سرّكَ الدهرُ يوماً سرّنى ، وإذا ... آذاكَ بالمزعجاتِ الدّهرُ آذانِي

* * *

ولفظ هذا العهد الطويل المظلم آخر أنفاسه ، وطويت آخر صفحاته ؛ وجاء الإنجليز يمنون البلاد وأهلها بالحياة والعلم والغنى والصحة ؛ وهى وعود الاستعمار التى يعلل بها أولئك الذين يسلبهم الحرية ، وهى أعز ما يحرص عليه الأحياء .

ومن الطبيعى أن يستقبل الرصافى هذا العهد بالسخط والتشاؤم ، وأن يظل على تبرّمه من الأوضاع التى آل إليها أمر العراق ؛ وعلة السخط والتشاؤم فى هذا العهد ، عهد الانتداب ، عند الرصافى ترجع إلى عاملين :

(١) تلك الصلة الوثيقة التى ربطت الرصافى بالترك ؛ وهى التى جعلته يأسى على هزيمتهم فى العراق ويمنّ نفسه بإجماع أمرهم ، وعودتهم لاستخلاصه من أيدى الإنجيز ، وتلك الأمانى تجمعها قصيدته التى سماها « نواح دجلة » التى سبقت الإشارة إلى ما تضمنته من العواطف والآمال .

(٢) أن شاعراً من شعراء الحرية والوطنية كالرصافى ، إن كان يتطلع إلى انقلاب أو إلى تغيير فى الأوضاع ، فإن هذا الانقلاب ينبغى أن يهدف إلى استبدال الحرية بالعبودية ، والاستقلال بالاحتلال ، لا أن تنجو البلاد من احتلال ، لتقطع بين براثن احتلال أشر منه ؛ وعدو غريب لاتصله به وشيجة

من وشائج العقيدة أو التاريخ . وقد عرف الرصافىّ حقيقة شعور الغرب نحو بنى الشرق ، ويعرف تعصب الأوربيين في الحملة عليهم ، وفى ثلبهم فضائلهم وأمجادهم ، ومحاولتهم رميهم بكل نقيصة :

أيُّها المسْلمون لستم من الغر ... بِ بحالٍ تستوجبُونَ احتراما
إنما أنتمُ لدى الغرب قومٌ ... خُلِقُوا عن سوى الشرور نياما
فإذا ما وَسِعتمُ الناسَ حلماً ... عدّه الغربُ شِرّةً وعراما
وإذا ما ملأتم الأرضَ عدلا ... عُدَّ جوراً ، أو مفخراً عُدَّ ذاما
وإذا ما فعلتم الخيرَ يوماً ... حسبُوه جنــــايةً وأثاما
وإذا زَلّةٌ لــكم دفن الده ... رُ أملوًّا بنبشها الأقلاما
وإذا ما افترى عليكمْ عدوٌّ ... أيّدوهُ ، وصدّقوا الأوهاما
وإذا ماجنى عليكم أناسٌ ... سكتوا عنهمُ ، ومرُّوا كراما

ويستدل الرصافى على هذا الشعور العدائىّ نحو المسلمين ؛ بما كان من « ولسون » صاحب المبادىء المشهورة ، مبادىء الحرية وحق تقرير المصير :

قال : حرّيةُ الأنامِ هى الغا ... يةُ لى فى الوغَى فغرّ الأناما
فاشرأبّ الورى إليه وظنّوا ... أنّهم سوفَ يبلغونَ المراما
شامَ منه الورى بوارقَ غيمٍ ... من وراء البحر المحيطِ ترامَى
فتصـــدّى لنيله كلُّ قومٍ ... قد شكوْا غُلّةً بهمْ وأواما

ولــكن على الرغم من هذه المبادىء الحرة التى قيل إنها أمل الإنسانية ، والسبيل إلى تحريرها من العبودية ؛ فرّق أولئك الدعاة بين الغرب والشرق فى المعاملة ، فمبادىء المساواة والعدل والحرية والإخاء حقوق ، ولــكن للغربيين دون الشرقيين :

فهل الحقُّ عنده فى سوى الغر ب حقيرٌ أقلّ من أن يحامَى ؟
أوهل الشرق وحدَه فى الأقالـ يم مباحٌ أن يُستبى ويُضاما ؟
أوهل القومُ عاهدوا الله فى أن لا يراعو للسلمين ذماما ؟

ولا تزال الأحداث تؤيدّ رأى الرصافى ، وتجيب على أسئلته بالإيجاب ، ونجد الحقيقة المرة شاخصة أمام أبصارنا فى أيامنا الحاضرة ؛ وهذه فرنسا التى تباهى العالم بأنها مبتدعة مبادىء الحرية والإخاء والمساواة لا تعرف هذه المبادىء إلا فى حدود بلادها ؛ أما البلاد العربية أو الإسلامية التى وقعت تحت نيرها ؛ فحدث ماشئت عن الاستعباد والاحتلال ؛ وسفك الدماء ، واستنزاف الأموال ، سل عن مذابح الفرنسيين فى الجزائر وتونس ومراكش ؛ وسلْ عن فلسطين الشهيدة كيف أقام الغرب على أشلاء أصحابها من العرب والمسلمين دولة لليهود ، وكيف مكّنوا لهذه الدولة ، وتغاضوا عن شرورها واعتداءاتها ، بل تابعوا إمدادها بوسائل الشر والعدوان ؛ لتكون شجاة فى حلق العروبة والإسلام ؛ وسبيلا إلى تحقيق مطامع المستعمرين ؛ حتى لقد ذهب بعض الباحثين تؤيدهم هذه الحقائق الماثلة ، إلى أن تلك الأعمال ليست فى حقيقتها إلا امتداداً للحروب الصليبية ، ونذكر بهذه المناسبة أن الجنرال « غورو » ألقى خطاباً على المسلمين فى بيروت ؛ باهى فيه بأنه من نسل الفرنجة أبطال الحروب الصليبية ، فثارت ثائرة الرصافى ، ونظم قصيدته التى دعاها « مظاهر التعصب فى عصر المدنية » وأوضح فيها استيلاء روح التعصب على أولئك الغربيين ؛ وإن استعاروا مظاهر المدنية ليخفوا حقيقتهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من كيد للعروبة والإسلام .

كان الرصافىّ على حق إذن ، وهو يستقبل عهد الإنجليز بالتشاؤم ، وفى قصيدته التى سماها « غادة الانتداب » ترى شاعرية فذة وروحاً قوية ، فقد كسا هذه الغادة أجمل الكسا ، وحلاها بصنوف الحلى ، وألبسها تاجًا من الدر

والياقوت ، وجعلها تسير مختالة ، وهي في ذلك الزيّ البارق الأخاذ خضراء الدمن ؛ بما تبدي من التلطف والجمال ، وما تخفي من اللؤم والجبن ، إلى أن يقول في حقيقة هذه الغادة أو تلك الحكومة :

فالغِشُّ في لُحمتها والسَّدى　　وكلُّ مايدعو إلى الارتيابْ
قال جليسي يوم مرّتْ بنا :　　مَنْ هذه الغادةُ ذاتُ الحجابْ ؟
قلتُ له : تلك لأوطاننا　　حكومةٌ جادبها الانتدابْ
تحسبها حسناء من زيِّها　　وماسوى «جنبول» تحت الثِّيابْ
ظاهرها فيه لنا رحمةٌ　　والويلُ في باطنها والعذابْ
مصابنا أمسى فظيعاً بها　　يارَبِّ ما أفظع هذا المصابْ !
تاللهِ قد حقّ لنا أننا　　نحثو على الأروس كلّ الترابْ

* * *

وفي قصيدة أخرى سماها (كيف نحن في العراق) يحمل على الحكومة حملة شعواء ويقول إنها ليس لها من الحكم إلا شكل الدولة ومظهر السلطان ، فأعلام ترفرف في الفضاء ، في بلد يئن من الفقر والإملاق ؛ والأجنبي في العراق سيد ، وكل أهله مسود ، وحكام البلاد في ظاهر أمرهم سادة وإن كانوا في حقيقتهم عبيداً للأجانب ، وهو بعد كل هذه الحملات عديم الثقة بهؤلاء الإنكليز وبهذه الوعود التي يرسلونها ؛ وليست هذه الوعود في نظره إلا قيوداً يقيدون بها الأحرار من أبناء البلاد ، ومن العبث أن تلتمس من الذئب شفقة على الحمل الوديع الضعيف :

وليس الإنكليز بمنقذينا　　وإن كتبت لنا منهم عهودُ
متى شفق القويّ على ضعيف　　وكيف يعاهد الخرفان سيدُ
ولكن نحن في يدهم أسارى　　وما كتبوه من عهد قيودُ

أما والله لو كنا قروداً   لما رضيتْ قرابتنا القرودُ

وقصيدة (حكومة الانتداب) يعنف فيها أقصى العنف ، وليس يبالى بعد ذلك أن يرمى بالتطرف :

أنا بالحكومة والسياسة أعرفُ   أألامُ فى تفنيدها وأعنَّفُ ؟
سأقولُ فيها ما أقولُ ولم أخفْ   من أن يقولوا : شاعرٌ متطرفُ

ثم يتابع خطته السابقة من تناول الذين يتربعون فى دست الحكم بالنقد اللاذع ، فهم يتظاهرون بالسطوة والصولة ، وليس ذلك عن حقيقة ولكنه تصنع وتكلف ، فقصدهم التموية والغش ليوهموا أبناء البلاد أنهم القادة والسادة ، فحقيقتهم حقيقتان : أولاهما ظاهرة خداعة ذات بطش على أبناء البلاد ،وثانيتهما باطنة خفية مستكينة أمام الأجنبى ، وبين المظهر والمخبر بعد سحيق وبون شاسع ، هذا رأيه فيهم يكرره ويؤكده :

علَم ودستورٌ ومجلسُ أمة   كلٌّ عن المعنى الصحيح محرفُ
أسماء ليسَ لنا سوى ألفاظها   أما معانيها فليستْ تعرفُ
منْ يقرأ الدستورَ يعلم أنه   وفقاً لصَكِّ الانتداب مصنَّفُ
منْ ينظر العلَم المرفرفَ يلقَهُ   فى عزِّ غير بنى البلاد يرفرفُ
منْ يأتِ مطردَ الوزارة يُلْفِها   بقيود أهل الاستشارة ترسُف

ويذكر المعاهدة التى ربطت العراق بحلف انكلترا فلا يراها محددة الحقوق والواجبات بين الدولتين المتعاهدتين ، ولكنه يراها قيداً من قيود الذل والاستعباد وصكا من صكوك الأسر والعذاب للعراق وساكنيه :

نشروا المعاهدةُ التى فى طيِّها   قيدٌ يعض بأرجل الآمالِ
والعهد بين الإنكليز وبيننا   كالعهد بين الشاةِ والرئبالِ
من ذا رأى ذئب الذئاب مصافحاً   بتوددٍ حملاً من الأحمالِ ؟

لـكنهم خافوا انفكاك قيودنا فاستوثقوا منهنّ بالأقفالِ
كتبوا لنا تلك العهود وإنما وضعوا بها قُفلا من الأغلالِ
شلّت أكفُّ موقّعيها إنهم حلت عليهم لعنة الأجيالِ
هب أنهم أمنوا انفكاك قيودنا أفيأمنون تقلّب الأحوالِ ؟

وقد كان الرصافى عضواً فى البرلمان العراقى الذى أمضى هذه المعاهدة وكان أول معارض لها . ومن ثمرات هذا الرأى أن أصبح يرى الوزارة لا تقوم فى العراق إلا إذا رضى عنها الانكليز :

إن الوزارةَ لا أبالكَ عندنا ثوب يُفَصّل فى معامل لندنا
لا يرتديه سوى امرىءٍ أضحى له طبعاً ودادُ الإنكليز وديدنا

* * *

كان الرصافى يرى نفسه من أقطاب بلاده ، وأنه خدم هذه البلاد بروحه ، وبقلمه ، وبشاعريته ، وأنه قد أتيح له فى العهد التركى الوصول إلى ذروة ما يصبو إليه أمثاله إذا ذاك ، وهو تمثيل بلاده فى المجلس النيابى التركى ، وذلك أمل من أعذب الآمال لمن يريد أن يسهم فى الخدمة العامة لبلاده .

وكان يتوقع فى العهد الجديد عهد الحكم الوطنى أن يكون من ذوى المراكز الممتازة والمناصب العالية ، وكان يرى أن الأدباء فى العصر العباسى قد وصلوا بأدبهم وحده إلى منصب الوزارة وأصبحوا فى منصبهم وسطوتهم وسلطتهم يلون الخليفة فى منصبه وسطوته وسلطته . فما باله وهو من ذكرنا ، وفى ديار العباسيين نفسها ، يضن عليه بما لم يضن به على نظرائه ممن لم يكافحوا كفاحه ولم يبلوا بلاءه ، ولم يجاهدوا جهاده فى سبيل الوطن وحريته ؟

إن تقدير الأدب والأدباء ، وإحلالهم هذه المنزلة الكريمة ، هو خاصة من خصائص العروبة الحية ، وظاهرة من أدل الظواهر على التفوق ، فإذا انعدمت هذه الظاهرة فمعنى ذلك أن العروبة قد زالت آثارها ، أو فقدت أخص

خصائصها . وفى الأبيات التالية ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حرمانه من الجاه والنفوذ الذى كان يصبو إليه ، ويرى نفسه جديرا به ، كان من بين الأسباب فى هذه الثورة العادلة أو الجائرة :

قد كانَ للعرب الأكارم دولة ... من بأسها الدولُ العظيمة ترجفُ
عاش الأديبُ منعماً فى ظلها ... والعالمُ النحرير والمتفلسفُ
أيام كان المسلمون من الورَى ... فى ظلها لهم المحلّ الأشرفُ
ثم انقضى عهدُ العروبة مذغدا ... عنها الزمان بسعده يتحرفُ
حتى تقلص بعدُ من سلطانها ... ظلٌّ بأقصى المشرقين مورفُ
وغدتْ ممالكها الكبيرةُ كلها ... لسهام كل دُويلة تستهدفُ
فبنو العروبة أصبحُوا فى حالة ... منها العروبة لا أبالك تأنفُ
والمسلمون بحالةٍ من أجلها ... تالله ضجّ بما حواه المصحفُ

ويؤكد ما ذكرناه قصيدته (بعد النزوح) قالها فى بيروت سنة ١٩٢٢ وكان قد غادر بغداد ساخطا على ألا يعود إلى العراق ، وفى هذه القصيدة تستشف أن سوء المعاملة التى عومل بها الشاعر الحر من أسباب هذه الثورة الجامحة ، فهو متعلق ببلاده تعلق الطائر بعشه ، ولكنه لايجد فيه السعادة التى ينشدها فيضطر اضطراراً إلى الهجرة عنه تربصا لما تأتى به الأيام ، ومطلع هذه القصيدة :

هى المواطنُ أدنيها وتقصينى ... مثلُ الحوادث أبلوها وتُبلينى
قد طال شكوايَ من دهر أكابده ... أما أصادف حُرًّا فيه يُشكينى
كأننى فى بلادى إن نزلتُ بها ... نزلتُ منها ببيتٍ غير مسكونِ ...

وهى قصيدة أليمة تفيض أسى ولوعة ، وتلوح منها أمارات الحزن العميق على

ما أصابه من إخفاق فى الحياة وخيبة فى الآمال فى وطنه الذى رواه بدموعه وأسى جراحه بألحانه :

حتّى متى أنا فى البلدان مغتربٌ ... نوائب الدهر بالأنياب تُدميني ؟
فتارةً فى الموامى فوق مُوقرةٍ ... وتارةً فى الطوامى فوق مشحونِ
كم أغرقتنى الليالى فى مصائبها ... فعمتُ فيهنَّ من صبرى بدُلفينِ
أنا ابن دجلةَ معرفاً بها أدبى ... وإن يكُ الماء منها ليس يروينى
قد كنتُ بلبلَها الفريدَ أنشدُها ... أشجَى الأناشيد فى أشجَى التلاحينِ

إلى أن يقول فى هذه الأبيات العاطفية التى تثير الأسى وتهيج الشجون :

ويلٌ لبغدادَ مما سوف تذكُرُه ... عنى وعنها الليالى فى الدواوينِ
لقد سقيتُ بفيض الدمع أرْبعَها ... على جوانب وَادٍ ليس يسقينى
ما كنتُ أحسبُ أنى مذ بكيتُ بها ... قومى بكيتُ على من سوف يُبكينى

إلى أن يقول وهنا بيت القصيد :

أفى المروءة أن يعتزّ جاهلها ... وأن أكونَ بها فى قبضة الهونِ
وأن يعيشَ بها الطرطورُ ذاشممٍ ... وأنه أسامَ بعيشى جَذْعَ عِرنينَ
تالله ما كان هذا قطّ من شِيَمى ... ولا الحياة على النكراء من دينى
ولستُ أبذلُ عِرضى كى أعيشَ به ... ولو تأدّمتُ زقوماً بغسلينِ

ويبدو الرصافى أكثر صراحة فى إبراز هذه العلة فى الأبيات التى كتبها (إلى أولى الأمر) يخاطب بها رجال الحكومة ببغداد سنة ١٩٢٢ وفيها يسجل إبعاده ظلماً عن مناصب الحكومة ، وإقصاءه عما هو أهل له ، وهو لا يدع هذا المقام قبل أن يعرض بالمختارين لهذه المناصب فى شيء من التهكم المر والسخرية اللاذعة .

وفى هذا القدر الذى أوردناه الكفاية للتعريف بالرصافى فى عهد الحكم الوطنى لتتبين منه شعره السياسى فى هذه الفترة ، وتعرف نوازعه ودوافعه .

إن الإباء الذى عرف عن الرصافى هو الذى أورده موارد الحرمان الذى قاساه فترة طويلة من حياته ، وجعله يحيا حياة الغريب فى بلده الحبيب ، ومن عادة الأحرار قلة الشكوى والصبر على ما يصيبهم ، احتسابا لمبادئهم التى اعتنقوها ، وتضحية فى سبيل أوطانهم التى هاموا بها ، ولكنك تجد الرصافى شاكيا فى بعض الأحيان لشعوره بهضم حقه ، وعدم إحلاله ما هو أهل له من المنزلة والمنصب .

وها هو ذا يردد الشكاة ، و ينشدها فيلسوف الفريكة ، وكاتب العروبة الحر (أمين الريحانى) وليست شكوى الحر إلى الحرّ غريبة عند أهل النظر :

فديتك ! هل تُصيخُ فإن عندى شكاةً لا تصيخُ لها الخطوبُ ؟
إلى كم أستغيثُ ولا مغيثٌ وأدعو مَن أراهُ فلا يجيبُ ؟

ثم يصور حياته بين قوم ملأت قلوبهم الأحقاد ، وتسرب إلى نفوسهم الفساد حتى أصبح لا يطمئن لصديق لطول ما قاسى من شرورهم ، فهم ينكرونه إذا رأوه ، وهو ينكر منهم نفوسهم التى انضمت على الإحن ، وقلوبهم التى تكاد تميز من الغيظ :

أقمتُ ببلدة ملئت حُقُوداً علىّ فكل ما فيها مريبُ
أمرُّ فتنظر الأبصارُ شَزْراً إلىّ كأنما قد مرّ ذيبُ
وكم من أوجه تبدى ابتساما وفى طىٍّ ابتسامتها قطوبُ

وقد انتهى به المطاف إلى حياة أصح ما توصف به أنها حياة الشريد ، الذى لا يجد مأوى يأوى إليه ، ولا إلفاً يحنو عليه :

سكنتُ الخانَ فى بلدى كأنى أخو سَفر تقاذفه الدروبُ

وعشتُ معيشةَ الغرباء فيه لأنى اليومَ فى وطنى غريب

ولئن جفته المناصب ، وتنكر له أولو الأمر ، لقد عظم عليه شأن الوطن ، وفى سبيل هذا الوطن يغفر الرصافى كل إساءة ؛ لأن الوفاء واجب كل وطنى ، لا يبالى ما يجد من الجحود والتنكر ، وأجدر الناس بالوفاء والصبر المصلحون :

إن جفتنا بلادُنا فهى حِبٌّ ومن الحِبِّ يستلذُّ الجفاء

لم نَحُل عن عهودنا مذ جفتْنا بل لها الودّ عندنا والوفاء

قد بكينا شجواً عليها ومنها وعنانا سقامها والشفاء

كم أردنا سخطاً عليها ولكن غلب السخطَ فى القلوب الرضاء

إنما هذه المواطنُ أمٌّ مستحقٌّ لها علينا الولاء

إن خدمنا فلا نُريد جزاء ومن الأمِّ هل يراد جزاء ؟

إنما نحن مصلحون وما إنْ غاية المصلحين إلا الوفاء

نحن كالشمع حين ذاب اشتعالا فهدى المظلمين منه الضياء

٣

فى سبيل العروبة

ولننتقل إلى لون آخر من شعره السياسى ، الذى تناول به وطنه الأكبر، بلاد العروبة ، ولقد بان لك من دراسة سياسياته فى العهد التركى هيام الشاعر بالعروبة وتفاخره بها ، وإشادته بأمجادها ، ووعيده بغضبتها المضرية ، مما لم يبق معه متسع لتحليل قصائده العامة التى تتصل بهذه الناحية . وقد كان الرصافى من أول العاملين بما أرسله من الشعر الحى على بعث الأمة العربية من رقادها ، ونهضتها من الهوة التى تردت فيها ، وطرح أسباب المنافسة ، والشقاق بينها ، وسد أبواب

الخلاف التى يفتحها الأجنبى للحيلولة دون اتحادها واجتماع كلمتها ، ذلك الأجنبى الذى اتخذ لنفسه المبدأ المعروف « فرق تسد » ، وجعل منه تفرع سياسته ليصل بها إلى ما يبغى من غرس الأحقاد ، وحين ذلك يستطيع أن يغرس جذور الاستعمار ، ليحلو له الاستغلال مادام قد استطاع أن يصرف الناس من حوله إلى حرب النفوس .

وأول من تنبه لذلك الخطر ، ونبه إليه معروف الرصافى الذى صرح بأن الاتحاد قوة ، بل هو ضرورة من أهم ضرورات البقاء لمن يطمع فى البقاء . وقد كان الاتحاد بين شعوب الأمة العربية حلما من أحلام المخلصين ، ولكن ما كان أحد يظن أن تحقيق هذا الحلم اللذيذ ممكن فى عالم الحقيقة ، وتسرب إلى النفوس كثير من اليأس من تحقيق هذه الغاية المثلى ، فأدى ذلك إلى الكسل وأسلم العرب إلى التراخى ، وأصبح العراقى يظن أن لقاءه أخاه المصرى أو الحجازى أو الشامى أمل بعيد الوقوع أو على الأقل ... ولكن دون ذلك أهوال ! ومن هذا اليأس فى الداخل ، ودسائس الأعداء نشأت هذه الفرقة واتسعت الهوة بين الإخوة ، ونشأ تبعا لذلك الإهمال الذى أدى إلى الجهل أو التجاهل بكل شىء مما يجب أن يعرفه العربى عن أخيه العربى ، وإلى عهد غير بعيد كان أبناء كل قطر فى عزلتهم عن إخوانهم لا يعرفون من أحوال غيره من الأقطار العربية فى عصرها الراهن إلا قليلا .

إن تاريخ الأمة العربية فى عصور الجاهلية البعيدة يدرسه أبناء العروبة ويفقهونه ، وتاريخ السيرة النبوية وعهد الخلفاء يعرفونه معرفة مؤرخيه ، وكذلك تاريخ الأمويين ، وتاريخ العباسيين ، كل ذلك درسوه دراسة فاحصة ، تتعدى الإجمال إلى التفصيل ، والمتعلمين الى العامة .

أما تاريخ إخوانهم المعاصرين الذين أصبح اتصالهم بهم سهلا ميسورا ،

فما أجهلهم به ، وما أقلهم معرفة بما قطعت البلاد العربية من أشواط فى نهضتها الحاضرة. السبب فى ذلك هو هذه الهوة العميقة التى احتفرها العدو المشترك بينهم وبين من يحبون ، وأدى هذا إلى عدم إلمامهم بأحوالهم فى عصر توثبهم ، والناس أعداء ما جهلوا !

عرف الرصافى هذا الجفاء وتبين أسبابه ، وعرف أنه خلاف غير طبيعى بين الأخ وأخيه ، وأن هذه النفوس المتفرقة أيدى سبأ لابد أن تعود لها وحدتها الطبيعية كاملة غير منقوصة ، ولا نعرف شاعرا فى هذا العصر آمن بهذه الوحدة إيمان شاعرنا الخالد الرصافى ، ولا نعرف شاعرا تغنى بها وما ملّ الغناء ، والناس عنه فى شغل حتى أصغت الآذان إليه وأصاخت القلوب لألحانها، مثل الرصافى .

ففى قصيدته « بين تونس وبغداد » التى أنشدها فى حفلة التأهيل والترحيب بالزعيم التونسى « عبد العزيز الثعالبى » عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥ يعبر عن عواطف الحب التى تفيض بها قلوب البغداديين نحو إخوانهم أهل تونس ، و بنى العروبة والإسلام :

أتونسُ إن فى بغدادَ قوماً ترفّ قلوبهم لك بالودادِ
ويجمعُهم وإياك انتسابٌ إلى من خصَّ منطقهم بضادِ
ودين أوضحتْ للناس قبلا نواصعُ آيه سبل الرشادِ
فنحنُ على الحقيقة أهل قربَى و إن قضت السياسة بالبعادِ
وما ضرّ البعادُ إذا تدانتْ أواصر من لسان واعتقادِ ؟
و إنّ المسلمينَ على التآخى و إن أغرى الأجانبُ بالتعادى
أتونسُ إن مجدّك ذو انتماء إلى عليا نزارٍ أو إيادِ

فقد جمع بين رابطتين وربط بين جامعتين ، أولاهما جامعة اللسان ، التى تميز

القوم عن القوم والجنس عن الجنس ، وتلك « جامعة العروبة » ، والأخرى جامعة الدين ، أى « الجامعة الإسلامية » ، وهى وشيجة تصل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى جامعة الإخاء فى العقيدة : « إنما المؤمنون إخوة » .

وقد كان لكلتا الجامعتين مقام ، وانقسم العاملون على الوحدة قسمين : منهم من يريدها « جامعة العروبة » الشاملة كل من ينطق بلسان عربى دون نظر إلى دين أو طائفة أو مذهب . وإنما تتكون هذه الجامعة من مجموعة الأمم التى تضمها وحدة اللسان والجنس والعادات والتقاليد ، وهى بهذا المعنى أعم من الجامعة الإسلامية التى تضم كل من شهد أن (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) فيدخل فى الجامعة العربية المسلمون والنصارى دون نظر إلى تعدد النحل وتشعب المذاهب واختلاف الطوائف ، وهى أخص من الجامعة الإسلامية من ناحيه أخرى ، لأنها تنفى عدداً غير قليل من الأمم التى تدين بالإسلام وليست عربية الأصل واللسان ، كإيران وأفغانستان والهند وكردستان وتركية وباكستان ومعتنقى الإسلام عامة فى أوربا وفى غيرها .

وفى زمن الرصافى كان للمذهبين أنصار . وكان أنصار الجامعة الإسلامية يفضلون بقاء الاستظلال بالراية التركية والسيادة العثمانية ، لأن الجالس على عرشها خليفة المسلمين وأمير المؤمنين .

وأنصار الجامعة العربية يتمثلون فى جماعة العرب الثائرين على الحكم التركى الذى اعتوره فى بعض فتراته شىء من التعصب الدينى .

وإنك لتقرأ الدعوة إلى الوحدة العربية فى أكثر قصائد الرصافى ، فترى دعوته إلى طرح الخلافات الدينية والنعرات الطائفية ، لأن كل أبناء الوطن سواء فى التمتع بخيراته والنهوض بواجباته وتبعاته ، كما تجده لبعض ما قدمنا

من الأسباب من دعاة الوحدة الإسلامية أحيانا .

اقرأ له فى قصيدة « فى سبيل الوطن » وكلها نداء لأبناء العروبة من المسيحيين لينسوا الأضغان ولتبنى الأوطان على أساس من الأخوة والتعاطف :

علامَ التَّعادى لاختلاف ديانة ... وإن التَّعادى فى الديانة عدوانُ؟
وما ضرَّ لو كان التعاونُ ديننَا ... فتعمرَ بلدان وتأمن قُطّانُ ؟
إذا جمعتنَا وحدةٌ وطنيةٌ ... فماذا علينَا أن تعدَّد أديانُ ؟

والإنجيل والقرآن كتابا الله نزلا لإسعاد البشر فكل من حدثته نفسه بدعوة إلى التفرقة متعصباً لدينه ، فدعوته باطلة ، لا يقره عليها شرع ولا يشد أزره سند من دين ، وإذا كان هذا الدين سبب الشقاء بسبب حماقة بعض الجهال والمتكسبين به فاتباع الدين عند الرصافى خسران !

الوطن هو الأم الرءوم الذى غذى أبناءه بدره ، وهو المستقر والمستودع وفى قلبه العطف والحنان الذى يتسع لسكانه أجمعين . ولذلك ترى الرصافى يعتب على بعض بنى العروبة من غير المسلمين ، ما رأى من التوانى فى سبيل الوطن وواجبهم النهوض لافتدائه وذود الطامعين فيه :

مواطنُكم يا قومُ أمٌّ كريمةٌ ... تدرّ لكم منها مدى العمرِ ألبانُ
ففى حضنها مهدٌ لكم ومَباءةٌ ... وفى قلبها عطفٌ عليكم وتحنان
فما بالكم لا تحسنونَ وواجبٌ ... على الابن للأمِّ الكريمة إحسانُ ؟
أصبراً وقد أمسَى العدوُّ يهينها ؟ ... أما فيكمُ شَهمٌ على الأم غَيْرَانُ ؟
أجلْ ! إنكم تأبى الحياةَ نفوسُكم ... إذا لم يكنْ فيها على المجد عنوانُ
ألستم من القوم الذين عَلاؤهم ... تقاعسَ عنه الدهرُ وانحطَّ كيوانُ ؟
نمتكم إلى المجد المؤثّل (تغلب) ... كما قد نمتكم للمكارم (غسّانُ)

فلا تنكروا عهدَ الإخاء وقد أتت تُصافحكم فيه (نِزارٌ) و (عَدنانُ)
أجب أيها الندبُ المسيحيُّ مسلماً تَصفا لك منه اليوم سرٌّ وإعلانُ

فإذا ما تمت هذه المؤاخاة واستجاب الأخ لأخيه فلا ضير على الوطن ولا خشية من عدو كان يعمل جاهداً لإحداث ثلمة فى الصفوف ، وتفريق الأهواء . وعادت البلاد عريناً لا تستطيع الدنو منها الثعالب التى همها العمل على الفرقة والقضاء على الألفة .

وتملك الحماسة العربية على الشاعر حسه فينطلق فى فخر فاخر ، وشجاعة مضرية يهدد بالضراغم الشداد تهديداً يثير النقع ، ويستل بالبيض المهندوانية والمشرفية اليمانية من أغمادها ، ووراء كل ذلك النهضة التى يرقبها لهذه الأمة الأبية :

سننهضُ للمجد المخلَّد نهضةً يقرُّ بها (حُورَانُ) عيناً و (لبنانُ)
وتعتزّ من أرض الشآم (دمشقها) وتهتزّ من أرض العراقين (بغدانُ)
وتطربُ فى (البيت المقدّس) صخرةٌ وترتاحُ فى (البيت المحرّم) أركانُ
وتحسنُ للعرب الكرام عواقبٌ فيحمدُها (مُفتٍ) ويشكر (مُطرانُ)

هذه العاطفة العربية المشبوبة فى نفثات الرصافى ، جعلته يرحب بكل حركة تحريرية ، وفكرة إصلاحية يصيب الوطن العربى منها خيراً ، أو يزيل عنه بها حيفا . فلقد قام (الإصلاحيون) فى بيروت يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح فقام الرصافى يؤيدهم ويدعو العرب جميعاً إلى الانضمام إليهم ، فصاغ قصيدته (فى معرض السيف) وفيها يذكر حاجة هذه الأمة إلى القوة التى تجعل حقها مشهوراً ، بعد أن ثبت فى مرات كثيرة أن هذه الأمة لقيت الدستور باللين والرفق ، فلم يجدها اللين ولم يفدها الرفق ، فلا حق بعد ذلك إلا ما تؤيده القوة .

ولكنه لا يلبث أن يطلع على لائحة (الإصلاحيين) فيقرأ فيها ما يبدد

أحلامه و يقض عليه مضجعه ، و يرى النعرة الطائفية والعصبية الدينية فتأخذه اللوعة لخيبة آماله فيهم ، و يوجه إليهم قصيدته التى عنوانها (ما هكذا ؟) وفيها يندد بهم ويعيب عليهم ما ذهبوا إليه من الدعوة إلى الفرقة ، وهم فى أول طريق الوحدة ، وأصبح يوسعهم لوماً وتقريعاً على هذه الدعوى الباطلة ، وقد كان يعهدهم لا يعرفون غير العروبة دينا :

راموا الصلاحَ وقد جاءوا بلائحةٍ خرقاء تترك شملَ الشعب مشعوبا
قد كلَّفوا شططاً فيها حكومتهم وخالفوا الحزمَ فيها والتجاريبا
عدُّوا النصارَى وعدُّوا المسلمين بها ونحن نعهدُهم طراً أعاريبا
قد حكَّموا الدينَ فيها فهى مُعربةٌ عما يكون لدعوى القوم تكذيبا

إلى أن يقول :

أفى مصالح دنياهم وهم عربٌ جاءوا على حسب الأديان ترتيبا ؟
ما ضرَّهم لو نحوا فى الأمر جامعةً تنفى الكنائسَ عنها والمحاريبا ؟
لكنهمْ أمةٌ تأبى مشاربُهم إلا التعصبَ للأديان مشرُوبا

ويذكرهم بما رحب بهم حين عرف أنهم يريدون الإصلاح ، وما طلب لهم من التوفيق ، وكيف شجعهم بشعره الذى غازل فيه الآمال حتى بدا الشر فى لائحتهم التى تدل على فساد رأيهم ، وكأنهم بهذا الشطط أفسدوا مطالبهم ، وقضوا على حقهم بأيديهم ، والحق لا يحين إلا إذا تهيأت له النفوس يداً واحدة وقلباً واحداً .

وقد أثار الرصافى أن أحد زعمائهم (حقى العظم) وكان إذ ذاك فى مصر أبرق برقية إلى جريدة (الطان) الفرنسية ، يطلب فيها إلى حكومة فرنسا أن تنقذ سوريا بالتدخل فى أمرها ، فلا يغفر له الرصافى استجداءه النصرة من عدو أجنبى :

وهل تعمَّد (حتى العظم) فعلته ... لما يُمي خبراً (للطان) مكذوبا ؟
إذ راحَ يستنجدُ الإفرنجَ منتصفاً ... كأنه حمَـــلٌ يستنجدُ الذيبا

أرأيت أيها القارىء هذه الثورة العنيفة يرسلها الرصافى شواظاً من نار على هؤلاء الذين أفسدوا الوحدة الجامعة بهذه الأوهام التى خلقوها والنعرات الطائفية التى استعبدتهم فشوهت حقهم البين الواضح فى الحرية والاستقلال ؟

هذه الثورة العنيفة كما ترى لم يقصد بهـا الشاعر مدينته بغداد ولا وطنه العراق ، وإنما أرسلها صيحة مدوية فى الآفاق فى سبيل هذه العروبة التى يكلمها أن يتفرق أشياعها وأن يتيهوا فى بيداء التعصب والضلال ، فـكانوا كمن سعت إلى حتفها بظلفها ، وما يجديهم التقرب إلى الفرنسيين الذين أخذوا يعيثون بين البلاد السورية اعتساس الذئب فى أودية الفرائس يبحث عن ضحية يتلهى بهـا وفريسة يشبع نهمه من دمائها وأشلائها :

لـكنّ باريز ما زالتْ مطامعُها ... ترنُو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزلْ كلَّ يوم من سياستها ... تلقى العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمنُ القومُ أن يحتلَّ ساحتهم ... جيشٌ يدكُّ من الشام الأهاضيبا ؟

وبعد هذا العتب الممض واللوم الجارح ثارعلى الرصافى قوم منهم ، وأخذت صحفهم تشنع عليه ، وترميه بما هو منه براء . وذلك بأن اتهموه ظلما بأنه يعمل على إبقائهم مصفدين فى أغلال الاستعباد ، حرصاً منه على إرضاء الدولة الحاكمة التى كان يقيم فى حاضرتها (الآستانة) إذ ذاك . ولقد صح ما توقعه الرصافى فوقعت بلادهم بعد قليل فريسة لأولئك الذين استنجدوا بهم .

قلق الرصافى لأن القوم فهموا نصحه على غير وجهه ، ولـكنه لم يكن بهم فى هذه المرة رفيقاً فصب عليهم جام غضبه ، ورماهم بطرفى الفضيلة وكلاهما رذيلة

ولم يعمل الرصافى لباقته فى خطابهم ، فكان أيضا مسرفا كما كانوا مسرفين ، فجانب النصح والإرشاد إلى الهجاء والإقذاع ، ولم يكن يجدر به أن ينحو هذا المنحى وهو الذى نصب نفسه مرشداً ومعلما فى مدرسة الوطنية التى يترفع فيها الزعيم عما يصيب شخصه أو يناله من كيد الكائدين ، ومن ذلك قوله فيهم :

قل للألى نطقُوا بالضاد مدّغما لم يدغم الضادَ آباء لكم فرطوا

أيحسنُ اللحنُ إذ آباؤكم فصحُوا ؟ أم يحسنُ العجزُ إذ آباؤكم نصحُوا ؟

فيكم غلوٌّ وتقصيرٌ و بينهما ضاع المرادُ أأنتم أمة وسُط ؟

ويدع هذا إلى الهجو المقذع الذى يتناول به أنسابهم ؛ ويشكك فى عروبتهم .(١)

إنى ابتليتُ بقومٍ يبعرون على أعقابهم وإذا عنّفتهم ثلطوا

شطوا بأقوالهم حتى لقد غضبُوا إذ قلتُ :ياقومُ فى أقوالكم شططُ

فبدّلوا القولَ إن صحّت عزائمكم فعلا ، وإلا فإنى يأس قنط

قدحِرتُ فى الأمر : إنى حين أسخطهم يرضَوْنَ عنى وإن أرضيتُهم سخِطُوا

ثم يراهم غير جديرين بنسبتهم للعروبة ، التى تتناسى فى سبيلها الغايات الشخصية ، والنزعات الطائفية :

---

(١) فى القصيدة التى هجا بهــا أهل الشام هجو مقذع للعرب لا يقدم عليه من يجرى فى عروقه دم عربى ولو كان ناقما من قومه ، وكان موقف الرصافى من الحركة القومية الإصلاحية التى بعثها شباب العرب فى بيروت وغيرها من الديار السورية ، وقد ساهم فيها فريق من الجالية العربية فى مصر ، وقد طولب فيها الأتراك على لسان إخوانهم العرب بالـكف عن الاستبداد فى الحـكم ، وبخس حقوقهم فى إدارة شئون بلادهم خصوصاً فى عهد الدستور . كان موقف الرصافى من هذه الحركة موقف خصم شديد ، وهو لا يقل عن موقف أى تركى معتز بنعرته القومية ، والدليل على ذلك أنه أقذع فى الهجاء ونسب إلى العرب مانسبه من المساوى والمعايب التى نسبها إليهم الشعوبيون ، بل أعاد ما قاله الشعوبيون فى هذا الباب ، وله فى هذا الموضوع عدة قصائد أثارت عليه شباب الأمة العربية العاملين فى أكثر بلاد الدولة .

(العلامة الشبيبى)

قل للأعاريب : قد هانتْ مكارمكم حتى ادعاها أناس كلهم نبط
برئتُ للعرب العرْباء من فئة يُنْمَوْنَ للعُرْب إلا أنهم سقطُ
أين المكارمُ إن هم أصبحوا عرباً فإنها فى طباع العرب تشترطُ ؟
إن يغمطونى لأنى جئتُ أنهضهمْ فأى مستنهض ذى نجدة غمطُوا ؟

* * *

وكم للرصافى من قصائد يزخر بها ديوانه ، تناول فيها بلاد العربية جميعاً وكأنه سليل هذه البلاد جميعا ، فلم يقف شاعريته على العراق . فنى قصيدة (إلى هربرت صموئيل) تراه يشيد بموقف هذا المندوب السامى فى فلسطين ، وما وعد به العرب من النصر والكرامة التى طرب لها العرب ، وطرب لها الرصافى ، وسجل هذه الوعود ، وحثّ على تحقيقها .

ثم قصيدة رائعة عنوانها (مظاهر التعصب فى عصر المدينة) قالها بعد ما ألقى الجنرال « غورو » على المسلمين خطابه المشهور فى بيروت ، بعد الهدنة وقد فخر « غورو » بأجداده الذين أثاروا الحروب الصليبية ، فنكأ جرحاً كان قد التم . وأعاد إلى نفوس المسلمين ذكريات بطولة أسلافهم ؛ فترى الرصافى يثور للعرب كما يثور للمسلمين :

وقلتَ عن الإفرنج قومك : إنهمْ لأبطالِ هاتيك المعارك أنسالُ
فحركتَ حزنا كان فى الشرق ساكنا وجددْتَ عهداً منه فى الشرق أوجالُ
أسأتَ إلينا بالذى قد ذكرتَه من الأمر فاستاءتْ عصورٌ وأجيالُ
ذكرتَ لنا الحرب الصّليبيةَّ التى بها اليوم قد تمّتْ لقومك آمالُ
وتلك لعمرى قرحةٌ قد نكأتَها بما قلتَه فاهتاجَ بالشرق بلبالُ

ولا يدع الرصافى هذا الموقف يفلت من يديه ، قبل أن يناجى قبر البطل.

(صلاح الدين) الذى رد الصليبيين على أعقابهم مدبرين ، ويود لو انشق هذا القبر ليبعث منه حامى الذمار ، ليرد على (غورو) قولته :

خليلىَّ قوما بى نطأطىءْ رءوسَنا لدى جَدَثٍ تعنو لمن ضم أجبالُ
لدى الجدث الفرْد الذى فيهِ قد ثوَى من الملك الفرد (ابن أيوب) رئبالُ
فنبكى على الأوطان حولَ رِجامِهِ كما قد بكتْ من فقدها الأمَّ أطفالُ
ونستنزفُ الدمعَ الغزير لتربه كما استنزفتْ دمعَ المحبِّين أطلالُ
حنانيك يا قبر ابن أيوبَ فانصدعْ لينهضَ ثاوٍ فى مطاويك مفضالُ
إليك صلاحَ الدين نشكو مصيبة أصيبَ بها قلبُ العلا فهو مغتالُ

ومما يدل على يقظة الرصافى وانتباهه إلى أحداث البلاد العربية ، وجزعه لما ينزل بها من خطوب ، قصائده الكثيرة التى ترى فيها هذا التتبع لأحداث الوطن العربى . فمن ذلك قصيدته (دمشق تندب أهلها) التى أنشدها أهل بغداد لحثهم على التبرع السخى ، والبذل الكريم فى سبيل إخوانهم أهل الشام ، استمع إليه فى وصف مؤلم :

بكتْ فى ظلام الليل تندبُ أهلها بصوت له الصخرُ الأصمُّ يلينُ
وباتتْ وقد جلَّ المصابُ حزينةً بها فى ضَواحى الغُوطتين أنينُ
تئنُّ وقد مد الظلامُ رُواقَه وخيَّم صمتٌ فى الدجى وسكونُ
إذا هى مدَّتْ فى الدجنة صوتَها تميدُ له فى الغُوطتين غصونُ
وتلهبُ منه فى الفضاء شرارة فتبصُرها فى الرافدَيْنِ عيونُ
وتهبُو له فى ساحل النِّيل هبوةٌ أبو الهول منها واجدٌ وحزينُ

وهكذا يرى الرصافى خطب أهل الشام بحريقهم خطب بلاد العروبة جميعاً يتجاوب صداه فى وادى الرافدين ، وفى وادى النيل ، وإنك لتلحظ هذا المعنى

فى كثير من قصائد الرصافى ، وأعنى بذلك أسى أرجاء العروبة جميعاً إن ألمت بإحداها ملمة ، كما رأيت ذلك فى قصيدته (واشيخاه) التى رثى بها أستاذه (محمود شكرى الألوسى) وغيرها من القصائد .

وفى قصيدة « فى حفلة شوقى » تراه بعد أن يثنى على شاعرية شوقى بما هى أهل له ، يعرض لما كان فى مصر من ثورة على بعض أصحاب الأقلام ، الذين أحدثت كتاباتهم ضجة ودويا ، فيعجب لتكريم شوقى ، على حين يقذف غيره من المفكرين بالزندقة والإلحاد :

إذا احتفلتْ مصرٌ بشوقى فما لها ... تقيمُ على الأحرار فى العلم حاجرَا ؟

فقد أسمعتْنا ضجةً أمطرتْ بها ... علياً[١] وطه[٢] حاصباً متطايرَا

فما بال هذا عُدَّ فى مصر مارقاً ؟ ... وما بالُ هذا عدَّ فى مصر كافرَا

إذا لم تك الأفكارُ فى مصر حرةً ... فليس لمصر أن تكرِّم شاعرَا

وهكذا تجد الرصافى لا يقف شاعريته الملهمة عند هذا الوادى ، بل يطلق عنانها تطوف فى هذه الآفاق البعيدة التى هام بها الرصافى هياماً لم يقع لكثير من شعراء العربية فى العصر الحديث .

هذه أمثلة سقناها لنبين أن الشاعر الحر فى شعره السياسى قد وهب نفسه لهذه العروبة التى ولع بها ولوعاً ظاهراً وعنف فى سبيلها من يرجو منهم النصرة على تحقيق آماله فى رفعة العروبة والسمو بها إلى الغاية التى يرجوها لها [٣]، ولهذا

---

(١) هو الأستاذ على عبد الرازق . (٢) هو الدكتور طه حسين .

(٣) وللرصافى فى هذه الناحية صفات متباينة فهو أبى الضيم ككل شاعر مرهف الحس رقيق الشعور يميز أقوى تمييز بين محاسن الأخلاق ومساويها ومن شأنه أن يدعو فى شعره إلى الترغيب فى السجايا الخيرة الجميلة والترهيب من الصفات البشعة الذميمة ، كل ذلك من شأن الشاعر المجيد . وفى شعر الرصافى شواهد عديدة من هذا القبيل غير أنه قد سف فى كثير من الأحايين إلى مستوى شعراء المناسبات فمدح وهجا ، بل أغرق فى المدح وأقذع فى الهجاء =

الشعر السياسى أمثال كثيرة ، فهو لا يختص به قوما دون قوم ، ولا بلداً دون بلد بل يشيد بما يراه فى أرجاء البلاد العربية المترامية الأطراف من ممادح ومآثر يرى فيها سببا من أسباب النهوض بالوطن العربى والقومية العربية ، وينتقد ما قد يكون فيها مما يراه يحط من شأن العروبة ، أو يقف عثرة فى سبيل حريتها المسلوبة ؛ أو أملها المرتقب من التمتع بالكرامة بين أمم الأرض قاطبة . استمع إليه مرة أخرى يستنهض الأمة العربية ويدعوها إلى غايته التى جهد فى الدعوة إليها وهى الوحدة التى تجمع الشمل وترد العدو على أعقابه :

لهفى على العُرْبِ أمستْ من جمودِهم حتى الجماداتُ تشكو وهى فى ضجرِ
أين الجحاجحُ ممن ينتمُونَ إلى ذؤابة الشرفِ الوضّاحِ من (مضرِ)
قومٌ هم الشمس كانوا ، والورى قمر ولا كرامةَ لولا الشمسُ للقمرِ
راحُوا وقد أعقبُوا من بعدهم عِقباً نامُوا عن الأمر تفويضاً عن القدرِ
أقولُ والبرقُ يسرى فى مراقدهم يا ساهرَ البرق أيقظْ راقدَ السمرِ
يأيها العرْبُ هبُّوا من رُقادكم فقدْ بدا الصبحُ وانجابتْ دجَى الخطرِ

ثم يأخذه الأسى لوعورة المسلك ، والعرب منقسمون :

كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم يا أكثر الناس عداً غير منحصر

ويتجاوز الرصافى هذه الدائرة الواسعة التى شملت البلاد العربية إلى دائرة أوسع ، وكأن هذا الرجل يعنيه مايعنى كل مظلوم فأصبح يبكى لكل ملة وإن نزلت بغيره فتراه ينظر إلى ماحاق بالهند نظرة الواله المتحير فى العدد الكثير الذى أصبح

=وهذا فى رأينا ممالا يأتلف مع تلك الأخلاق الرفيعة . وكان الرصافى على الأغلب مدفوعاً فى كثير من قصائده ومقطعاته التى نظمها فى الهجاء بدافع الحقد والضغينة ممن يعتقد أنهم لم يقدروا أدبه ونبوغه حق قدرها ولم يكافئوه على ذلك .

(العلامة الشبيبى)

مستعبداً لفئة قليلة من المستعمرين وفي قصيدته (الفيل والحمل) التي خاطب بها الزعيم الهندي (مولاي محمد علي) عند مروره ببغداد سنة ١٩٢٩ ترى الرصافي يستبدل بتحية هذا الزعيم الضيف عتابا فيه التهكم المر والألم الممض على ماانتهى إليه أمر الهند التي تزخر بالناس والخيرات ، وتقاسي من مصائب الاستعمار ماتقاسي وفي هذا دلالة على أن الشاعر عدو للاستعمار ولاستعباد الشعوب حيثما وجد :

إليكَ زعيمَ الهند أوردُ هاهنا سؤالاً له أرجو الجوابَ تفضُّلا
فنحن هنا في مجلس ذي أمانة فلم يخش فيه الحر أن يتقوّلا
إذا ما سمعتُ الهندَ في قول قائل تخيلتُ فيلا بالحديد مكبَّلا
تزجيه كفّ الأجنبيّ مسخراً فيمشي بأعباء الأجانبِ مثقلا
و يبركُ أحياناً على الأرض رازحاً له أنةٌ من ثقل ما قد تحملا
و ينْخسُ أحياناً فتعلوه رجفةٌ فيمضي على رغم القيود مهرولا
و إني أظنُّ الفيلَ صاحبَ قوةٍ تـكونُ له لو شاء من ذاك موئِلا

ثم يستحث الهنود على الثورة واستجماع القوى وجمع الـكلمة وليس يعجزهم بعد ذلك الوصول إلى حقهم في الحياة :

فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى لهز بهـــا شم الجبال وقلقلا

وليت الرصافي عاش ليرى أمانيه للشعوب المهضومة وقد تحققت ؛ وليرى أن الفيل قد استجمع قواه ، وثار ثورته على مستعبديه ؛ وكيف أصبحت الهند بلداً له حريته وكرامته ، وحمل قادتها فلسفة السلام لينشروها في العالم ، والحرية وقد ناصروا طالبيها ، مما استحقوا به إعجاب العالم وتقديرهم دعاةً للحق والعدل والحرية والسلام .

الفصل الثاني

في سبيل المجتمع

مَنْ لَيْسَ يُبْكِيهِ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ   بُكَاؤُهُمْ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ التَّمَاسِيحِ

أما شعره الاجتماعى فقد امتد حتى شمل كل نواحى المجتمع العراقى والمجتمع العربى ، ونرى أن الشاعر قد أرضى مذهبه الذى يدين به فى الشعر وهو أنه لاانفصام بين الشاعر و بيئته ، وكما لاح من بعض كلمات الرصافى ميله إلى القول بمذهب وحدة الوجود دعا كذلك إلى وحدة المجتمع ، بأن يكون كل من فيه ومافيه عاملا له ، ومجاهدا فى سبيله ما وسعه الجهاد فلا تعيش لبنة من لبناته فى منأى عن أخواتها ولا تتخلف شاة عن قطيعها ، بل الكل رائد نفسه ، ورائد مجتمعه .

ولقد دافع الرصافى عن هذا المبدأ دفاعا مجيداً ، فهو من الذين يدينون بما عرف فى عصرنا بمذهب (الفن للمجتمع) أو (الفن للحياة) ينتصر له قولا ، ويظاهره عملا على النحو الذى رأيت فيما سبق ، فلا يريد لشعره إلا أن يكون صورة واضحة المعالم لمجتمعه الذى عاش فيه . وهذه الصورة ترى فيها قبائح المجتمع وعلله وآفاته فى نزاهة وإخلاص و صدق ، كما ترى فيها مفاخر هذا المجتمع ومباهجه التى تأخذ بيدك من هذه الهوّة القاتمة إلى شىء من الرضا والأمل .

ولم يقف الرصافى أمام هذا التصوير القاتم أحيانا ، المشرق حينا ، موقف المتفرج الذى لا يعنيه شىء مما يرى فى هذا المجتمع الصاخب ، بل أدلى بدلوه

فى الدلاء ، ونبه النفوس الخامدة ، وحاول ما استطاع إنهاض عزائمها و إشعال جذوتها ، وتوجيهها إلى ما يرى فيه الخير والقوة و بناء مجد سامق ، يضاهى فى عظمته تاريخ أمته السابق الحافل بجلائل الأعمال ، و باهى الفعال .

ولم يعجب الرصافى مذهب الذين يقولون (بالفن للفن) فى خروج على المجتمع أو موافقة له ، إذا أن الفنى فى هذه الحالة الثانية لايعنيه إلا خياله المشرق والمغرب ، وجمال تصويره لما وقر فى نفسه من المعانى والأخيلة أو خطر على قلبه من صورة رائعة أعجبته فصاغها بما أوتى من قدرة على إبراز هذه الصورة فى أبهى الحلل ، وأشكل الأساليب ، وذلك ما لايتفق مع ما طبع عليه الرصافى الذى وهب المجتمع ماوهب من فن وعبقرية .

وحسبه دفاعا عن رأيه ما أودعه كتابه الموسوم (دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية) تحت ما أسماه « غاية الأدب » وفيها يقول الرصافى :

« سمعت بعض المتجددين من أدباء الترك فى الآستانة يقولون إن : الأدب لا غاية له ، و يتوسعون فى هذا القول حتى يعموا به مايسمونه بالصناعات النفيسة أو الفنون الجميلة ، وهى الشعر والموسيقى والرسم والنحت ، فهذه الصناعات كلها لاغاية لها عندهم ، بل هى الغاية وهى المغيا ، فالرسام إذا رسم صورة كانت غايته تلك الصورة ، والشاعر إذا قال قصيدة كانت غايته تلك القصيدة وهلم جرا .

ولقد تأملت هذا القول فلم أجد له محصلا ينطبق على المعقول ؛ إذ لا ريب أن الغاية هى ما يكون لأجله وجود الشىء ، فهى إذن علة الوجود ، وليس من المعقول أن يكون الشىء علة لنفسه ، فإذا قال الشاعر قصيدة فليس من المعقول أن تكون القصيدة نفسها هى الباعث له على قولها .

سألت عن تحقيق معنى هذا القول بعض من يقولونه ، فلم يجيبوا بما يشفى الغلة ، ثم إنى اطلعت على كتاب فى علم النفس نقله من الإفرنسية إلى التركية

نعيم بك البابان مدرس علم النفس فى دار العلوم بالآستانة ، فقرأت فيه بحث قولهم (الصنعة للصنعة) . وعلمت منه أن ليس معنى هذا القول أن الفنون الجميلة لا غاية لها ، بل معناه أنها لا تحتاج فى وجودها إلى مادة خارجة عن غايتها ، فإن الصناعات عندهم قسمان ممتهنة وعالية . فالممتهنة هى ما يحتاج فيها الصانع إلى مادة خارجة عن غايتها ، كالنجارة مثلا فإن النجار يحتاج فيها إلى خشب يصنع منه كرسياً ، والخشب خارج عن غاية الكرسى ، بخلاف الصناعات العالية ، التى هى الفنون الجميلة ، فإن الصانع فيها لا يحتاج إلى مادة خارجة عن غايتها كالشعر مثلا ، فإن الشاعر إذا قال شعراً لا يحتاج فيه إلا إلى استعمال الكلمات ، وهى غير خارجة عن الغاية المقصودة منه ، بل هى نفس تلك الغاية لأن غاية الشاعر من شعره إثارة العواطف والتأثير فى النفوس بوصف مشهد من مشاهد الطبيعة أو بتصوير منظر غرامى أو مدح أو هجاء أو غير ذلك ، والكلمات التى يستعملها فى شعره ليست بخارجة عن هذه الغاية ، بل هى الغاية نفسها لأنه متى تكلم بتلك الكلمات ، وأنشدها السامعين فقد حصلت غايته المطلوبة التى ذكرناها .

هذا هو معنى قولهم (الصنعة للصنعة) وهو معنى صحيح لا غبار عليه ولا يلزم منه أن الأدب ليس له غاية كما يقولون[1] » اهـ .

وقد نقل ابن خلدون فى مقدمته عن الحكماء قولهم « الإنسان مدنى بالطبع » وأخذ فى شرح هذه العبارة ، و بيان المقصود منها ، وخلاصة ما ذهب إليه أنه مدنى بالنسبة إلى المدينة ، التى هى أصل المجتمع الإنسانى ، ومن فى هذه المدينة أو من فى هذا المجتمع ، لا يسعه بحال من الأحوال ، أن يستغنى عن غيره ، أو يحيا فى منأى عن حياة الجماعة .

---

(١) الرصافى : دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٩ ج ١ مطبعة دار السلام فى بغداد ١٩٢٨ .

وهذا المعنى الذى قرره الحكماء والذى أوجب السعى لتحقيق الغاية المثلى ، التى رمى إليها العلماء أصبحت الحوادث فى عصرنا توثقه ، وأخذت الأيام تحققه ، فلم تبق المنفعة وحدها الرابطة التى تربط الأخ بأخيه فى الإسانية ، وتصدر عنها صلات الأخوة وصفات الإنسانية ، بل تجاوز ذلك المعنى هذه الغايات النفعية التى كانت تسيطر على الإنسان فى عصور الهمجية والظلام ، وأصبح من سمات هذا العصر ألا يسمى إنساناً من كان يعيش لنفسه فقط ، و إنما الإنسان فرد فى هذه الجماعة يحس ما تحس و يشعر بما تجد ، وهذه هى الإنسانية التى أصبحت الوشيجة المثلى والعروة الوثقى بين بنى الإنسان .

ولا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية فى سائر عصورها أهمه المجتمع الذى يحيا بين ظهرانيه ما أهمه الرصافى الذى هتف بأسباب علائه ، وشاد بعوامل ارتقائه ، و بكى ما يجد من تعاسته وشقائه !

الماضى والحاضر :

عاب الرصافى على أبناء العروبة أن يتغنوا بمفاخر الماضى ، تاركين الأخذ بأسباب المجد اعتماداً على هذ المجد الموروث ، فى عصر فخر فيه الناس بما حصلوا لأنفسهم بأنفسهم وشقوا لأممهم طريق المجد فسلكته وقطعت فيه أشواطا ، ولكننا لا نزال نتغنى بأمجاد أسلافنا ، ولا نتخذ منهم القدوة ، ولا نتمم مابنوه من رفيع البنيان :

ولكنْ أيها العربىُّ إنى أراكَ لغير ما يجدى مُريدا
وما يُجدى افتخارُك بالأوالى إذا لم تفتخرْ فخراً جديدا ؟

وعنده أن الذى يحاول أن يسود هو ذلك يجدُّ فى حاضره و يعمل لغده ومستقبله ، لا الفاخرين بالعظام والأشلاء :

أرى مُستقبلَ الأيَامِ أولى بمطمح من يحاولُ أن يُسودا
فما بلغَ المقاصدَ غيرُ ساعٍ يردِّدُ فى غد نظراً سديداً
فوجِّهْ وَجْهَ عزمك نحوآتٍ ولا تلفتْ إلى الماضين جِيدا
وهلْ إن كان حاضرُ شقياً نسودُ بكونِ ماضينا سعيدا ؟

فالشرف الحقيقى هو الشرف الموروث ، يؤيده شرف مكسوب ، فإذا ساق العربى الفخر بالقول ، أيده بالعمل ، فلا يكذب حاضره ماضيه :

فشرُّ العالمين ذوو خُمولٍ إذا فاخرتَهمْ ذكروا الجدُودا
وخيرُ الناس ذو حسبٍ قديمٍ أقام لنفسه حسباً جديداً

الرصافى والعلم :

نشأ الرصافى فى بيئة سادها التأخر والانحلال بما كانت تعانى من إهمال حكامها وولاتها ، الذين لم يفكروا فى النهوض بها من هذه الهوة التى تردت فيها ، لأنهم قد يجدون فى إنهاضها عاملا من عوامل كسر شوكتهم والثورة على سلطانهم إذا فهم الناس حقوقهم فى الحياة وعرفوا واجباتهم تجاهها . أما الواجبات فإن أبناء البلاد يعرفونها ، ويؤدونها مذعنين ، فى ضرائب يدفعونها وفى جندية ينتظمون فى سلكها ، وفى حرب يخوضون غمارها ، و يصلون نارها ، وقد لا يكون لهم فى هذا الخوض نفع كثير أو قليل .

إنهم يعرفون هذا الواجب الرسمى جيداً ، وإن لم يعرفوه طائعين ، فسيعرفونه قسراً وإرغاما ، ولكنهم لم يعرفوا الواجبات الإنسانية نحو إخوانهم فى الوطنية والشعور ، من مقتضيات الأخوة كالتعاطف والتراحم ، والبر والتنافس فيه ، وكذلك لم يعرفوا حقوقهم فى الحياة ، حقوق التعلم ، ومحاربة الفقر ، ومكافحة

المرض ، والتطلع لحياة سعيدة ، يستوون فيها مع الآخذين بأسباب النهضة والحضارة فى مشارق الأرض ومغاربها .

وليس من سبيل إلى هذه الغاية من المعرفة التى تبصرهم بما يتوقون إليه إلا العلم الذى يهذب نفوسهم ، ويلطف من حدة عواطفهم ، ويشعر الناس أنهم سواسية فى كل شىء .

لقد هام الرصافى بالعلم وبثه هياما عجيبا ترى أثره فى أكثر قصائده الاجتماعية وفى أكثر قصائده السياسية أيضاً ، قبل الدستور العثمانى وبعده ، وفى عهد الانتداب ، وفى ظلال الحكم الوطنى فى العراق .

ولقد مثّل شبان العرب الذين كانوا فى الآستانة حينما كان الرصافى مقيما فيها ، إحدى الروايات ، وطلبوا إلى الرصافى أن يحضر وينشدهم شعراً ، فصاغ لهم قصيدته « إلى الأمة العربية » وكانت الفكرة الرئيسية التى قامت عليها هذه القصيدة حث أبناء هذه الأمة على استعادة أمجادهم السالفة بنشر العلم وإنشاء المدارس :

متى ينجلى ياقومُ بالصبح ليلكم فتذهبَ عنكم غفلةٌ وذهولُ
وينطق بالمجد المؤثل سعيكم فيسكت عنكم لائمٌ وعذولُ
تريدون للعليا سبيلا وهل لكم إليها وأنتم جاهلون سبيلُ
أناشدكم ، أين المدارس ؟ إنها على السكون فيكم والحياة دليلُ

ويقض مضجع الرصافى أن يحيا قومه فى مهاوى الظلمات ، وقد أقيمت للعلم صروح فى أرجاء العالم ، ووجد العلماء المبرزون فى أودية العلم المختلفة ، فكانت المخترعات التى أدنت القاصى وسهلت الصعب ، وذللت الوعر ، وأصبحت الأمم لا تقاس بجيوشها الجرارة ، ولا بسيوفها البتارة ، بقدر ما تقاس بعلمائها المبرزين ، وأعلامها المفكرين :

أيها الناسُ إن هذا العصرَ عصرُ ال   علم والجدّ في العـلا والجهادِ
عصرُ حُكْمِ البخارِ والـكهر   بائية والماكينات والمنطادِ
بُنيتْ للعــلوم فيه المباني   وأقيمتْ للبحثِ فيها النوادى
فاضَ فيضُ العلوم بالرّغم ممَّن   ضربُوا دونهن بالأسدادِ
إن للعــلم دولةً خضعتْ دو   ن عُلاها عوالمُ الأضدادِ
ما استفادَ الفتى وإن ملك الأر   ضَ بأعلى من علمه المستفادِ

وعنده أن العالم هو الفارس المجلى فى حلبة الزمان ، وأن العلم هو الذى ينبه الخاملين ، و يسبغ على الضعفاء ثياب القوة والحياة :

لا تسابقْ فى حلبة العزِّ ذا العلـ   ـم فما للهجين شأوُ الجوادِ
إن أمواتَ أمةِ العـلم أحيا   ء ، حياةَ الأرواح والأجسادِ
وكأيِّنْ فى الناس من ذى خُمول   صارَ بالعلم كعبة القصّادِ !

والعلم هو الذى هتك الحجب ، ورفع الستور عن العيون التى غشى عليها الجهل ، ولا سبيل إلى استبانة الطريق السوى ، سوى هذا النور الذى يفيضه العلم ، فيرفع حجب الشك :

لقد طغتْ حيرةُ أهلِ النُّهى   هل فيك يا علمُ لها مردعُ ؟
كم نشربُ الظنَّ فلا نرتوى   ونأكلُ الحدْسَ ، فلا نشبعُ !

وهذا تشبيه جميل ألحق به المعنويات بالماديات فكان ما ترى من الخيال الأدبى والجمال البيانى إذ صوّر فيه ما يجتره القوم من الأوهام والخرافات .

و إذا ما خيم الجهل على قوم ، فلا تسحرنك قصورهم بما حوت من زخرف وزينة وليست ثيابهم التى يتأنقون فيها مع جهالتهم إلا كالكفن يلف فيه الموتى لا غناء فى رونقه و بهائه لميت لا حراك به ، وليست هذه القصور بما

حوت بأحسن من القبور ، وحياتهم الخالية من المعرفة ليست إلا حياة العوز والإملاق . ولقد جعل الرصافى تهاون الناس فى كسب العلم وفى إقامة المدارس عقوقا للوطن أى عقوق :

إذا ما عقَّ موطنَهم أناسٌ ولم يبنُوا به للعلم دُورَا
فإن ثيابهم أكفانُ موتى وليسَ بيوتُهم إلا قبورَا

والرصافى يكرر هذا المعنى فى أكثر من موضع ، فله من قصيدة دعاها « إلى الشبان » يحثهم فيها على عدم الهوادة فى طلب العلم الذى به حياتهم كالعود الذى لاحياة له بغير التربة والسقيا :

أنتَ ياجاهلُ من قبل المات ميِّتٌ يمرحُ ما بين البيوتْ
أوَ ما تعلمُ فى هَذِى الحياة أن ربَّ العلم حىٌ لايموتْ ؟

وهذا العلم لاينال بالقول ، ولا يدرك بالأمل ، بل إن بثه فى ربوع البلاد يحتاج إلى تعاون الأفراد والجماعات ، ومعاضدة الحكومات لإنشاء المدارس فى المدن والقرى ، وهذا مادعا الرصافى إلى أن يصلت سيف شعره على أعناق المتقاعسين عن أداء هذا الواجب الوطنى ، وإلى أن يشيد بكل من وضع لبنة فى أساس صرح العلم بإنشاء المدارس . ولهذا كثرت قصائده فى افتتاح المدارس ، وتحية القائمين بها ، وتشجيع طلابها ، الذين يردون حياض العلم ، وينهلون من موارده فيها ، ويحثهم على التزود والاستزادة من فيض العلم ، وعدم الوقوف عند حد يصلون إليه ، فليس لهذا العلم من غاية ينتهى إليها :

ومعهدِ علم أسَّسته عصابةٌ من القوم تسعَى للنجاح وتجهدُ
شبابٌ مشوْا للمكرمات بعزمة تقاعسَ عنها الكوكبُ المتوقدُ
سأستودعُ الأيامَ كلَّ قصيدةٍ يطيبُ لهم فيها الثناء المخلدُ

أقولُ لهم قولا به أستزيدهم   وأشكرُهم شكراً جزيلا وأحمدُ
أمَا وخلالٍ فيكم عربيّةٍ   وذا قسَمٌ لو تعلمونَ مؤكدُ
يسرّ العلا أن ينهضَ القومِ للعلا   وأن يجمع الشبانَ للعلم معهدُ

التعصب :

ويلى هذه الغاية عند الرصافى ، غاية سامية ، دعالها ، وهى نبذ التعصب الذميم ، وطرح الخلافات التىقسمت الشعب فرقا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون ، وهو لا يرضى للوطن هذا الانقسام بين أبنائه المسلمين ولا الفرقة بينهم وبين غيرهم من معتنقى الديانات الأخرى ، فما دعا إلى هذه النعرة القاتلة غير الساسة الدخلاء الذين لايطيب لهم الصيد إلا فى الماء العكر « وقد وضحنا ذلك فى بحث شعره السياسى » وغير الجهلة الذين لايفهمون — فى نظره — إلاالقشور، وكثيراً ماجروا على بلادهم الويل والحرب من وراء استغلالهم لسذاجة الجماهير ، فيزجون بهم فى هذا المضيق الوعر الذى تأباه الأديان، وقصيدته «فى سبيل الوطن : إلى إخواننا المسيحيين » تفيض بهذه المعانى الإنسانية الرشيدة . وعدا هذه النعرات ، يوجد تعصب من لون آخر أنحى عليه الرصافى باللوم اللاذع ، وهو العصبيه القومية بين أبناء الوطن الواحد ، كما حدث فى فتنة الأرمن ، وما أدت إليه من المذابح البشرية ، وإن الرصافى ليأسى على ماجرته هذه الفتن أشد الأسى ، فقد كانت أشد إيلاماً لنفسه الحساسة، وشعوره المرهف من أى حدث آخر.

وفى قصيدته « أم اليتيم » يشير إلى مقته وسخطه سخطا لا حدله على هذا التعصب المقيت :

مشى أرمنيًّا فى المعاهد فارتمتْ   به فى مهاوى الموتِ ضربةُ مسلمِ
على حينَ ثارتْ للنوائب ثورةٌ   أتتْ عن حزازات إلى الدين تنتمى

فقامتْ بها بين الديار مذابحٌ تخوّض منها الأرمنيّون بالدمِ

إلى أن يعلن أنهم اجترحوا هذه الجرائر باسم الدين ، والدين منها براء ، و إنما دعاهم إلى ذلك الجهل وسوء الفهم، فباتوا فى غيهم يعمهون ، وفى ضلالتهم سادرين ، ومالهم معالم يلتمسون بها سبيل الهدى :

فليسَ بدينٍ كلُّ مايفعلونَهُ ولـكنه جهلٌ وسوءُ تفهّمِ !
لئن ملئوا الأرضَ الفضاء جرائما فهم أجرموا ، والدين ليس بمجْرِمِ
ولـكنّهم فى جُنح ليل من العمَى تمشّوا بعطموس العلائم مبهم
وقد سلـكو تيهاء من أمر دينهم فـكم منجِدٍ فى الحزياتِ ومُتْهمِ

الأخلاق

ولقد عنى الرصافى فيما عناه الأخلاق وانحلالها فيشفق على مصير أمته من هذا اللين فى الخلق ، والضعف فى الطبائع والعادات ، ويخشى انهيارها وراء هذه المفاسد التى تودى بها . وكما كان الرصافى صريحا كل الصراحة فى نقد الساسة وأولى الأمر نجده كذلك صريحا كل الصراحة فى نقد نواحى الانحلال الخلقى . وفى مطلع قصيدته « التربية والأمهات» تراه يشيد بقيم الفضائل ، وضرورة تربيتها فى أحضان كريمة ، كالنبت لا يكون ناضراً ريعان إلا فى تربة خصبة :

هى الأخلاقُ تنبتُ كالنباتِ إذا سُقِيتْ بماء المـكرماتِ
تقومُ إذا تعهّدها المربى على ساق الفضيلة مثمراتِ
وتسمو للمـكارم باتّساق كما اتسقتْ أنابيبُ القناةِ
وتُنعش من صميم المجد روحاً بأزهارٍ لها متضوّعاتِ

وإلى جانب العناية التى سلفت بالعلم ، والإشارة إلى احتلاله المقام الأول فى نهضة الشعوب ، يذكر أن هذا العلم وحده لاغناء فيه ، مالم يكن إلى جانبه خلق يعاضده ويشد أزره :

وما العلم إلا النورُ يجلو دُجى العمَى ... ولكن تزوغُ العين عند انكساره
فما فاسدُ الأخلاقِ بالعلم مفلحاً ... وإن كان بحراً زاخراً من بحاره

وشر الخلق عنده الكذب الذى يتخذ مظهراً فى الأقوال ، ومظهراً فى الأعمال ، ويجرى على أقلام الكتاب ، الذين لايتحرون الحقيقة فيما يسطرون ، فيخلد كذبهم فى السطور على مر الأيام ، ويبقى زيفهم يُضلل الباحثين والمؤرخين :

وما كان كِذْبُ القومِ فى القول وحدَهُ ... ولكنه فى كتْبهم والمهارقِ
وأقبحُ مَينٍ فى الزمان خرافةٌ ... تخَطّ بها طرساً يراعةُ ناهقِ
ضلالٌ على مر الجديدين لم تزلْ ... مغاربُنا من أمره كالمشارقِ

ثم النفاق الذى يطمس معالم الحقيقة ، ويجعل من دونها حجابا كثيفا ، وهو داء قد فشا فى القوم ، فلا تكاد تتبين قولا صريحا ، ولاتجد رأيا صحيحا يعتد به ويعتمد عليه ، فمنافق من يرى الحق ظاهرا فيحاول أن يستره ، ومن يرى القبيح باديا فيحاول أن يغطيه بستر من الكذب ، والنفاق عند الرصافى أقبح الكفر :

هل الكفرُ إلا أن ترى الحق ظاهراً ... فتضرب للأنظار من دونه سترا ؟
وأن تبصرَ الأشياء بيضاً نواصعاً ... فتظهرها للناس قانية حمرا ؟
إذا كان فى عُرْى الجسوم قباحةٌ ... فأحسنُ شيء فى الحقيقة أن تعرى
فيلمسها من مارستْ عينُه عمىً ... ويبصرُها من كابدتْ أذنه وقرا

كما حمل على المرائين الذين يظهرون للناس على غير حقيقتهم ، ويلبسون مسوح الزهاد ، وقادة الإصلاح ، وهم دعاة الفساد وشر المتصفين بهذه الصفة الذين يقفون من الناس موقف الناصح الأمين ، والمجرب الشفيق ولكنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وقد عموا على الناس بما يبدون فيه من مظاهر الزهد والتقشف ، وما يلوثون من العمائم وما يرسلون من اللحى . استمع إليه يهجو بعض المرائين :

سود الله منكَ ياشيخُ وجهاً غشّ حتى باللحية السوداء
لو نتفنا من شَعرها وغزلنَا لنسجْنَا خمسين ثوب رياء !

ثروة البلاد

وقد هال الرصافى ما عليه العراق من التأخر والفقر نتيجة إهماله شئونه وعدم رعايته مصالحه من قبل الولاة الذين وصفناهم ، والذين تخذوه بقرة حلوبا ، عليها أن تدر ، ولهم العلل والنهل ، وليس يضيرهم بعد ذلك أن تجدب الأرض ، وأن يجف الضرع ، فكان من أكبر دعاة الإصلاح ، فى شتى نواحى الإصلاح .

يغار على تلك المياه التى يفيض بها الرافدان ، فتذهب بدداً مخلفة وراءها القفور والقيعان والجدب والأقفار ، فأصاب رياض العراق الذبول ، وهجرتها البلابل الغردة ، التى كانت تصدح فوق أفنانها وترفرف فوق أوديتها المعشبة المخضرة فى الشمال وفى الجنوب .

ويغضب لثورة الفراتين ثورة ماتذر من شيء أتت عليه إلا غمره طوفانها فأودى بمحلات العراق ، وأتى على قراها ، وأهلك الحرث والنسل .

فالفيضان الذى هو سبب الخصب والرغد أصبح مدعاة للكوارث والبلاء ، لتقاعس الهمم وإهمال الولاة ، فجر الفقر على البلاد بدل النماء والثراء . وتلك حال تشغل الذين وهبوا أنفسهم لبلادهم ، فما بالك بالرصافى وهو من عرفت حدة عاطفة

ورقة إحساس ، وصدق وطنية ؟ ! صوب سمعك تجاه هذه الأنات ، واستمع إلى هذه المناجاة ، يناجي بها الشاعر مياه دجلة حين ورده ورود المتأمل المتعبد :

رُبَّ يومٍ وردتُ دجلةَ فيه موردًا خاليًا عن الوُرّادِ
حَيْثُ ينصبُّ في سكونٍ عميقٍ ماؤها لائمًا ضفافَ الوادي
وَهبوبَ النسيم يكتبُ في الما ء سطورًا مهتزّةً في اطّرادِ
يَنمحي بعضُها ويظهرُ بعضٌ فهي تنسابُ بين خافٍ وبادِ

ويقول يصور النهر ، يبثه ما به من اللوعة والأسى :

وَتئنُّ المياهُ لي بخريرٍ كأنينِ السّقيمِ للعُوّادِ
قمتُ في وجهها أردِّدُ طرفي ساكتًا والضمير مني ينادي
وَاقفًا تحت سرحةٍ ناح فيها طائرٌ فوقَ غصنها الميّادِ
مُنشدًا في النواح شعرًا غريزيـــــا حزينًا كأنه إنشادي
جاوبته أفنانُها بأنين من حفيف الأوراق والأعوادِ
يامياهًا جرَتْ بدجلةَ تجتا زُ مرورًا بجانبيْ بغدادِ
إن نفسي إلى الحقيقة عطشَى أفتشفينَ غُلّة من صادِ ؟

ويعود بذهنه إلى أيام الإيراق والإيناع ، أيام كان دجلة الخالد يجري بالحياة، حين كانت سامراء متنزها من متنزهات بغداد ، وقد أودى بهذه المظاهر الجهل ، فغدت حوله البوادي قاحلة ، وهي أرض تنبت الذهب ، ولكن جر إهمالها الفقر والسغب ، فمتى يفيق أبناء الرافدين ، فيغنون بعد الخصاصة ويحصدون بعد الإجداب ؟

أيّها الماء أين تجري ضياعًا وحواليك قاحلاتٌ البوادي ؟

فمتى تفطِنُ النفوسُ فيحيا بلك سقيا مواتُ هذى البلادِ ؟
لو زرعنا بك البقاعَ حبوباً لحصدنا النّضارَ يومَ الحصادِ
أفيدرى خليجُ فارسَ ماذا فيه منك بالعٌ بازدرادِ ؟
أنتَ واللهِ عسجدٌ ولجينٌ لو أتينا الأمورَ باستعدادِ
فاجْرِ ياماءُ إن جريتَ رويداً بأناة ومهـــلةٍ واتئادِ
علّنا نستفيقُ من رَقدة الفقـ ـر فنغنَى بفيضِك المزدادِ

* * *

وقد كان من نتيجة الفقر الذى يعانيه سواد الأمة ، والذى أشار إليه الرصافى فيما سبق ، وكذلك ما لاقى هو من صنوف الحرمان أحيانا ، أن رأيناه يحمل على طبقة الأغنياء ، وجماعة المترفين الذين ينعمون بخيرات البلاد ومحصولاتها وهم طبقة محدودة منعمة مترفة ، وأكثر أبناء البلاد يعانى آلام الفاقة وعذاب الخصاصة ، وكان من نتيجة ذلك كله أن رأينا الرصافى أحيانا ينتصر لمبدأ الاشتراكية ، وهو من المبادىء التى أحدثت ثورة فى العالم .

وعنده أن الغنىّ إنما كسب الغنى وحصل الثروة من تعب الفقير الكادح الذى يشقى ليسعد غيره ، ويجنى غيره ثمرة نصبه وجهاده ، ولقد انتشر هذا المبدأ فى بعض بلاد أوربا ، وتسرب إلى بعض البلاد العربية ، فلقى هوى فى نفوس الطبقات العاملة من الفلاحين والعمال ، ذلك أن هذه المبادىء تمنيهم بالجاه والمنصب والطفرة إلى ذروة السعادة ، وقد ساعد على رواج هذه المبادىء أن الأغنياء لم يسدوا فى الغالب للفقراء شيئا مما كسبوا ، ولم يعملوا على انتشالهم من موبقات الفقر والجهل والمرض ؛ استمع إلى الرصافى يقول :

أرى كلَّ ذى فقر لدى كلِّ ذى غنى أجيراً له مُستخدماً فى عقارهِ
ولم يُعطه إلاّ اليسيرَ ، وإنما على كدّه قامتْ صروحُ يسارهِ

ويلبسُ من تذليله العزّ ضافياً ويـنظرُه شَزْراً بعين احتقارهِ

ولـكنه لا يرضى للفقير أن يكون ضعيفا مستجديا ، ولا يرضى له التجرد من الـكرامة وعزة النفس ، يلتمس من الغنى العطاء إن شاء منحه ، وإن أراد منعه ، ولـكنه يرى الجد والدأب صفة من يريد الحياة عزيزا ، ولا مقام للفقير العاجز فى حياة لا يسود فيها إلا الغنى القوى .

نعم ! هو يريد الغنى للأمة فى مجموعها ، وللأفراد جميعاً ، لأنه يرى هذا الغنى والجد من أهم أسباب التخلص من سيادة الأجنبى ، وتحـكمه فى تجارة البلاد واقتصادياتها ، فالاستقلال الاقتصادى سبيل الإستقلال السياسى ، إذ به يغنى الوطنى عن الأجنبى فى البيع والشراء ، ويحتفظ بأمواله ينتفع بها بنو جلدته ، ويفلت من الأسر الاقتصادى ؛ الذى يحـكمه المستعمرون :

تغنى البلادُ بسعيها عن غيرها وتعيدُ عهد ثرائها المفقودِ

وتقومُ بالعمل المفيد لأهلها من نسج أردية لها وبرودِ

حتى تـكونَ عن الأجانب فى غنىً وتعيشُ غيرَ أسيرة التقليدِ

أو ما ترى أهلَ البلاد تقيّدوا للغرْبِ من حاجاتهم بقيودِ

الغربُ يكسُوهم ملابسَ هم بها يَعْرَوْنَ من مال لهم ونقودِ

وتراهُ يسلخهمْ بمصنوعاته سلخَ الشياهِ فهمْ بغير جلودِ

ويشير إلى المواخر تغدو بالبضائع الأجنبية ، وتروح وقد حملت دماء القوم التى امتصتها أثمانا لهذه البضائع والسلع :

هذى سفائنُهم تروحُ وتغتدى ببضائع لم تُحص بالتعديدِ

فـكأنما هىَ لامتصاص دمائنا بعضُ المحاجم أو كبعض الدّودِ

وينحى باللوم والتقريع على بنى وطنه الذين أغرموا بكل ماهو أجنبى

واحتقروا كل ماهو وطنى ، ولو كان هذا الوطنى يفوق الأجنبى جودة وينقص عنه سعرا . وذلك من آثار العبودية ، وكأنهم لايرجون مزايلتها ، ولا التخلص من قيودها :

حتى متى نشقى ليسعدَ غيرنا ونذلل القُربى لعزّ بعيدِ ؟
ونجانبُ الوطنىّ من أشيائنا ولو انه من أحسن الموجودِ ؟
إن البلادَ لتشتكى من أهلها وتقولُ قول الرازح المجهودِ
ياسادة الأوطان لستم سادةً ماعشتم من فقركم كعبيدِ !

وهذا مظهر سام من مظاهر شعوره بالحاجة إلى تمجيد الصناعات الوطنية والإشادة بها ، والثناء على أصحاب دور العمل من الوطنيين ، وحث أبناء الأمة على تأييدهم ومعاضدتهم ، والإقبال على منتجاتهم .

مشاهد البؤس :

كان من مظاهر النهضة الحاضرة فى الديار الشرقية إحساس الفرد أنه لايعيش لنفسه ، وإنما هو عضو فى هذا المجتمع عليه أن يشعر بما يشعر به غيره ، وكان لهذا المعنى أثره فى نفوس الشعراء فى هذه النهضة ، ولكن قليلا من شعراء العصر عنوا بتصوير آلام الفقراء ، والإحساس بما يكابدون من ضنك .

وفى طليعة أولئك الرصافى الذى كان خير من صور آلام الفقراء ، وما يجدون من شظف العيش وقسوة الحياة ، وديوانه يزخر بقصائد كثيرة رائعة فى وصف هذه الآلام ، بل إن شاعريته بدأت ظواهرها ، وانبعثت أسرارها ، وفاضت بحارها فى هذا اللون من الشعر ، الذى ينبعث منه الأنين ، وتتصعد الزفرات ، حتى إنك لتحس أنه يحس بما يجد هؤلاء جميعا من عنت وإرهاق ؛ وإن ينابيع شعر الرصافى قد تفجرت أول ماتفجرت فى وصف ما يكابد أولئك المحرومون .

ويروى الرصافى عن نفسه أن مشاهد البؤس كانت من أشد الدواعى عنده إلى نظم الشعر ، ويقول فى ذلك : كان لنا جار فقير مبتلى بداء المفاصل ، وكانت له أخت تمرضه ، وكنا فى فصل الصيف الذى يكون فيه الناس فى لياليه فى بلادنا على سطوح الدور ، وكان هذا المريض إذ جن عليه الليل والى أنينه ، وكان أنينه يزعجنى طول الليل ، فهذه الحادثة أوحت إلى قصيدة « الفقر والسقام » . واطلعت فى ليلة عيد الأضحى على حالة أرملة بائسة لها يتامى صغار ، ولا حاجة إلى ذكر قصتها هنا ، فحالة هذه الأرملة هى التى أوحت إلىّ قصيدة « اليتيم فى العيد » . وكان لى صاحب ، وكان أبوه صاحب الشرطة إذ ذاك فى بغداد فأخذنى يوما إلى السجن الكائن فى بغداد ، فشهدت فيه مشهد البؤس والشقاء ، حتى أوحى إلىّ قصيدة « السجن فى بغداد » . وهكذا بقيت أنسج على هذا المنوال ، حتى أعلن الدستور العثمانى ، فذهبت إلى الأستانة ، وهى مركز سياسة الدولة إذ ذاك ، فاجترفتنى أمواجها المتلاطمة ، وحالت فى الأكثر بينى وبين تلك المواضيع السابقة ، ويا قاتل الله السياسة ! إنها ما دخلت فى أمر إلا أفسدته »

وإنك لتجد فى الكلمات الأخيرة دواعى الحسرة ، إذ حيل بين الشاعر وبين هذا اللون من الشعر الذى هام به هياما سببه الرحمة التى طبع عليها قلب الرصافى . أما الحادثة التى لم يرد الرصافى أن يصرح بها فى هذا المقام حياء منه أن يذكر منّةً منَّ بها على إنسان ، فقد صرح بها لأحد خلصائه ، وهو الأستاذ طه الراوى الذى يحكى عنه : « أنه كان يجلس إلى أحـــد بائعى الدخان ، فجاءت امرأة بيدها إناء من نحاس ، قال : فأسرت إلى صاحب الدكان حديثاً لم أفهمه ، فأخذ منها الإناء ، وأعطاها بضعة قروش بغدادية « والقرش البغدادى إذ ذاك يعادل فلسين ونصف الفلس اليوم » . قال : فسألته عن جلية الأمر فخبرنى أن هذه المرأة — وهى أم يتيم — لا تملك شيئاً من المال ، فجاءت بهذه الإناء لترهنه عندى بهذا المبلغ الزهيد ، لكى تنفقه على ابنها يوم العيد غداً ، قال :

فتأججت فى نفسى نار الألم ، فأدخلت يدى فى جيبى وأخرجت مافيه، وكان إذ ذاك لايتجاوز بضعة عشر قرشاً ، فأعطيتها لصاحبى ليعطيها إياها ، وقمت على الفور وذهبت إلى البيت ، والألم يحز فى نفسى فلم يغمض لى جفن فى تلك الليلة « حتى نظمت القصيدة التى عنوانها « اليتيم فى ليلة العيد » .

ورأى الرصافى أن العيد أيام لا تغاير غيرها من الأيام ، ولـكن الناس اصطلحوا على المغايرة ، فهى عندهم أيام السرور ، والتحلل من المآسى والآلام ، بما يعدون لهذه الأيام من مظاهر الأنس ، وعلائم السرور من جدة الثياب ، والخروج إلى المتنزهات ، والتلاقى زرافات ووحدانا ، ليقتنصوا ما استطاعوا من أسباب المرح ، و يجتنوا قطاف اللهو والأنس الدانية .وليس كل الناس يستطيع هذه الأسباب ؛ وليس فى مقدور كل إنسان أن يشترى ثو با قشيبا ، أو يدفع درهما فى سبيل التسرية عن نفسه ، و إزالة ماران على قلبه من الأسى والـكدر ، فتعود عليه هذه الأيام آلاما إلى آلامه ، وعذابا إلى عذابه ، حين يحتاج إلى البذل والإنفاق فلا يجدماينفق، وهنا تعتريه الحسرة والألم ؛ و يشعر بمرارة الحرمان .

هذا هو رأى الرصافى فى العيد أو فلسفة العيد عنده ، وهى لعمرى فلسفة لاتعدو الحقيقة الأليمة ، لأن منتزعها الحياة الواقعية :

أطلَّ صباح العيد فى الشرق يسمعُ ضجيجاً به الأفراحُ تمضى وترجعُ
صباحٌ به تبدى المسرّة شمسَها وليسَ لها إلا التوهم مطلعُ
صباحٌ به يختالُ بالوشى ذُو الغنى ويُعْوِزُ ذا الإعدامِ طِمرٌ مرقّعُ
صباحٌ به يكسُو الغنىُّ وليدَه ثياباً لها يبكى اليتيم المضيّعُ
صباحٌ به تغدُو الحلائلُ بالحلَى وترفضُّ من عين الأرامل أدمُعُ

ثم ينصرف إلى معانيه الخالدة ، وفلسفته الأليمة فى هذه الموازنات البا كية،ويخرج إلى أن مسرات العيد إنما هى أوهام ،وأن آلام الناس فى العيد هى وحدها الحقائق:

ألا ليتَ يوم العيد لا كان ، إنه يجدِّد للمحزون حزناً فيجزعُ
يُرينا سروراً بين حُزنٍ وإنما به الحزن جِدٌّ ، والسرور تصنعُ
فمن بؤساء الناس فى يوم عيدهم نحوسٌ ، بها وجهُ المسرّة أسفعُ
قد ابيضّ وجهُ العيد ، لكنّ بؤسهم رمى نُكتاً سُوداً به فهو أبقعُ

ويدع الرصافى هذه الآلام النفسية التى يكابدها البائسون ، إلى آلام أخرى ، فيورد فى شعر قصصى رائع قصة خروجه فى هذا الصباح الذى وصفه فتبع الناس فى لهوهم ، والصبيان فى مجتمعاتهم ، إلى أن تقع عينه بين هذه الوجوه الباسمة المستبشرة على وجه أكدر عابس ، لا يصل المرح إلى قلب صاحبه ، ولا ينفذ السرور إلى نفسه الحزينة المكتئبة ، فينحنى عليه انحناءة الأب الحانى ، يسأله عما به ، فيصرح له الصبي ببعض ما يخفى ، ويغافله الرصافى حتى يعود إلى بيته أو كوخه ، ويرى أمه ، فيسائلها فتوقفه على حقيقة أمرها ، وكيف شقيت بفقد من كان يسعدها ، فصارت إلى هذه التعاسة والكمد ، فيصف ذلك وصفا ينفطر له القلب ، وتذهب عليه النفس حسرات :

قعدتُ وقلبي جازعٌ متوجعٌ وقلتُ وعينى ثرّة الدمع تهمعُ
ألا ليتَ يومَ العيد لا كان إنه يجدِّد للمحزون حُزناً فيجزَعُ

وللرصافى فى هذا المجال قصائد كثيرة تتلظى نارا ، وتفيض أسى ، وينعكس فيها صدى ما يحس الشاعر من لذعة الألم لهذه النفوس الملتاعة ، ومن بين هذه القصائد المؤثرة المثيرة قصيدته التى دعاها (الأرملة المرضعة) وصف فيها وصفا بارعا هذه المرأة فى ظاهر أمرها ، و باطن ألمها ، وصفا يبعث الشجون ويستذرف الدموع :

لَقيتُها ، ليتنى ما كنت ألقاها تمشى ، وقد أثقلَ الإملاقُ ممشاها
أثوابُها رثةٌ ، والرِّجلُ حافيةٌ والدمعُ تذرفه فى الخدِّ عيناها

بكتْ من الفقر فاحمرّتْ مدامعها　　واصفرّ كالورْس من جوع محيّاها
ماتَ الذى كان يحميها ويُسعدُها　　فالدّهرُ من بعده بالفقر أشقاها
الموتُ أفجعها ، والفقرُ أوجعها　　والهمُّ أنحلها ، والغمُّ أضناها
فمنظرُ الحزن مشهودٌ بمنظرها　　والبؤسُ مرآهُ مقرونٌ بمرآها
كرُّ الجديدين قد أبلى عباءتها　　فانشقَّ أسفلها ، وانشقَّ أعلاها
ومزّق الدهرُ — ويلَ الدهرِ — مئزرَها　　حتى بدا من شقوق الثوب جنباها

ويتابع هذا الوصف المر الحزين حتى ينتقل إلى وصف وليدتها ، وما تجد مع أمها من الشقاء ، بما جر عليهما الزمان من صروف ونكبات إذ اخترم حياة عائلهما الذى يضمن بقاؤه لهما السعادة ، ويحفظ لهما ماء وجههما .

ويصور فى حسرة لاذعة ، ما كانت تنبس به شفتا الأم المسكينة من دعوات ضارعة ، وأنفاس ذليلة خاشعة إلى ربها أن يدر لهذه الوليدة اليتيمة اللبن الذى يغذوها ، ويكفل حياتها ، ويضمن نماءها ، ومالها عنه من عوض .

ويفعل هنا أيضا ما فعله مع اليتيم ، فقد حنا عليها حين أحس بوجودها ، واستشعر آلامها ، فتبعها ليستبين حقيقة أمرها ، وقد أدمت فؤاده دعواتها التى كان لسان حالها ينطق بها ، وكان صمتها يترجم عنها ، أو كأنه يسمع همسات الشفاه ، ونجوى القلوب ! ثم يمد يده إليها مصافحا بما ملكت يداه مما كان يضن به ، ويحتفظ به ثمنا لعجالة من صبابة العيش :

هذا الذى فى طريقى كنتُ أسمعُه　　منها ، فأثّرَ فى نفسى وأشجاها
حتى دنوت إليها ، وهى ماشية　　وأدمعى أو سعتْ فى الخد مجراها
وقلتُ : يا أختُ مهلا إننى رجلٌ　　أشارك الناسَ طرًّا فى بلاياها
سمعتُ يا أختُ شكوى تهمسين بها　　فى قالةٍ أوجعتْ قلبى بفحواها

هل تسمحُ الأختُ لي أنى أشاطرها ما في يدى الآن أسترضى به الله
ثم اجتذبْتُ لها من جيب ملحفتى دراهماً ، كنتُ أستبقى بقاياها
وقلتُ يا أختُ أرجُو منك تكرمتى بأخذها دونَ مامنٍ تغشّاها

أرأيت كيف بلغت الرحمة منزلتها من قلب الشاعر ؟ وكيف ملكت عليه حسه وشعوره ؟ إن هذه الأبيات وحدها لتفصح غاية الإفصاح ، عما انطوى عليه فؤاده الرحيم من الحدب على الفقير ، والبر بالبائس المسكين ، وحسبك قوله لها « إننى رجل أشارك الناس طرا فى بلاياها ! » .

وكان من حق الرصافى أن يوصف بالكرم ، بل بالإيثار ، بسبب هذا البذل ، لا بكثرة المبذول ، بل بقيمتة ، لأنه صدر عمن هو فى أمس الحاجة إليه ، ثم هو يعرف تماما مايعتور العطاء من قبح المن ؛ ورغبة المعطى فى حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر ، فيحترس هذا الاحتراس النبيل « دون مامن تغشاها » ثم هذا الشعور السامى بأن فى قبول المعطَى هبة المعطِى تكرمة له ، وتفضلا عليه « وقلت ياأخت أرجو منك تكرمتى بأخذها . . ؟ »

ابو صبابه . .

وإذ كان الرصافى من أعدى أعداء الفقر ، وأكثر الناس شعورا بعذابه ؛ وتذوقا لصابه ، وإحساساً بأثره فى إذلال النفوس الكريمة ، حتى لقد جعل من نفسه أسوة فى تقديم ما يستطيع مما يأسو جراحات المكلومين به ؛ فليس من العجيب أن تراه يشحذ شاعريته ، ويستعمل فنه ومواهبه ، فى تحبيب البر إلى النفوس، وتحبيذ الإحسان إلى ذوى القدرة على المحرومين من إخوانهم فى الوطنية ، وشركائهم فى الإنسانية ، فصور الإحسان فى أبهى حالاته ، وأسنى حلله ، وكسابه أهل المروءة ، وخلعه على المحسنين ، فصور المحسن جديراً بالعبادة بعد البارى جل

وعلا ، وجعل غرسه أكرم غراس ، وأحلاه جنى ، فى مزرعة الخليقة ، وأوضح أثره فى استئصال أسباب الموجدة والبغضاء ، و إحلال المودة والصفاء بين المحسن والمحسن إليه .

وهاك قصيدة تحمل هذه المعانى السامية ، وقد أنشدها القوم فى حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التى أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية فى بغداد :

لو كنتُ أعبد فانياً فى ذى الدنا　　لعبدتُ من دون الإله المحسنا
وجعلتُ قلبى مسجداً لتعبدى　　سرًّا ، وفهتُ له بشكرى مُعلنا
كيلا أكونَ مرائياً بعبادتى　　ولكى أكونَ بشكره متفننًا
فى مجتنى غرس الخليقةِ لم أجدْ　　غرساً سوى الاحسانِ حلو المجتنىَ
هو فى الخليقة ذو عجائبَ ، سرُّها　　أعيا اللبيبَ ، وأعجز المتفطنا
بيناهُ يغدو للنفوس مقيِّداً　　بالحبِّ يطلقُ بالثناء الألسُنا
يستعبدُ الأحرار وهو صنيعُهم　　ويردّ بُغْضَ المبغضين تحننا
كم بلَّ نائرةً فأطفأ نارها　　من بين مشتبك الصوارم والقنا

ويبدى الرصافى عجبه من مظاهر الإحسان وآثاره التى كثرت فى بلاد الغرب فأسست بسببه ملاجىء ومستشفيات ومدارس سعد بها المحرومون، ويبدى أسفه لقلة هذه الآثار فى البلاد العربية ، وديار الإسلام الذى أوصى بالإحسان بل أمر به أمراً . فى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى . . » :

لم أدرِ والآثارُ منه كثيرةٌ　　فى الغرب لمْ نزرتْ وقلَّت عندنا ؟
أفنحنُ نجهله ؟ وقد علم الورَى　　فى الشرق نشأته ربيباً بيننا
أوما أُمرْنا فى عظاتِ كتابنا　　بالعدل والإحسان أن نتدينا ؟

ويسر الرصافى أن يشاهد فى وطنه العزيز بواكير آلاء الإحسان ، فيزول عنه شىء من تشاؤمه المعهود ، وينتقل إلى الإشادة بهذا المحسن الكبير .

وقد أشرنا فى أكثر من موضع إلى تعليل هذه الظاهرة التى بدت واضحة المعالم فى شعر الرصافى ، وأقصد بها عنايته بالفقراء ، وحدبه على البائسين ، فقد تقلبت به الأحوال ، وعبثت به تصاريف الأيام وخطوبها ، فبينما تراه يحلق فى سماء الجاه والمنزلة ، إذا هو يهوى إلى حضيض الفاقة والمسغبة. مثل هذا الرجل لا يشكر عليه هذه العناية الظاهرة بمن عضهم الدهر بنابه .

فقد طعم لذة الشبع ، كما ذاق مرارة الجوع ، ولذلك انبعثت عنه هذه العاطفة الحادة ، والأنة الحزينة ، فشدا بهذه الأنغام الشجية، وقد كان عمق إحساسه بما يجد ذوو الإعسار أم ماجر عليه هذه الأزمات المتلاحقة التى كان يكابدها أكثر أيام حياته ، ولقد رأيت أنه كان يتصدق فى غير مامنّ ، ويعد قبول الصدقة منه تكرمة له وتفضلا عليه ، وهو الذى «يشارك الناس طرًّا فى بلاياها» .
وهذا الخلق يدلنا على إيمان الشاعر وحسن ثقته فى الله ، فقد كان دائما يعيش فى يومه ، ولا يحسب حسابا لغده، فتحلل من قيود الحرص الذى يذل أعناق الرجال .

***

غادر الرصافى وطنه (العراق) عدة مرات زار فى خلالها كثيرا من البلاد فزار تركيا ولبنان وسورية وفلسطين ومصر . ومما لاشك فيه أن شاعرا مثل الرصافى إرهاف حس ، والتهاب عاطفة ، وسعيا فى مجد قومه ، لابد أن يرسل نظرة فاحصة إلى دقائق الأشياء ، وأسرار الحياة فى هذه المواطن التى انتجعها أوزارها ، وقد كان ذلك ، ففطن إلى عوامل النهضة فى كل بلد من هذه البلاد .
ووقف على مقدار أخذها بأسباب الحياة ، وضربها فى مضمار المدنية التى انبعثت من بلاد الغرب وأشرقت على بلاد الشرق ، حين وجد الاتصال بين هذه الآفاق

بوسائله المعروفة ، التى أهمها انتجاع الأوربيين بلاد الشرق تجاراً وعلماء ومستعمرين ، فكانوا حلقة اتصال بين أقوام متباينين فى كثير من مظاهر الحياة ، وحلقة اتصال كذلك بين هذه العقليات .

فأخذ الشرقى المغلوب على أمره يحاول جهده أن يقلد الأجنبى الغالب فى كثير من ظواهر الأشياء وحقائقها ، ولعل حقائق الأمور لايجيد معرفتها إلا أصحابها الحقيقيون الذين زاولوها قرونا عدة فى بيئتها الأولى ، وحظ المقلد دائما العناية بالظواهر ، حتى يتعرف الحقائق فيما رسما بعد أن ترسخ أصولها ، وتتميز علائمها عنده ، وليس من الممكن أن يتحقق ذلك فى يوم وليلة ، وإن كان ذلك مما يعد ممكنا بالنسبة للظواهر والقشور .

وكان من أثر ذلك احتكاك قوى بين العقليات فى ديار الشرق بين الداعين إلى الطفرة ومن يجذبهم ماضيهم إلى المحافظة على مقومات الأمة من تقاليدها وعاداتها .

المرأة العربية

كانت المرأة الشرقية بعامة، والعربية بخاصة ضحية الإهمال والتقييد على حين كان الرجل آخذاً بأسباب النهوض، فكان هنالك بون شاسع وهوة سحيقة بين الرجل والمرأة، طلب الرجل لنفسه الحرية وكبلها بقيود الاستعباد ، وطلب لنفسه العلم وأبقاها تتعثر فى دياجير الجهالة ، وهكذا بقيت المرأة فى الشرق ترسف فى هذه الأغلال ، وعطل بذلك نصف الأمة عن العمل ، فبقيت رهينة بيتها ، وقعيدة خدرها ، منزوية فى كسر بيتها ، وحصر همها فى تدبير الطعام وتربية الأولاد ، فربتهم على ما ألفت وعرفت من الأساليب العتيقة البالية .

ولقد هب جماعة من دعاة الإصلاح يحاولون انتشال المرأة مما تكابد من آلام وما تعامل به من عنت داعين إلى السفور وطرح الحجاب ، وضرورة تزويد المرأة

من حياض العلم والمعرفة ، حتى تعالج أمورها على بصيرة من العلم والفهم فدعا جماعة منهم إلى إشراك المرأة فى سائر تكاليف الحياة لتنهض مع الرجل جنبا إلى جنب . ومما لاريب فيه أن هذه الدعوات جديدة على المجتمع الشرقى فتلقاها بكثير من الإنكار ، وارتفعت صيحات مدوية ترمى هؤلاء الدعاة بالفسق والفجور والسفه والكفر ، وهذا شأن كل جديد لاعهد للمجتمع به ، فكانت هذه المنابزة بين جماعة المجددين الذين دعوا إلى تحرير المرأة وجماعة المحافظين الذين يرون الإبقاء على ماهى عليه من التأخر والهوان .

رأى الرصافى هذا وقرأ الحالة فى غير بلده ، ورأى انبعاث النور الذى يبشر بإشراق شمس المرأة على المجتمعات ، فآلى على نفسه أن يعمل على إنهاض المرأة العراقية لتساير أختها فى بلاد الغرب والشرق ، فأرسلها صيحات مدوية فى سبيل خلاصها ، وانفرد ديوانه بباب خاص سماه (النسائيات) وفى هذا الباب دعا إلى رفع ذلك الحيف الذى نزل بالمرأة ، وندد بالعادات والتقاليد التى أجرى أعليها ما لكورقها ، فأذاقوها ألوان العسف وصنوف العذاب فى الحجب والتضييق والحرمان .

وأولى قصائد هذا الباب قصيدة (المرأة فى الشرق) وفيها يرجع ما أصاب أهل الشرق من التدهور إلى إغفال شأن المرأة ، وسلبها حريتها مجاراة للعادات التى درج عليها الشرقيون ، فأصبحت هذه العادات قيوداً وأغلالا لا يستطيعون الانفكاك من إسارها :

ألا ما لأهلِ الشّرق فى بُرَحاء يعيشونَ فى ذلٍّ به وشقاء
لقد حكّموا العاداتِ حتى غدتْ لهم بمنزلة الأقيادِ للأسَراء

ثم يشرح علة البرحاء ، ويذكر سبب ما يقاسون من الشقاء .

لقد غمطوا حقّ النساء فشدّدوا عليهنّ فى حبس وطول ثواء

وقد ألزَموهنّ الحجابَ وأنكروا عليهنّ إلا خَرْجةً بغطاء
أضاقوا عليهنّ الفضاء كأنهم يَغَارون من نُوره وهَواء

وفى هذه القصيدة يصور الحالة البائسة التى آل إليها أمر المرأة فى الشرق. حتى صارت كسقط المتاع. وكأنهم لا يعرفونها لغير الاستمتاع فألحقوا بالنساء العار :

وقد زَعَمُوا أن لَسْنَ يصلُحنَ فى الدُّنا لغير قرارٍ فى البيوتِ وباءِ
فما هُنّ إلا متعةٌ من متاعهم وإن صِنَّ عن بيع لهم وشراء
أهانوا بهنّ الأمهاتِ فأصبَحُوا بما فعلوا من ألأم اللؤماء

وينفرد الرصافى دون الدعاة إلى تحرير المرأة بمعنى من أسمى المعانى ، ولا نظن أحداً من دعاة حريتها ، ورسل نهضتها استطاع أن يقول فى حقها ما قال الرصافى [1] .

أعلن الرصافى أن تقييد المرأة وأسرها فى المنزل، حتى أصبحت الحرائر جوارى. وإماء، هو الذى جعل الرجال يستمرئون حياة الذل والاستعباد ، لأنهم رُبُّوا فى حجور الإماء ، والولد بأبويه أشبه ، وبهما ألصق ، فأشربوا الذل والهوان ، لأنهم رضوا لأمهاتهم ، أو لزوجاتهم هذا الذل وذلك الهوان ، فقد تعودت الأمة أن تستجيب.

---

(١) يرى بعض الأدباء أن مما يمتاز به أدب كل من الشاعرين الزهاوى والرصافى مايسمونه تحرير المرأة ، ويراد بذلك أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة الغربية فى حياتها ووجوب تمتعها بالقسط الذى يتمتع به الرجل ، وقد سبقهم إلى ذلك الكاتب الاجتماعى المصرى المشهور قاسم أمين ، والذى نأخذه على هؤلاء الأدباء والكتاب أنهم يترسمون فى ذلك خطا الغربيين فى استساغة سفور المرأة ومنحها ما يمنح الرجل من حرية تبيح لها الشخوص فى المجالس والخلوة بغير المحارم من الرجال واستقبال الأصدقاء أو من يسمونهم أصدقاء، ويقلدونهم تقليداً أعمى فى كثير من الأحيان ، كأن الغربيين أول من نادى بعتق الإنسان المظلوم وتحريره من ربقه الاستعباد مع أن الشريعة الاسلامية أول شريعة أنصفت المرأة ومنحتها حقوقا لم تمنحها امرأة قبلها فى شريعة أخرى .

والواقع أن العوامل التى عملت على زوال مجد الأمة العربية أو الإسلامية واستقلالها وحضارتها هى نفس العوامل التى عملت فى سوء معاملة الرجل للمرأة فى هذا الجزء من العالم =

لرغبة سيدها ومالك رقها ، فرضى هو لنفسه الخنوع والاستسلام لحكامه الظالمين ، وسادته المتعسفين :

ولو أنهم أبقَوا لهنَّ كرامةً ــــ لـكانوا بما أبقوا من الكُرماء !
ألم تَرَهُمْ أمسَوا عبيداً لأنَّهمْ ــــ على الذل شبُّوا فى حجور إماء ؟
وهانَ عليهم حين هانتْ نساؤهم ــــ تحمّل جَوْرِ الساسةِ الغرباء

وكما طلب الرصافى العلم للرجال ، طلبه للمرأة ، وعد الجهل الذى تسلط على الرجال هو الذى جعلهم يرون فى تعليم المرأة ثورة على العفاف ؛ وليس من الدين فى شىء أن تحرم المرأة الارتواء من حياض المعرفة ، فيقول :

عنا كبُ الجهل كم ألقتْ بأدمغةٍ ــــ من الأنام نسيجاً من خرافاتِ
فحرّموا وأحلوا حسب عادتهم ــــ وشوّهوا وجهَ أحكام الديانات
حتى تراهم يرونَ العلم منقصةً ــــ عند النساء ولو كنّ العفيفاتِ
وحجّبُوهنّ خوفَ العار ، ليتهمُ ــــ خافوا عليهنّ من عار الجهالاتِ !

وانتقل إلى ظاهرة يشهدها أهل العراق ومنتجعوه ، فقد حرمت التقاليد أن تبرز المرأة فى المجتمعات العامة ، ومن جرؤت على الخروج على هذه التقاليد

= الإسلامى ، ولامعنى لنسبة التقصير فى هذا الشأن إلى الإسلام نفسه ، ولا بد لنا من القول إن للأمم إذا أرادت مجاراة الشعوب الناهضة مراحل معينة لابد أن تقطعها مرحلة مرحلة . ومن رأينا أن مثل هذه القضايا الاجتماعية المعضلة ، ومنها القضية التى يسمونها تحرير المرأة ومنحها ما يمنح الرجل من حرية ورفع الحيف عنها فى الزواج والطلاق وغير ذلك من حقوقها ليست من القضايا السهلة التى تحل بقصيدة ينظمها شاعر أو مقالة ينشئها أديب . فقد مرت الشعوب الناهضة بأدوار عديدة إلى أن وصلت المرأة عندهم إلى ماهى عليه اليوم ، وليس من شأننا استحسان ذلك ولا استهجانه فى هذه الكلمة . غير أننا نرى أن قضية المرأة وتحررها من القضايا التى يحلها الزمن . ولا مناص لنا من القول إن الدعوة إلى سفور المرأة وتبرجها على لسان الشعراء والأدباء هو آخر ما تحتاج إليه الشعوب الفتية الناهضة إذا وضعت حاجات الشعوب ومطالبها الكبرى فى قائمة تقدم فيها الأهم على المهم فى هذه الحياة .

(العلامة الشبيبى)

الموروثة عدت من المستهترات العابثات ، ورمى أهلها بالتهاون والانحلال والحقيقة أن هذه الظاهرة لا توجد فى العراق فقط ، بل إن الشعور نفسه لا يزال فى أكثر بلاد العربية التى تدين بالإسلام الذى جعل المرأة واجبة الستر مخافة الفتنة ، ولقد جر هذا الاعتقاد إلى تأخر بعض الفنون التى هى مجال للتفوق والبروز على يد المرأة ، ففن التمثيل مثلا ، وهو مدرسة الشعب كما يقولون ، وملقنه المعرفة ، ومزوده الخلق ، ووسيلة نشر الفضيلة ، ورسم للمثل العليا ، ومحاربة الرذيلة . هذا الفن الذى يهدف لأسمى الغايات لا يستغنى فى أشخاصه عن رجال يمثلون أدوار الرجال ، ونساء يقمن بتمثيل أدوار النساء ، و بغير هذا يكون هذا الفن مبتورا ، لا يصيب هدفا ، ولا يحقق غاية ! ولكن ! أى فتاة ترضى لنفسها أن تعد عابثة مستهترة إذا رضيت لنفسها أن تعتلى خشبة المسرح ؟ وكيف يرضى أولياؤها أن يعدوا من المستهينين بشرفهم ؟

كان من أثر هذا الشعور أن انفرد الرجال بمزاولة هذا الفن ، ودور المرأة من يقوم به ؟ إنه رجل يتزيا زى النساء ، ويلحن لحنهن ، ويتكلف حركاتهن ومن هنا أخفق هذا الفن لهذا السبب وحده دون غيره !

رأى الرصافى هذه الظاهرة التى آلمته ، رأى رجلا يرضى لنفسه أن يكون امرأة ، فتنحل شخصيته ، وتهوى رجولته ، ولم يجر هذا الخطب الو بيل إلا المبالغة فى حجب المرأة والتضييق عليها . وتلك نظرة الفطن الأريب الذى سجل بنفثاته نواحى الضعف فى المجتمع :

وما العارُ أن تبدو الفتاةُ بمسرحٍ تمثِّلُ حالىْ عزَّةٍ وإباء
ولكنَّ عاراً أن تزيَّا رجالُكم على مسرح التمثيل زىَّ نساء

.. . وإنه ليرسل شكاته إلى رب السماء بعد ما كاد يقنط من ترديدها على مسامع الناس ، وليست هذه الشكاة الضارعة لشىء سوى جهل النساء وتأخرهن !

وذلك أنا لا تزالُ نساؤنا تعيشُ بجهل وانفصال عنِ الجمعِ
وأكبرُ ما أشكو من القوم أنهمْ يعدُّون تشديدَ الحجابِ من الشرعِ

وللرصافى نفحة شعرية ، أسبغ عليها فنه ، وأضفى عليها سابغ الخيال الرشيق وثوب الشعر الأنيق ، فيصور المرأة حمامة ، وفى حجبها وجهها نتف ريشها ، وليس يطيب لها من دونه التغريد ، وقد حرمت أعز ما تحرص عليه وهو الذى به تطير وحريتها التى يطيب لها بها التغريد . وليس ذلك فى شرع ولا كتاب ولكنه ادعاء المتعسفين الجائرين :

أفى الشَّرع إعدامُ الحمامة ريشَها وإسكاتُها فوق الغصُون عن السجْع
وقد أطلقَ الخلاقُ منها جناحها وعلَّمها كيف الوقوعُ على الزرعِ

ويعود الرصافى إلى أناته وإلى ترديد شكاته ، وهذه المظلومة هى سر شقائه وعلة بكائه ، ولكنه بكاء بغير دموع ، وقد يكون فى الدمع الشفاء مما يقاسى الكليم المعمود :

فتلك التى ما زلت أبكى لأجلها بكاء إذا ما اشتد أدى إلى الصرع
بكيت بلا دمع ومن كان حزنه شديدا بكى من غير صوت ولا دمع

وله إلى جانب هذا الشعر الاجتماعى الوجدانى فى المرأة الشرقية بعامة ، شعر خص به المرأة المسلمة ، لأنها أكثر النساء عذابا ؛ ومن ذلك قوله :

لم أرَ بين الناس ذَا مظلَمَهْ أحقَّ بالرَّحمةِ من مُسلمهْ
قد جعلوا الجهلَ صُوانا لها من كلِّ مايدعُو إلى المأثمهْ
والعلمُ أعلى رتبة عندهم من أن تلقَّاه وأن تعلمهْ

ويدع هذا التصوير لما تكابد من البؤس الأليم من الجهل والحجب إلى ما يرى من وجوب إشراكها فى العمل كالرجل ، ولكنه لا ينادى بهذا على أنه

حق مسلم به للمرأة المسلمة ، ولـكنه يرى هذا الرأى لها لـكسب القوت ، حين تعدم الـكاسب لها ، أو تحرم الولى الذى يقوم عنها بالـكفاح فى سبيل العيش والحياة :

ما تصنعُ المرأةُ محبوسَةً فى بيتها إن أصبحت مُعدِمهْ ؟
ضاقتْ بها العيشةُ إذ دونها شُدَّتْ جميع الطرق المعلمهْ

وعلى عادة الرصافى من مشاركة كل ذى ألم فى ألمه يذرف هذه العبرات على بعض البائسات المقعدات عن طلب الرزق ، فمشن طاويات ساغبات :

كم فى بيوتِ القوم منْ حرّةٍ تبكى من البؤس بعينى أمهْ
قد لوّحتْ نار الطوى وجهَها وأعمل الفقرُ بها مِيسمهْ
عابَ عليها قومُها ضَلّةً أن تـكسِب القوت وأن تُطعمهْ
من أىَّ وجه تبتغى رزقَها وطرْقُها بالجهل مستبهمهْ ؟
وكيفَ والقومُ رأوا سعيها فى طلب الرزق من اللأمهْ ؟

تلك حال قعيدة الدار من الحرائر صيرها البؤس من الإماء،وكان لها من سعيها إن يسر لها السعى ما يضمن لها الإبقاء على عزتها وكرامتها .

لقد شن الرصافى حربا لاهوادة فيها على التقاليد التى لا تعطى المرأة أى حق فى حرية اختيار الزوج الذى كتب عليها أن يكون شريك حياتها ، بل يبيعها وليها بيع السائمة لمن يغدق المهر ، ويغلى الثمن ، دون نظر إلى غير ذلك من المقومات ، وهذا البعل الذى استطاع أن يظفر بها بما أغلاه من المهر ، يبسط عليها ما وسعه من سلطان ، إن شاء ضربها ، وإن أراد حبسها، وإن شاء طلقها ، وهذه هى المرأة بين دار أبيها ، وبيت بعلها محبوسة مظلومة،وهذه المعانى يبسطها الشاعر فى خمسة أبيات صور فيها (هوان المرأة عندنا) :

ما أهونَ الأنثى على ذُكراننا　　فلقد شَجانى ذلّها وخضوعُها
ضَعُفتْ فحجتها البكاء لخصمها　　وسلاحُها عند الدّفاع دموعُها
هى متعةُ المستمتعينَ وليتها　　كانتْ لزاماً لايجوزُ بيعُها
فوليُّها عند الزواج يبيعُها　　وحَليلُها عند الطّلاقِ يضيعُها
وكلاهما متحكِّمٌ فى أمرها　　هذا يعرّيها وذاك يجيعُها

والشاعر غير هذه النفثات معان أخرى سامية فى قصيدته « حرية الزواج عندنا » وفيها يُنحى على الذين تعلقوا بالحجاب ؛ زاعمين بأن فيه الصون والرشاد للمرأة فصاروا يهتمون بظواهر الأمور دون ألبابها ؛ فالحرة الكريمة عندهم من لزمت الحجاب وارتدت النقاب ؟ ولو أخفت تحت هذه الظواهر والقشور شرا مستطيرا :

قلْ للألى ضربُوا الحجابَ على النسا　　هل تعلمونَ بماجرى تحت العبا ؟
شرفُ المليحة أنْ تكون أديبةً　　وحجابُها فى الناس أن تتهذبا
والوجهُ إن كان الحياء نقابَه　　أغنى فتاةَ الحيِّ أن تتنقبا
واللؤمُ أجمعُ أن تكونَ نساؤنا　　مثلَ النعاج وأن نكونَ الأذؤبا

ويصل نهضة الشرق بنهضة المرأة التى لن تكتمل إلا إذا ساهمت فيها المرأة بعلمها وأدبها ، وليس ينهض مجتمع عطل نصف جسمه :

هل يَعلم الشرقُ أن حياتَه　　تعلو إذا ربَّى البناتِ وهذّبا ؟
وقضَى لها بالحقّ دونَ تحكم　　فيها وعلّمها العلومَ وأدّبا ؟
والشرقُ ليس بناهضٍ إلا إذا　　أُدنى النساء من الرجال وقرّبا
فإذا ادّعيتَ تقدّماً لرجاله　　جاء التأخُّر فى النساء مكذّبا

من أين ينهضُ قائماً مَنْ نصفه يشكو السقامَ بفالج متوصّبا ؟
كيف البقاء له بغَيْر تناسبٍ ؟ والدهرُ خصَّص بالبقاء الأسبّا ؟

والرصافى الذى تفتق لسانه بهذا الشعر العاطفى الذى حبابه المرأة وحنا عليها ، وعاب على الواقفين فى سبيل نهضتها ، ومنتزعيها حريتها ؛ هالته آفة من آفات المجتمع الإسلامى ، وهى الطلاق الذى أحله الإسلام لرفع الحرج إذا تعسر الاتفاق بين الزوجين ، ولـكنه جعله أبغض الحلال إلى الله .

وقد اتخذه كثير من المسلمين فى هذا العصر هزوا ولعبا ، فالمتكلم فى لغو الحديث يؤكد حديثه بالقسم بالطلاق ، وكثيرا ما يجر هذا القسم العابث إلى بينونة الحليلة عن حليلها وما يجر ذلك من تخريب بيوت كانت آهلة عامرة ، وتشريد الولدان والولائد أو تربيتهم على الذل والمهانة فى حجور ربائبهم ، ومن خوف هذا المصير لا تشعر المرأة بالأمن أو الاستقرار فى ظل الزوجية ، فبقيت حياتها مضطربة قلقة .

وفى قصيدة (المطلقة) قصة زوجين عاشا سعيدين ، حتى فرق بينهما سبب تافه لا ذنب للزوجة فيه ؛ لقد اختلف زوجها مع بعض خلطائه ، فأراد أن يوثق رأيه فلم يجـد إلا يمين الطلاق :

فأقسَمَ بالطلاق لهم يمينا وتلك أليّةٌ خطأ وحُوبُ
وطلقها على جهل ثلاثا كذلك يجهلُ الرجل الغضوبُ
وأفتى بالطلاق طلاقَ بتٍّ ذوو فتيا تعصُّبهم عَصيبُ
فبانتْ عنه لم تأتِ الدنايا ولم يَعْلَقْ بها الذامُ المعيبُ
فظلتْ وهى باكية تنادِى بصوت منه ترتجفُ القلوبُ

وفى أسلوب قصصى يسوق محاورة أتخيلها بين هذين الحبيبين اللذين فرق بينهما الطيش ، وطوح بسعادتهما الحمق : فهاهى ذى الزوجة تسق زوجها وطليقها

كأس العتاب تفيض بالأسى والحسرة ، وهو لا يزال يظهر لها تعلقه بحبها ، وأنها كلمة شاردة جرت هذا الوبال . و يعرض فى ثنايا هذه المحاورة حكمة الشرع فى إباحة الطلاق وجمود رجال الدين فى فهم مقاصده ومراميه .

وقد أدى هذا الخطب إلى أن وهى حبل الزوجية فلا ثقة بين الزوجين ، ولا طمأنينة بين الإلفين ؛ حتى عمت الحياة الأسرية روح القلق والإشفاق من هول ذلك المصير :

وَهَى حبلُ الزواج ورقَّ حتى يكاد إذا نفخْتَ له يذوبُ
كخيط من لُعاب الشمسِ أدلتْ به فى الجوِّ هاجرة حلوبُ
يمزِّقه من الأفواهِ نفثٌ ويَقطعهُ من النسم الهبوبُ

نستطيع بعد كل هذا أن نقول إن الرصافى قد حبا النساء بما لم يحب به غيرهن ، وإنه نصب نفسه محاميا فى الذود عن حقوقهن فهو نصير المرأة غير منازع ، ومن رواد نهضتها والآخذين بيدها فى الشرق .

وبالرصافى ونظرائه فى العراق وفى غير العراق من شعراء العربية أخذت المرأة سبيلها إلى الحياة ، فانتبهت وكافحت ، فتعلمت ، ولا تزال تناضل الرجل لتقتنص من بين يديه حقها موفورا ، وما وصلت إليه المرأة فى أيامنا يبشر بأن ستبلغ المرأة العربية ما بلغت أختها فى بلاد الغرب ، و بذلك تحقق آمالها التى صبت إليها منذ زمن طويل .

* * *

هذا الذى ذكرناه صورة مصغرة لكفاح الرصافى فى الحياة العامة ، ومظهر لحسن بلائه فيها ، وهو كما ترى كفاح امتد إلى سائر جهاتها ، وشمل كل مناحيها ، يستوى فى ذلك ما استوى فى قرارة النفوس من الملكات التى تصدر عنها الفضائل والرذائل ، وما شمل المجتمع من الظواهر الكثيرة ، ما تباين منها ، وما ائتلف .

الفصل الثالث

غزل الرصافي

وإذا كان فن الغزل أظهر فنون الأدب ، وأزخرها بالعاطفة ؛ فإنك إذا تتبعت ما صاغ الرصافي من غزل أو نسيب أو تشبيب لن تجد فيه أثراً للعاطفة الحادة ، ولا لألم الحب وتبريح الصبابة .

وقد يعلق قلب الرصافي بالمرأة ، ويقع في شراكها ، وقد يتجاوز ذلك إلى الهيام ، ولكنه هيام موقت ، لا يلبث في قلبه طويلا حتى يزايله ، ومن دلائل ذلك ، أنه لا يقصر حبه على واحدة شغفته حباً ، أو هامت به وهام بها بل هو أديب وهو شاعر يهيم بكل ما هو جميل ، وقد يتوزع هذا الجمال بين أكثر من واحدة ، فيتوزع حبه ، ويتفرق قلبه بين هؤلاء الغواني ، ذوات القسامة والوسامة ، فيتقسمن هواه ، كما اقتسمن سمات الحسن وصفات الإغراء .

وأنت مع هذا لا تجده في هذا الميدان كغيره من الشعراء الذين عرفوا بالمخاطرة ، والميل إلى المغامرة ، واقتحام المخاطر ، وركوب الأهوال في سبيل إشباع هذه الرغبة الجامحة ، كما رأيت شيخ الشعراء امرأ القيس وكما رأيت عمر بن أبي ربيعة ، ولا تجده كذلك من أولى الحب الحار والعاطفة المشبوبة كالعذريين ، أو أولى الحب الأفلاطوني كما يسميهم بعض العلماء ، كالذي تجده لجميل بن معمر ومن إليه من رجال الحب البدوي العنيف العفيف ! ولكنه في تنقله قد يشبه من بعض الوجوه عمر بن أبي ربيعة .

و إليك إحدى قصائده فى هذا الباب وهى قصيدة « إلى جميع الغوانى ». وفى عنوانها وحده ما يوحى إليك بما قدمنا :

وقفتُ عليكنَّ قلبى الذى يمرُّ به الحبُّ مرَّ السحابْ
ومنكنَّ أحببتُ هاتى وذى وألقيتُ عذباً بكن العَذابْ
فمنكنَّ بيضاء ما مثلُها عدا خمرة الخدِّ إلا القمرْ
فتلك التى طابَ لى وصلُها كما ليلةَ البدْر طابَ السمرْ
ومنكنَّ حمراء جَذابةٌ حكى وجهُها الشمسَ عند الطلوعْ
أرى عينها (وهى خلاَّبة) فأمسك بالكفّ منى الضلوعْ
ومنكنَّ صفراء فى لونها كأنْ قد تردَّت شعاعَ الأصيلْ
إذا ما تمشَّتْ على هونها أصحَّتْ هبوبَ النسيم العليلْ
ومنكنَّ سمراء تحكى الدُّمى وتبعثُ فى القلب مَيْتَ الهوَى
على شفتيها يلوحُ اللمَى فيضرمُ فى الصبِّ نارَ الجوَى.
ومنكنَّ من هى مثلُ الرياح لها فى ذرى كل قلب هبوبْ
تريدُ غِلابَ جميع الملاح وتبغى عذابَ جميع القلوبْ
ومنكنَّ من هى مثلُ النجومْ من البعد ناظرة تبتسمْ
فتلك عليها فؤادى يحُومْ وتلك إليها الرَّدى أقتحمْ
ففيكن طُرا بوادى الهوى أهيمُ ، وإن لم تَعُدْ عائدهْ
ألا إن حبًّا بقلبى انطوى كثيرٌ فلم تكفِه واحدهْ

وله إلى جانب هذا الهوى المتوزع ، والقلب المتفرق ، غزل مبتذل ووصف مكشوف لا يتورع فيه الرصافى عن ذكر الخفيات ، و إبداء العورات ، فى غير

تحفظ ولا احتشام ، مما يأباه العقل الحكيم ، ويمجه الذوق السليم ، وما كان يليق منه ولا يقبل هذا وهو الذى جعل شعره صورة لمجتمعه ، وقائداً لأمته ، ولا سيما بعد ما عرف إقبال الناس على آثاره وحفظهم لأقواله .

ولعل فى قصيدته التى سماها « بداعة لا خلاعة » التى نظمها فى القسطنطينية ، والتى مطلعها :

مثلتْ فى دلالها عُريانهْ   فأرتنى محاسناً فتّانهْ

أقصى الاستهتار والتبذل فى الوصف ، والكشف فى القصة ، وقد برىء ديوانه المطبوع ، من أمثال هذا الشعر الماجن الخليع .

وإذا كان الشعر صورة لصاحبه ، وتعبيراً عن حياته وأحاسيسه ومشاعره ، فمن الممكن القول بأن الرصافىّ فى هذه القصيدة وما يكون من أمثالها قد عبّر عن ذات نفسه ، وأبرز تجاربه الخاصة فى حياته التى قضى أكثرها عزباً ، وصور آماله ونزعاته تصويراً يوصف بالصّدق ، ولم يستطع فيه أن يكبح جماح شاعريته فى التعبير عن أمثال هذه المواقف التى وقفها والميادين التى خاضها .

وكثير من النقاد لا يعنيهم أن تكون للأدب غاية إنسانية أو اجتماعية بقدر ما تعنيهم إجادة الأديب فيما يعالج من معانٍ وأغراض ، وعلى هذا فإن الفنون عندهم ينبغى أن تعزل عما عدا فنّيّتها ، وليس من رسالة الشاعر أن يكون واعظاً أو قواماً على الدين أو راعياً للأخلاق ، ومن أعلام هذا المذهب قدامة بن جعفر البغدادى الذى نادى فى القرن الرابع بحرية الأدب وأن المعانى كلها معرضة للشاعر ، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه ، إذ كانت المعانى للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد فى كل صناعة من أنه لابد فيها من شىء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة ، وعلى الشاعر إذا شرع

فى أى معنى كان من الرفعة والضعة ، والرفث والنزاهة ، والبذخ والقناعة والمدح .. وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك إلى الغاية المطلوبة ، وليست فحاشة المعنى فى نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه .

ولا تزال نظرية تجريد الفن الأدبى من المقاييس الأخلاقية تشغل بال كثير من النقاد المعاصرين ، ومنهم الأستاذ « كروتشه » الذى يؤكد أن الفن فى حل من كل تمييز أخلاقى[1] ، لا لأنه وهب ميزة التحلل ، بل لأنه لا سبيل إلى انطباق التمييز الأخلاقى عليه . فقد تعبر الصورة عن فعل يحمد أو يذم من الناحية الأخلاقية . . ومع ذلك فإن النظرية الأخلاقية فى الفن قد وجدت فى تاريخ المذاهب الفنية ، وهيهات أن تكون قد اندثرت الآن ، وإن كان اعتبارها قد سقط لدى الرأى العام ، وقد سقط لا لفقدان قيمتها الذاتية فحسب ، بل أيضاً ، وإلى حد كبير ، لزوال القيمة الأخلاقية فى بعض الاتجاهات الحديثة .

ومن تفرعات المذهب الأخلاقى قولهم : إن غاية الفن أن يوجه الناس نحو الخير ويبث فيهم كره الشر ، ويصلح عاداتهم ، ويقوم أخلاقهم ، وإن على الفنانين أن يساهموا فى تربية الجماهير وتقوية الروح القومى أو الحزبى فى الشعب أو إذاعة المثل الأعلى الذى يفرض على المرء أن يعيش حياة بسيطة جاهدة وما إلى ذلك . والحق أن هذه أمور لا يستطيع الفن أن يقوم بها أكثر مما تستطيع الهندسة ذلك ، فهل عجز الهندسة هذا يجردها من حقها فى الاحترام ؟ فليت شعرى لم يريدون إذن أن يجردوا الفن من مثل هذا الحق فى مثل هذه الحال ؟!

ليس جمال الأخلاق محتاجاً لأن يلتمس التأييد من الشعراء أو من رجال الفنون بل إن الفضيلة المسلم بجمالها تستطيع أن تقف على قدميها وتنادى على نفسها من غير داعية أو منادٍ . وإن أخلص الأديب لفنه ، وتفانى فيه فقد

(١) المجمل فى فلسفة الفن لبندتو كروتشه : ص ٣٠

يجره هذا الفناء فى الفن إلى الوصول إلى تقديس الجمال فى كل شىء[١] .

ويرى « جاريت » أن الوجدان الفنى ليس بحاجة إلى الوجدان الأخلاق يستمد منه العفة ، إنه ينطوى فى ذاته على العفة التى هى الحياء الفنى والرهافة الفنية .

ويقول[٢] : ما أضعف إيمان أولئك الذين يرون أن الأخلاق بحاجة إلى تعهد اصطناعى لتقف على قدميها أمام تيار شئون الدنيا ، وبخاصة إلى أن تدس فى الفن على هذا النحو الاصطناعى . إذا كانت القوة الأخلاقية قوة كونية — وهى فى الحق كذلك — إذا كانت سيدة العالم الذى هو عالم الحرية ، فإنها تسود بقوتها الخاصة ، وكلما كان الفن أخلص فى تعبيره عن حركات الواقع كان أتم ، وكلما كان أتم كان أقوى على استخراج الأخلاق من الأشياء نفسها .

وغزل الرصافى تصوير لمغامراته التى أشبع فيها نهمه من شهوات نفسه ، والغزل الحسى هو اللون الظاهر فى هذا الغزل ، أما الحبّ الخالص فلا يجد له مكانا فى هذا الغزل ، ولعله لم يجد له مكاناً فى قلبه الذى يقتنع باللذة الحاضرة ، ويتعلق بالرؤى العابرة لمشاهد الجمال ، وصوره التى تتجدد أمام عينيه ، وخفقات قلبه التى تساير حسنه وتتابع إدراكه لمفاتن الحسن ، كما ترى فى مقطعته « لقيتها فى الطريق » التى يقول فيها :

لقيتُها فى الطريق عابرةً ... يبهرُ من قدّها تبخترُها
أعجبها منظرى وأعجبنى ... بالحسن عند اللقاء منظرُها
فصار قلبى بالحبّ يأمرنى ... وقلبها بالغرام يأمرُها
وحين مرّت والشوقُ يُسكرنى ... بخمـــرة تارة ويسكرُها

(١) راجع كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) ص ٣٥٠ وما بعدها .
(٢) فلسفة الجمال ١٧١ .

لفتُّ جيدى أرى أتنظرنى والتفتتْ لى ترى أأنظرُها
فقلتُ والشوقُ فىّ ملتهبٌ إن عذرتنى فسوفَ أعذرُها

إنك تقرأ فى هذه الأبيات إعجاب الشاعر بنفسه ، وتذكرك بما قال عمر ابن أبى ربيعة ، وقد جعل محبوبته تجرى وراءه ، تسأل عنه أهل الطواف :

قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرّتْ تسعى على أثرى

وأجود النسيب الذى يتم به الغرض ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة وتتظاهر فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، ويكون فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، ويكون جماع الأمر فيه ما ضادّ التحافظ والعزيمة ؛ وتراه يفيض بالعاطفة المشبوبة وآثار الكبت والحرمان وفرحة اللقاء وآلام الفراق . وآية الحب الصحيح ألا ترى فى النسيب عناية بالجسد وأوصافه ، ولا تعرضا للمطالب الجنسية ، بل ترى الصبابة والتوله والكمد فى عفة وسمو أكثر مما ترى شيئا آخر (١) .

ويبدو أن الرصافى قد وقع فى شراك الحب فى مطلع حياته وأنه هو الذى فتق شاعريته ؛ فقد قرر أنه فى مقتبل شبابه كان ينظم البيت والبيتين وثلاثة الأبيات ، ولا يطلع على ما ينظم أحداً ، حتى جاءه الحب ، فنظم شيئا كثيراً من الغراميات ، وكان الذى ينظمه مقطعات لا تزيد أبيات الواحدة فيها على الستة ، وقد جمع ما حصل له من ذلك فى كراسة مع بعض القطع التى نظمها فى فن الهجاء التى دعت إلى نظمها إذ ذاك مماحكة بعض أصحابه ، غير أنه لما أحس بتقدمه فى سبيل الإجادة فى نظم الشعر مزق تلك الكراسة ولم يبق على شىء منها فوجه نفسه إلى كفاح الحياة ، ووجه شاعريته إلى عظائم الأمور فى عالم السياسة والاجتماع .

وهناك لون آخر من هذا الغزل جنح إليه الرصافى فيما جنح ، وعالجه فيما

(١) راجع كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) ص ٣٠٨ ومابعدها

عالج ، ألا وهو الغزل الغلمانى ، الذى ابتدعه أولئك الموالى من الشعراء فى العصر العباسى ، مما صار سبه للأدب العربى ، وجعله قذى فى عين قارئيه ، الذين يرون فيه مظهراً للانحلال الخلقى ، والانحدار الاجتماعى . على أن الذين لا يعنيهم أثر ذلك فى المجتمع ؛ ولا صداه فى نفوس الرجال والشبان وما يجره هذا من الفساد يبيحون للشاعر أن يقول ما يشاء ما داموا يجدون فى قوله لذة فنية ، بغض النظر عما يترتب عليه من وخيم العواقب .

ومن غزل الرصافى فى المذكر أبيات معدودة ؛ نظمها فى مقطعاته منها مقطعته التى أسماها « وجه نعيم » وفيها يقول :

أسبغَ الله نعيمَ الـ حُسنِ فى وجهِ نعيمِ
قمرٌ أغنى فى الإشـ ـراق عن ليل بهيمِ
علّم الناسَ صحيحَ الـ حبِّ بالطرف السقيمِ
يرجعُ السّحرُ بعينيه إلى عَهد الكليمِ

وفى مقطعته « عند لعبة البيلارد » ترى هذا الغرض فى وصف جماعة من الغلمان يزاولون هذه اللعبة :

يُدحْرجهنَّ أغلمةٌ ظِرافٌ نسيتُ بهم مغازلةَ الإناثِ
بأيديهم عصىٌّ مشرعات مهيأةٌ لضربٍ واحتثاثِ
فكان إذا انحنى للضَّرب منهم غلامٌ هاج شوقى وهو جاثِ
ورُبّةَ ضربةٍ لما تثنىَّ ليضربَها تثنىَّ بانخناثِ
وكانتْ توبةٌ لى عنْ مجون فعادتْ من هواهُ إلى انتكاثِ
فلستُ وقد تجدّد لى غرامٌ أبالى لومَ ألسنةٍ رثاثِ

فأنت ترى تصريحه بأثر هؤلاء الفتيان فى نفسه ، وترى ذكره لما كان قد عزم عليه من التوب ، ثم ترى عودته بتأثير هؤلاء إلى ما تاب عنه ، فتجدد غرامه ، وليس يبالى بعد ذلك أن يتناوله الناس بالقالة !

الفصل الرابع

سائر أغراضه

ومع هيام الرصافى هذا الهيام الشديد بمجتمعه ومع هذه الثروة الاجتماعية التى خلفها فى ديوانه المطبوع من الشعر الاجتماعى ، نجده كذلك الشاعر العاطفى المبدع ، الذى تعددت نواحى شاعريته ، وتنوعت جوانب إبداعه ، فلم يدع الرصافى بابا من أبواب الشعر طرقه الأقدمون ، أو عالجه المحدثون ، ولا فنا من فنونه ، إلا وقد تصرف فيه وعالجه علاجا قويا . فبدت له هذه الشاعرية المكتملة الناضجة الشاملة ، فمدح، وهجا ، ووصف، وتغزل، ورثى ، ورضى ، وشكا، وفخر.

الوصف

الطبيعة فى شعر الرصافى :

ولكن أهم هذه النواحى جميعا هى وصفياته ، فقدتصرف الرصافى فى الوصف وتوسع توسعا عظيما ، وأهم ماتناوله بالوصف الطبيعة بما فيهامن جمال و إبداع فى السماء ونجومها ، والأرض وجبالها ، ووهادها ووديانها ، والبحار والأنهار وعظمتها .

لقد افتتن الرصافي بالطبيعة افتتانا ملك عليه لبه ، واستولى على مشاعره فكان ترجمانا لهذه الطبيعة التى وقف حيالها موقف المصور البارع ، المأخوذ بسحر جمالها ، وهو أحد أولئك الشعراء الذين ألهمهم الكون ، فقرءوا فيه سطور الإبداع ، وصاغوا منها غرر شعرهم :

قرأتُ وما غيرُ الطبيعة من سفرِ صحائفَ تحوى كل فنٍّ من الشعرِ

أرى غُررَ الأشعار تبدُو نضيدةً   على صَفَحات الكون سطرًا على سطرِ

وهو فى هذه المواقف قد ينحرف عن غايته من الإشادة بهذه المناظر الباهرة ، والتغنى بالصور الساحرة التى شحذت عبقريته ، وألهمت شاعريته ، فيقف موقف المفكر المتأمل الذى يجد فى استكناه أسرارها ، والإحاطة بحركاتها ويحاول أن يتفلسف ؛ فيتنكب به المسلك ، وينبو عنه السبيل ، وتغلب شاعريته الثرة على ما كان قد حاول من إنعام النظر ، وإعمال الفكر والعقل .

ونقف أمام القصائد الوصفية الخالصة التى انبثت فى ديوانه فكسته حمرة الشفق وزرقة السماء ، وتلألؤ النجوم ، ونضرة الزروع ، ، وإيناع الورود . ومنها ما أفرد له بابا ، هو سفر هذه الطبيعة المفعمة بآيات الخالق الناطقة بعظمته ، الدالة على إعجازه ، وفى هذه القصائد صب الرصافى شاعريته الصافية فى القوالب الشعرية التى استحق بها أن يكون فى مقدمة الوصافين من مجيدى الشعراء .

ودونك قصيدة (الغروب) لترى الشعر الفنى الأصيل . وترى التشبيهات البارعة . قال يصف قرص الشمس حال الغروب :

نزلتْ تجرُّ إلى الغروب ذيولا   صفراء تشبهُ عاشقا متبولا
تهتزُّ بين يد المغيب كأنّها   صَبٌّ تململ فى الفراش عليلا

وهى حين أشرقت كانت ضاحكة ، وحين همت بالمغيب صارت تبكى دما :

ضحكتْ مشارقُها بوجهك بكرةً   وبكتْ مغاربُها الدماء أصيلا
مُذحَانَ فى نصف النهارِ دلوكها   هبطتْ تُريد على النّزول نزولا
قد غادرتْ كبدَ السماء منيرةً   تدنُو قليلا للأفُولِ قليلا

ثم يشبه وجهها بالورس ، ويشبهها بالعرارة حين تدركها الصفرة والذبول :

حتى دنتْ نحوَ المغيب ووجهُها   كالورس حالَ به الضياء حيولا

وغدتْ بأقصَى الأفق مثل عرارةٍ　　عطشت فأبدتْ صُفرةً وذبُولا

ثم يدع هذا إلى الشفق الذى يعقبها فى المغرب :

غربت فأبقتْ كالشُّوَاظِ عقيبها　　شفقا بحاشية السَّماء طويلا

شفقٌ يروعُ القلبَ شاحبُ لونه　　كالسَّيفِ ضُمِّخَ بالدِّما مسْلولا

ولم يقف عند تشبيه الشفق بهذا السيف المسلول ، المضمخ بالدماء بل أتبعه بعدة تشبيهات بارعة ، فشبهه بدمع اليتيم الذى يشوبه دم الحسرة والهوان والظلم . ولا غرابة فى هذا التشبيه الذى أورده الرصافى الذى لم تفارق خياله أنات المظلومين ، وزفرات البائسين ، حتى فى مثل هذه المواقف الملهمة ، التى كان يرتقب فيها أن تسرى عن نفسه ، وتخلى حينا بينه و بين آلام المجتمع :

يحكى دمَ المظلوم مازج أدمعاً　　هملتْ بها عينُ اليتيم همولا

رقّتْ أعاليه وأسفله الذى　　فى الأفق أشبهَ عصفرا محلولا

وكأن الشمس رفعت بهذا الشفق ردنا مبتلا بذوب ضيائها ، وكأنها الغادة تودع إلفها ، ملوحة له بمنديلها :

كالخود ظلتْ يومَ ودّع إلفها　　ترنوُ وترفعُ خلفَه المنديلا

ويدع هذا الوصف الفنى لمنظر الغروب إلى تلك الصور المادية يرسل إليها مدى طرفه ، فينبعث صداها فى قلبه ، فيرى المروج والحدائق ذات اليمين وذات الشمال ، وتروعه أصوات الدوالى ، وكأنها عويل المحزونين ، وعن كثب ذلك الراعى يروح بشويهاته إلى مراحها ، وفى ناحية أخرى ذو بر ذونتين يعود بهما إلى مأواه ، وقد أنحله الجد طوال يومه . وفى أقصى الأفق دخان متصاعد إلى أجواز الفضاء ، وكأنه سبب يصل السموات بالأرض، انظر إليه فى هذا الاستقصاء البديع :

لم أنس قُربَ الأعظمية موقفى والشمسُ دانيةٌ تريدُ أفولاً
وعن اليمينِ أرى مُروجَ مزارع وعن الشّمال حدائقاً ونخيلاً
وتروعُ قلبى للدّوالى نعرة فى البين يحسَبها الحزينُ عويلا
ووراء ذاك الزرع راعى ثلّة رجعتْ تؤمُّ إلى المراحِ قفولاً
وهناكَ ذُو برذونتين قد انثنى بهما العشىَّ من الكراب نحيلا
وبمنتهىَ نظرى دخانٌ صاعدٌ يعلو كثيراً تارةً وقليلاً
مد الفروعَ إلى السماء ولم يزلْ بالأرضِ متّصلا يمدّ أصولاً
وتراكبتْ فى الجوِّ سُودُ طباقه تحكى تلولا قد حملنَ تلولاً

ثم يصور الليل ورهبته ، وحزن الحزون والسهول على فراق الشمس ، وصور الظلام عزرائيل النور ، وقد أذهلته دجنة الليل ووحشته ، فظل يحسب كل شخص غولا ، وأنه أخذ يخبط فى الظلام ليس له من هاد إلا نجمة القطب ثم طلعت نجوم الليل تترى فآنست وحشته ، وبددت أوهامه ، ثم انتقل إلى عظمة خالق هذه الصور :

سُبحانَ من جعل العوالم أنجماً يسبحْنَ عرضا فى الفضَاء وطولاً
كم قد تصادمتْ العقولُ بشأنها وسعتْ لتكشفَ سرَّها المجهولاً
لا تحتقرْ صغرَ النجوم فإنما أرق الكواكب ما استبان ضئيلا
دارتْ قديماً فى الفضاء رحَى القوى فغدا الأثيرُ دقيقَها المنخولاً
فاقرأ كتابَ الكوْنِ تلقَ بمتنه آياتِ ربِّك فُصِّلتْ تفصيلا
ودَع الظنونَ فلا وربِّك إنها لم تغنِ من علم اليقين فتيلا

وللرصافى عدا هذه الخريدة ، وصف رائع وصف فيه السماء والبدر فى المزيع

الأخير من الليل والنجوم المنتشرة فى الفضاء ، كأنها عقد انفراط من جيد حسناء :

ركبته وبياضُ الليل تحسبه صدرَ المليحة مكشوفَ التلابيبِ
والبدرُ فى الأفق الغربى ممتقعٌ يرنو إلى الفجر فى ألحاظ مرعوبِ
وللنجومِ بقايا فى جوانبه كالعقد منفرطا من جيدِ رُعبوبِ
وللنسيم هبوبٌ فى مدارجهِ ماينعش الروحَ من نشر ومن طيبِ

وندع — خشية الإطالة — ما منح الرصافى الطبيعة من غالى شعره ، مكتفين بهذه الصورة النموذجية التى أوردناها ؛ وللقارىء أن يرجع إلى ديوانه ليجد نظائرها روعة وقوة شاعرية وفخامة أداء ، كقصيدة « على جسر مود » (١) ومطلعها :

لاتبكِ أربُعهم ولا الأطلالا واربأ بحبّك أن يكونَ خيالا

وقصيدة « على البسفور » (٢) ومطلعها :

وَقفتُ على البُسفور والريحُ عاصفٌ وللدَّوْحِ ظلٌ دونَه متقلصُ

وقصيدته « وقفة فى الروض » (٣) ومطلعها :

ناحَ الحمامُ وغرّد الشحرورُ هذا به شجنٌ وذا مسرورُ

وغير هذه كثير مما تأنق فيه الشاعر فأبرز الطبيعة فى حلتها القشيبة المستحبة . وكما وصف الرصافى هذه الطبيعة المتألقة كلما عبر عليها الزمن زادها جدة ، كذلك وصف آثار العمران والحضارة من حدائق ذات بهجة نسقتها أيادى الفنيين ، وقصور شاخات شادها المترفون ، وطرقات تشق المدائن وتنتظمها إلى غير ذلك من أسباب المدنية ومستلزمات الحضارة .

---

(١) ديوان الرصافى صفحة ٢٢٦ (٢) ص ٢٢٧ (٣) ص ٢٣٦

المخترعات الحديثة :

والرصافى كغيره من الشعراء فى عصر النهضة الحديثة ، الذين استهوتهم مظاهر المدينة وأخذت بلبهم المستحدثات فى هذا القرن العشرين ، فوصفوها وأبدعوا فى وصفها ما استطاعوا ، وأشادوا بأثر العلم الذى أمد الحياة كل يوم بمستحدث جديد ، يزيد فى رفاهية الإنسانية ، ويعمل على إسعادها .

ومن آياته فى ذلك قصيدته (فى القطار) وقد صاغها فى مطلع هذا القرن وكان (القطار) إذ ذاك أعجوبة من الأعاجيب التى جاد بها الزمن فأنقذ الناس من تسلق الجبال ، واعتلاء الهضاب ، وهبوط التلاع والوديان ، وكان فى ذلك من شق الأنفس مافيه . وكان شعراء النهضة هم الذين عبروا عن هذا الإعجاب أجمل تعبير ، وفى مقدمتهم شاعرنا الرصافى قال :

وقاطرةٍ ترمى الفضَا بدخانها ... وتملأُصدرَ الأرض فى سيرها رُعبا
لها منخرٌ يبدى الشواظَ تنفساً ... وجَوفٌ به صارَ البخارُ لها قلبا
تمشّتْ بنا ليلا تجرُّ وراءها ... قطاراً كصفّ الدوح تسحبهُ سحبا
فطوراً كعصف الريح تجرى شديدةً ... وطوراً رُخاء كالنسيم إذا هبَّا
تساوَى لديها السَّهل والصعبُ فى السرى ... فما استسهلتْ سهلا ولا استصعبتْ صعبا
تدكُّ متونَ الحَزن دكا وإنها ... لتنهبُ سهلَ الأرض فى سيرها نهبا
يمرُّ بها العالى فتعلو تسلقا ... ويعترضُ الوادى فتجتازُه وثبا
وتخترق الطودَ الأشمَّ إذا انبرى ... وقد وجدتْ من تحت قبَّته نقبا
يرن بجوف الطودِ صوتُ دويِّها ... إذا ولجتْ فى جوفة النفق الرحبَا
لها صيحةٌ عند الولوج كأنها ... تقولُ بها : ياطودُ خلِّ لىَ الدَّربا

وتمضى مُضىَّ السهم فيه كأنما ترى أفعوانا هائجاً داخلَ الثقبا
تغالبُ فعلَ الجذب وهى ثقيلةٌ فتغلبُ بالدفع الذى عندَها الجذبا
طوتْ بالمسير الأرضَ طيا كأنها تسابقُ قرصَ الشمس أن يدركَ الغربا
وما إن شكتْ أيناً ولا سئمتْ سُرًى ولا استهجنتْ بُعداً ولا استحسنت قربا

وبعد هذا الوصف البارع ، والتشبيهات المادية الظاهرة ، والتقصي الجامع ينتقل إلى هذا العصر الذى يسميه (عصر البخار) فيشيد به ، ويشير إلى موازنة عابرة بين الكهرباء والبخار فيقول :

تعاليتَ ياعصرَ البخار مفضلا على كل عصر قد قضَى أهلُه نحبا
فكم ظهرتْ للعلم فيك معاجزٌ بها آمن السيفُ الذى كذَّبَ الكتبا
تظاهرْتَ من فعل البخار بقوَّة يذلل أدنى فعلها المطلبَ الصعبا
وأقسمُ لولا الكهرباءةُ فوقه لقلتُ على كلِّ القوى تِهْ به عجبا

وله قصيدة أخرى وصف فيها مخترعا حديثا هو السيارة وعنوان القصيدة (سفر فى التومبيل) وقد أجادفيها الوصف ، وأحسن السبك ، وتدفقت شاعريته تدفق المورد الذى لا ينضب ، وفيه من حلاوة الأساوب ، وجودة السبك وروعة التصوير ، ما يرفعه إلى رتبة الفحول فى عصور العربية الزاهرة ، ومن هذه القصيدة :

كأنها وهى بالمطَّاط مُنعلةٌ تمشى بأخفاف أنواق مطاريبِ
يمرّ كالريح لم تسمعْ لأرجله سوف حفيف كنفخ فى الأنابيب
وتنكرُ الخيل إن جارته فى سنن ماتعرفُ الخيلُ من حضر وتقريبِ
تظلُّه قُبة فيه منجَّدةٌ قد زانها حسنُ تنجيد وتقبيبِ

يخالُ من حلَّ فيها نفسَه ملِكاً ... يُزْهى بتاجٍ على الفَوْدَيْن معصوبِ

ومنها :

فطارَ من غير تحليق براكبه ... بل مرَّ يَمْطرُ مطْراً فوقَ ملحوب

وسار سيراً دراكاً ملء مهْيعه ... كالوبل يتبع شؤبوبا بشؤبوبِ

فكنتُ أبصرُ حولى الأرضَ جاريةً ... كمثل تيار بحرٍ وهو يجرى بى

يلوحُ فصل الربا وصلا فأحسبها ... من سرعة المرّ قد صفت بترتيبِ

ما زالَ يجتازُ بى مافى البسيطة من ... سهل ومن جبل عالى الشناخيب

حتى بلغتُ به أقصى مدًى عجزتْ ... عنه العتاق من الجرد السراحيبِ

وكم عــــلابى أنشازاً تسلّقها ... وشابَ فى السير تصعيداً بتصويبِ

وصف مجالس الأنــس :

أما مجالس الأنس ، ومجتمعات اللهو ، فقد عالج الشاعر وصفها ، وتأنق كل التأنق ، والرصافى من عرفت ، هو من لا يتحرج عن تعاطى اللهو ، والتماس أسباب المتعة ، والترفيه عن نفسه ، فكانت له فى هذا الميدان جولات !

والرصافى كما عودنا دائما يقول ما يعنى ، ويعنى مايقول ، ولا أجد عذرا لمن يدعى أن الشاعر كثيرا ما قد يقول ، وكثيرا ما قد يبالغ دون أن يعلق شىء مما قال بقلبه ، فإن صح أن يقال هذا عن غير الرصافى من الشعراء فمانراه يصدق عليه من قريب أو من بعيد .

فإذا قلت : إن الرصافى لا يتحرج عن تعاطى أسباب اللهو ، ولا يحجم عن التماس المتعة والترفيه عن نفسه ، والتعلق بأسباب الهوى ، والأخذ من شهوات الدنيا ولذائذها بنصيب ، فذلك ما تقرؤه فى شعره . وإنك لترى

فى الأبيات الآتية فى وصف مجلس خمر إدمان الشاعر معاقرة ابنة الكرم ، لا يجتزىء منها بالكأس ولا بالكأسين ، ولكنه يقصد إلى كبرى الزجاجات :

ولى عندَ إخوان الصّفا أريحيةٌ إلى كل خِلٍّ فى الزمان موافقِ
إذا ما عقدْنا مجلسَ الأنس بالطلا فبينى و بين السُّكر خمسُ دقائقِ

ثم يأخذ فى تبيان سبب هذا السكر السريع :

أقومُ إلى كبرى الزجاجات مدهقاً بمستقطر من خالص التمر رائقِ
فأقرعُ بالكأس الرويّة جبهتى بشرب كما عبَّ القطا متلاحقِ
أسابقُ ندمانى إلى السّكر طائراً بجنح من الأنسِ المضاعَفِ خافقِ
فما هى إلا بعدَ شُربى سويعة وقد دبَّ من رأسى الطلا فى المفارق

ويصف مجالسته ندمانه على الشراب ، وما يجدون فى حديثه الشهى من المتعة واللذة ، وما يبدو منه من الملاطفة والممازجة والصراحة :

فنادمتُ أصحابى على غير حشمةٍ وقلتُ لهم ما قلتُ غير منافقِ
وأغنيتُهم عن نَقلهم فى شرابهم بمزحٍ طرىٍّ من نُقول الحقائقِ
ولم يُبد فىَّ السكر عند اشتدادهِ سوى شكرِ خلىٍّ ، أو سوى حمد خالقِ

ويلوح أن إدمان الرصافى معاقرة الخمر لم يكن ناشئا عن اعتقاد أن تعاطى الخمر مباح ، فإنك لتراه فى هذه الحال التى وصفها من الإغراق فى السكر لا ينسى حمد خالقه ، أو لعله أقحم هذا المعنى وهو حمد خالقه إقحاماً ، أو لعله احترس به من قالة الناس فيه . ولقد بدأ معروف تعاطى الخمر عبثا ، فصار له ذلك عادة وديدنا ، فلج بها ولجت به ، و « العادات قاهرات » كما يقول فى قصيدة طويلة ترى فيها استنكار الرجل لهذه الموبقات واضحا جليا :

لولم تكنْ هذه العاداتُ قاهرةً لما أسيغَتْ بحال بنت حاناتِ

ولا رأيتَ سكاراتٍ يدخّنها قومُ بوقت انفراد واجتماعاتِ
إن الدخانَ لثانٍ فى البلاءِ إذا ماعدّتْ الخمرُ أولى فى البليّاتِ

فهو يرى بنت الحان منكرا قهر الناس على مزاولته حكم العادة ، ويرى التدخين ثانى البلايا ، وشرب الخمر أولها . ثم يقول فى صراحة إن هذه الخمر حين تروج تجارتها فى الأسواق ، فإن رواجها رواج للباطل ، وهكذا الدهر سوق نافقة للباطل !

لو لم يكُ الدهرُ سوقاً راج باطلها ماراجت الخمرُ فى سُوق التجاراتِ !

وإليك ما وصف به راقصة فى ملهى من ملاهى الآستانة ، لترى الإجادة فى الوصف والدقة فى النعت ، ولترى حركات قلبه تتبع حركات الرقص :

أقبلتْ تنثنى بقدٍّ رشيقٍ ألبستْه البُرْدَ القصيرَ قشيبا
قصّرتْ منه كُمَّهُ عن يديها وأطالتْ إلى النهود الجيوبا
حبَس الخصرَ حيث ضاقَ ولكن أطلقَ النحرَ بادياً والتريبا
هوزىٌّ يزيد فى الحسنِ حُسناً من تزيَّابه وَفَى الطيبَ طيبا

ثم يأخذ فى وصف حركاتها من تثن ، وانقباض وانبساط ، ويصف أثر كل أولئك فى قلوب القوم ، فخفقات قلوبهم تتبع حركاتها ، وعلى وجوههم تبدو آثار فعلها فى افئدتهم ، إن دنت فبشر واستئناس ، وإن نأت فقطوب وابتئاس :

خطرتْ والجمالُ يخطر منها فى حَشا القوم جيئةً وذهوبا
وعلى أرؤسِ الأصابعِ قامتْ تتخطّى تبختراً وَوُثوبا
يعبس الأنس أن تروح ذهاباً ويعيدُ ابتسامهُ أن تؤوبا
فهىَ إن أقبلتْ رأيتَ ابتساماً وهى إنْ أدبرتْ رأيتَ قُطوبا

ثم يصف جارية أخرى قد أعقبتها ، ذات دل وجمال ، وقد مثلت ببندقيتها دور صياد خبير بالرمى ، طب بإصابة الهدف :

وهى فى كلِّ ذا تصيبُ الرمايا مثلما طرفُها يُصيبُ القلوبا

الفلسفيات

نشعر أننا لسنا فى حاجة إلى تعريف الفلسفة ولا الإشارة إلى مناحيها و إلى طبيعة البحث الفلسفى ، ولكن حسبك أن تعرف أنها محاولة عقلية لتعليل الظواهر الكونية والجد فى استكناه حقيقة هذه الكونيات ، فموضوعها الكون بما يشتمل عليه ؛ والطبيعة وما وراءها .

ويحسن بنا أن نتناول كل قصيدة من القصائد المعدودة التى خصص لها بابا لنعرف حظ الرصافى من الفلسفة . وهذه القصائد التى وضعت تحت عنوان (الفلسفيات) فى ديوانه ثمانى قصائد هى : خواطر شاعر ، ووجه ابن آدم ، وما وراء القبر ، ولو ، وحقيقتى السّلبية ، وحياة الورى ، وحبّذ النوم ، و بين الروح والجسد .

فأولى هذه القصائد قصيدته (خواطر شاعر) وفيها بين الشاعر شيئا من الشكوك التى تساوره فى صحة بعض السمعيات ، وصرح أن الحياة قد أقامت أمام العقل أسداداً حالت بينه و بين معرفة الحقيقة ، و يعترف الرصافى بعجزه ، وعجز الناس عن إدراك هذه المعميات ، فعلم الناس فى كنهها نزر، وقام الناس يستشفون ماوراء الستر ، فآبوا بالخيبة والإخفاق .

وتناولت هذه القصيدة مسألة الحياة والموت ، وأبدى أنّ شوقه إلى الموت كشوقه إلى إشراقة الفجر ، كما شبه به الموت غيره من الحكماء ، و يستبشر أن ترقى الأرواح فتعرج إلى السماء فتكون بين الأنجم الزهر .

ويذكر الحياة الشعورية فيقول إن ما للحياة من الشعور لعجيب ، وإن العقل أعجب شأن من شئون الحياة ، فإنها بما لها من الشعور والعقل من المعميات ، وإن كل ما يشعر به الإنسان من شئون هذه الحياة يعجز عن توضيحه المنطق ويعيا عن وصفه اللسان ، إذا حاول التعبير عنه :

وما كلُّ مشعور به من شئُونها   قديرٌ على إيضاحه المنطقُ الحرُّ
ففي النفس ما أعيا العبارَة كشفُهُ   وقصَّر عن تبيانه النظمُ والنثرُ

ويرجع هذا العجز إلى قصور اللغة ، وتحدد الألفاظ ، عن التعبير عن هذه المعانى التى يزخر بها العقل :

وياربَّ فكر حاك فى صَدر ناطقٍ   فضاقَ من النُّطق الفسيح به الصدرُ
وياربَّ معنى دقَّ حتى تخاوصتْ   إليه من الألفاظ أعينها الخزرُ
أرى اللفظَ محدوداً فكيف أسومُه   كفايةَ معنىً فاته العدّ والحصرُ
وأفقُ المعانى فى التصوُّر واسعٌ   يتيهُ إذا ما طار فى جوِّه الفكرُ
ولولا قصورٌ فى اللغى عن مَرامنا   لما كانَ فى قولِ المجازِ لنا عذرُ

ومن هذا ترى أن الرصافى قد احتج بحجة واهية ، فأرجع قصور فكره إلى تحدد اللغة وانحصار الألفاظ ، وهذا كما ترى عذروامٍ ضعيف ، لا يسلِّم به الفلاسفة ولا المفكرون .

وانتقل من هذا إلى معنى آخر ، فأظهر استطاعة الشعر التعبير عن خفقات القلوب ، وعد منه سجع الحمائم ، وحوم الفراشة على الزهر ، ودمعة العاشق يشكو للوصل ما فعل الهجر ، ورنة الثكلى المفجعة بواحدها ، وترجيع المطرب ، وائتلاق الكواكب بجنح الدجى ، وهكذا ترى الشاعر قد ترك هذه المشكلات دون أن يزيح عنها سترا ، وسجل على نفسه وعلى غيره العجز والقصور عن إدراك هذه المعميات .

وقصيدته الثانية (وجه ابن آدم) يشرح فيها دلالة الوجه وقسماته على ما يخفى القلب ، وما يختلج فى الصدر ، مهما يحاول العقل إخفاء ما تكن الصدور ، ثم يذكر ما تسبغه بعض الأعضاء على صاحبها من القسامة والوسامة :

الأنفُ فى وجه ابن آدم زينةٌ فالوجهُ لولا أنفُه متجهمُ
كالهدْب فى شفر العيون فإنه لولاهُ تنشتر العيونُ وتسجمُ

وليس فى هذه القصيدة أكثر من هذه المعانى ، وخلاصتها قول الجاهلى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقصيدته (ما وراء القبر) فيها شكواه من رمى الناس بالكفر كل من أطلق لفكره العنان ، وكل مافى القصيدة ترديد للسمعيات ، ولقاؤه هذه السمعيات بالتساؤل والتشكك، ولم يجب على أى سؤال من هذه الأسئلة جواباً صريحاً يرينا رأيه فى هذه المشكلات والأقوال والمعميات ومطلع القصيدة :

متى تُطلقُ الأيامُ حرية الفكر فينشط فيها العقلُ من عُقلة الأسرِ ؟
ويصدعُ كلٌّ بالحقيقة ناطقاً ويتركُ مالم يدر منها لمن يدرى
أرانا إذا رُمنا بيانَ حقيقةٍ عُزينا ــ معاذالله ــ فيها إلى الكفرِ

وسأل عن موت الجسد ، وحياة الروح ، وتساءل فى تشكك عن تعرف الروح على جسدها ، وهل تظل تذكره وهى فى السماء وهو حطام على وجه الغبراء ؟ وتناول الأرض والسماء ، فقال إن كانت أرضنا سماء لغيرنا ، فهى مصير لأرواح هذا الغير ، وليس يقول جواباً قاطعاً ، حتى نهتدى إلى ما يريد ، ولعلها فلسفة الشك التى تؤدى إلى اليقين ، ولكن أين هذا اليقين ؟ !

ولقد سبق للرصافى فى قصيدته الأولى أن عرض لما ورد من الآثار من تشبيه الحياة بالليل والموت بالفجر والعيش بالنوم والمنية باليقظة ، وهو معنى الحديث

الشريف « الناس نيام فإذا ماتو انتبهوا » وهو هنا يعلن شوقه إلى ذلك الفجر بعد حياته اليائسة المظلمة :

وقد قال بعض القوم إن حياتنا كليل وإن الفجر مطلعه القبرُ
فإن كانَ هذا القولُ فيها حقيقةً فيا شدَّ ما قد شاقنى ذلك الفجرُ
ورُوحُ الفتى بعد الرَّدى إن يكنْ لها بقاء وحسٌّ فالحياةُ هى الخسرُ
وإن رقيتْ نحوَ السماء فحبذا إذا أصبحتْ مأوًى لها الأنجمُ الزهرُ

وهو فى هذه القصيدة يعيد هذا المعنى نفسه ويكرره ، وفى كلتا القصيدتين لم يوضح رأيه ، قال :

لعلّ حياةَ المرء ليلٌ ستنجلى غياهبُه من سكره الموت بالفجرِ
فإن كان ذا حقاً فإنَّ حياتنا كما قيل سترٌ ، والرَّدى كاشفُ السترِ
وقد قيل إن الروحَ تبقى فهل لها عروجٌ إلى الأعلى إلى الأنجمِ الزُّهرِ ؟
وهل تعرفُ الجثمانَ بعد عُروجها فتمكثَ منه فى السّماء على ذكرِ ؟

ويظهر أن الرصافى قد رأى فى هذه الأقوال شيئاً من الطرافة استهواه ، فأخذ يعرضها هذا العرض ، ويكرر هذا التكرار ، بأسلوب تجاهل العارف ولكنه لم يفصح عن النكتة التى يرمى إليها ، وهى أحق شىء بالبيان والإفصاح !

وقصيدته (لو) كلها تمنيات ، وليس فيها شىء من الفلسفة ، ولكنها نقدات للأولين والآخرين ، وفيها شىء من الشعر الاجتماعى كقوله :

لو يجعلُ الناسُ التعاونَ دأبهمْ لتمتَّعوا بسعادة العمرانِ
لو أنَّ أخلاقَ الرجالِ تهذبتْ لتكشَّفتْ حجبٌ عن النسوانِ
ومحبةُ الأوطانِ لولاها لما عرفَ الأنامُ عداوةَ الأوطانِ

ثم نظرة فى السماء والنجوم ، وعرض للمجرة والشمس والأرض ، فيرى

أن هذه الهجرة لا خير فيها ، لأن هذه الأرض التى اقتطعت منها تغلى بالشر ويعرض للثريا والعيوق والدبران، ثم يختتم القصيدة بقوله :

لو لم يكن فزِعاً سُهيلٌ لم يبتْ في أفقه متتابع الخفقانِ

وهذا البيت بمعانيه وأكثر ألفاظه هو بيت أبى العلاء :

وسُهيلٌ كوجنة الحبِّ في اللو ن وقلبِ المحبِّ فى الخفقانِ

إذا استثنينا فى بيت الرصافى زيادة فزع سهيل ، وهو كما ترى من حسن التعليل الذى يعرفه البديعيون ، وليس فيه من الفلسفة قليل أو كثير .

وقد عرضنا لقصيدته التى سماها « حقيقتى السلبية » حين عرضنا لبحث حقيقة عقيدته ، وهى تحوى طائفة من الأوهام والشكوك والإلحاد ، وشيئاً من عيوب المجتمع أيضاً ، وليس فيها سوى قوله :

ولا ممّن يرى الأشياء تفنى بحيثُ تكونُ من عَدمٍ هواء

ولكنْ هنَّ فى جمع وفرقٍ تبدّلُ منهما صورُ البقاء

فهو يجرى مع علماء الطبيعة الذين هاموا بالمادة ودرسها ، وانتهوا من ذلك إلى القاعدة المعروفة « المادة لا تفنى ولا تستحدث » . وهو رأى لمايتته فلاسفة المادة من القول الفصل فيه . وقصيدة « حياة الورى » كلها من باب الحكمة ، أو الحقائق المجردة التى يهتدى إليها نتيجة لإطالة النظر وكثرة التجربة ، وليس فيها جديد من المعانى والأفكار . ثم قصيدة « حبذا النوم » وهى التى حيا بها صاحبة مجلة « الفجر » وفيها نظرة إلى النوم ومايجدى من القوة والنشاط للجسوم المثقلة بتكاليف الحياة ، ومن انطلاق النفس إلى عالم الأرواح والأشباح ، وعنده أن حاجة الجسم إلى النوم لا تقل عن حاجه المصباح إلى الزيت ، وعرض للشبه بين الحى النائم ، و بين الثاوى بين القبور ، وهكذا ترى القصيدة كلها عرضاً

لما يسبغ النوم على النائم من الراحة ، وإطلاق روحه من عقالها لتهيم في أودية الخيال !

أما آخر هذه « الفلسفيات » فقصيدته التي سماها « بين الروح والجسد » وفيها يذكر هذه الصلة الوثقى بين الروح والجسد ، لاصلاح لأحدهما دون صلاح الآخر ، ومن هنا كان هذا الاتصال :

فلا جسدٌ يقومُ بغير رُوحٍ ولا روحٌ بلا جسدٍ تقومُ

ويدعوه هذا الرأى إلى الشك فى بقاء الروح إذا أصاب الجسد البلى ، وسطا عليه الموت ، وهى إن بقيت « وهذا مالا يقبله عقله » فهى حياة دون شعور ، ويرى بعد ذلك أن مادة الروح هى المادة التى نبت منها الجسد وهى هذه الغبراء :

ولستُ أظنُّ أن الروحَ تبقى إذا مُحيتْ من الجسد الرسومُ
وربّما يكونُ لها دوامٌ ولكن غيرَ شاعرة تدومُ
وما هبطتْ من الخضراء لكنْ من الغبراء أنبتها الحكيمُ

ثم انتقل إلى أثر الطعام والشراب وألوانهما فى نمو الجسم ، وفى توليد الحرارة ، والاقتدار على الحركة ، وكل هذه الأقوال ليست له ، وإنما هى لعلماء الفسلجة ! وبعد أن يعرض لما تقوى به وتنشط الجسوم ، يعرض كذلك لما ينمى المشاعر والحلوم من الأنغام الشجية ، وطول تطلعها إلى الجمال ، ويستطرد إلى ذكر الغناء والطرب ، ويحث على الحرص عليهما ، فإن كل كريم طروب ، ولكنه يحذر الشطط والإسراف ، ويدعو إلى التوسط والقصد .

هذه هى قصائده الفلسفية جميعا ، عرضنا لها هذا العرض لتعرف ما اشتملت عليه من الأغراض ، وتقف على تضمنته من المعانى ، لتستخلص منها بعد ذلك

ما نستطيع ، وأكبر الظن أنك لن ترى فيها رأياجديداًللرصافي يصح أن يضاف إلى آراء الفلاسفة القدامى أو المحدثين .

ولسنا ندرى ماجر الرصافي إلى هذا المضيق الوعر ؟ أتراه كان يرى الشاعر لا تكتمل شاعريته إلا إذا عد فى المتفلسفين ؟ إن هذا القول لم يعد له مسوغ فى عصرنا الحاضر ، فإن نظرة المحدثين إلى الشعر فنامن الفنون الجميلة ، لا تستلزم هذه النظرات الفلسفية التي يشحذ فيها العقل ، ويتعلق بالعلوم التى تعنى بالحقائق ، دون هذا الفن الشعرى الذى أجاد فيه من غير سبيل التعلق بحبال الفكر والتأمل ، بل بالصور الخيالية البارعة ، التى خاطب بها القلوب والمشاعر والعواطف ، فكان لها غذاء وريا ، أو بعبارة أخرى ، لم يكن وضع هذه القصائد تحت عنوان « الفلسفيات » الذى اختاره جديراً بالمعانى التى تضمنتها .

المدح

أما مدح الرصافي فقليلة فى ديوانه . والذى يخيل إلينا أن شعر المديح عند الرصافي كان وليد المناسبة ، فقلما خلصت له قصيدة فيه ، وإنما أكثر شعره فيه تجده قد شيب بشكوى الزمان ، وتنكر الخلصاء وقسوة الدهر ، يرفع هذه الشكاة تحمل هذه المعانى ، وفى ثناياها ترى المديح إلى من توسم فيهم الخير ، والعون على صروف الدهر ، اقرأ له قصيدته « إلى غرة آل سعدون » يبدؤها بالمديح ، ليصل منه إلى غرضه الأصلى :

أعبد المحسن السعدون إنى　　أراكَ مناطَ أسباب الرجاء
وأبصرُ من فعالك بدرَ تِمٍّ　　يلألىء من فخارك فى سماء
لذلك قد أتيتُ إليك أشكو　　رثاثة بِزّتى وبِلى كسائى

ويأخذ فى الشكوى فى أبيات كثيرة ، إلى أن يعاود المديح مرة ثانية فينعته

بمزاياه الجمة ، وكبر نفسه ، وعلو همته ، و بشاشة وجهه ، وأصالة رأيه ، واتقاد ذكائه ، وصراحته ، وعذوبة شمائله ، ومروءته وحيائه :

شكوتُ إلى فتىً جمٍّ المزايا　　كبيرِ النفس منفرد السناءِ
فتىً يوليك عند البؤس خيراً　　ولا ينساك فى حَال الرخاءِ
رحيبُ الباع مؤتلقُ المحيّا　　أصيلُ الرأيِ وقّاد الذكاءِ
صريحٌ فى مقاصده إذا ما　　أسرَّ القومُ حسوًا فى ارتغاءِ
زكتْ أخلاقُه فصفتْ ورقّتْ　　فهنَّ لـكل مكرُمة مراءِ
يلاقى الزائرين ببشرِ وجهٍ　　تجلل بالمروءة والحياءِ

ولقد أجازه عبد المحسن السعدون بمبلغ كبير من المال ، أذهب عسره وقضى على شكاته ، ويظهر أنه كانت بين السعدون و بين الرصافى قطيعة ، فتحول إلى مدحة سرى كريم هو « عبداللطيف باشا المنديل » أحد كرام البصرة يمدحه و يشكو إليه ، ما كان يشكوه إلى السعدون ، فمدحه بأكثر من قصيده ومن قوله فيه :

أبا ماجدٍ إنى رأيتكَ مُبصراً　　خفايا أمُور أعجزتْ كل مبصرِ
إذا خفيتْ يوماً عليك حقيقةٌ　　نظرتَ إليها من ذكاء بمجهرِ
و إن ليلةُ الخطب ادلهمّت كشفتَها　　بأوضح صبح من فعالك مسفرِ
وتلك مزايا فيك أعلمت الورى　　بأنَّ بنى (المنديل) أكرمُ معشرِ

و ينكر عليه بعد ذلك أن يكون الموصوف بأصالة الرأى ، وصدق النظر ، ثم لا يفطن إلى ما يعانى الرصافى من قلة ذات اليد ، ومن رقة الحال ، و يقف الرصافى بين نفسه الأبية ، وحاجته الملحة ، وأن إباءه هو الذى أورده هذا المورد ، فلو رضى لنفسه ذلها ، لتدفقت الأموال عليه ، ولأتى إليه على غير هذه الصورة ،

بل لأنى يسحب فضل إزاره ، ويذكر السعدون وحيلولة القضاء القدر بينه وبين جزيل عطائه ، وأن المديح إن كان يباع لكان له (المنديل) خير مشتر :

فهل خفيتْ حالى عليكَ وقد بدا لكلّ صديق أنها حالُ مُقترِ
أتيتكَ من بغدادَ لم أدرِ ما الذى أتى بى إلا أننى فى تحيُّرِ
وأحملُ فى جنبىَّ نفساً غنية وإن شقيتْ منى بجثمان معسرِ
ولو كنتُ فى بغدادَ أرضىَ بذلة لما جئتُ إلا ساحباً فضل مئزرِ
ولكننى قد عِفْتُ أن أردَ الغنى ونفسىَ فى قيد من الذلّ مقفرِ
وما عدَلَ السّعدونُ بى عن وفائه ولكن جرى مجرى القضاءِ المقدَّرِ
ولو أننى بعتُ الثناء بنائلٍ لما رضيتْ نفسى بغيرك مشترِ
وإنّ حديثى عنك غيرُ مرجَّمٍ وإن مقالى فيك غيرُ مزوَّرِ

وهكذا ترى الرصافى يمدح من يسدى إليه فضلا ، أو يمد يداً أو يأمل عطاءه ، وله من هذا اللون مدائح للسيد « مظهر الشاوى » الذى حنا عليه أيام فاقته وأثقله بعطائه أيام محنته ، وقد سبقت الإشارة إلى شىء من مدائحه فيه .

ولا ترى فيما سقناه إليك من المدح جديداً عما خلفه لنا القدماء والمحدثون لأن أسباب الشرف معدودة ، والمآثر محدودة ، والمحامد تعارف عليها الناس من توقد الذهن ، وإجابة الصريخ ، والإسراع إلى ميدان الوغى والجود ، وغير أولئك من الفضائل المعروفة ، والشيم المأثورة .

ولقد سلك المديح فى هذه النهضة الحاضرة مسلكا جديداً ، فاتجه إلى غاية أخرى هى الغاية العامة لا الخاصة التى تستهدف المنفعة الذاتية ، ونفرت روح العصر من مدح الأفراد ابتغاء ثوابهم ، إلى مجد أبطال وضعوا لبنة فى أساس نهضة أممهم ، وقادوها إلى المجد ، وخففوا من الأعباء التى يرزح تحت ثقلها أبناء بلادهم .

و الرصافى لم يقصر أيضاً فى هذه الناحية فمدح الملوك والقادة والأبطال ممن أدوا لأوطانهم ما يجب عليهم تجاهها ، وقد سقنا أمثلة لذلك فى شعره الاجتماعى ، وشعره السياسي .

الرثاء

ويختلف رثاء الرصافى كثيرا عن مدحه ، ففيه تنطلق روح الشاعر على سجيتها ، فيتدفق تدفق الأتي فى غير ما تكلف أو استجداء ، ولا مواربة ولا رياء ، فلا رغبة ولا رهبة ، بل هناك التقدير والإنصاف ، حتى لمن جحدهم فى حياتهم ، وحينئذ تتفجر ينابيع شاعريته بالرثاء العاطفى الصادق .

ولقد كانت مراثى الرصافى أصدق تمثيلا لروح العصر من مدائحه ، فإن فيها شمولا لذوى المواهب ، ومن أسدوا الخير فى أية ناحية من نواحى الخير، رثى الملوك والأمراء ، وبكى العلماء والأدباء ، ونعى الوطنيين الأفذاذ ، والمصلحين الاجتماعيين ، وبهذا اتسعت دائرة رثائه ، فشملت العراقى والشامى والفلسطينى والمصرى والتركى من أقطاب العلم والسياسة فى شتى الأمصار ، وفيها الوفاء كل الوفاء لمن مدوا إليه يد الأخوة والمصافاة .

ومن أصدق رثائه ، وأكثره جوى ولوعة ، مارثى به صديقه « الشيخ محيى الدين الخياط » ، ويبتدىء الرصافى هذه المرثية ، بنظرة فى طبيعة الحياة ، واكتناهها وعدم اهتدائه إلى معرفة أسرارها ، إلى أن بدا له قبس من نور طرب له ، وسرعان ما انطفأ هذا اللهب ، وخمدت هذه الجذوة ، فعاد إلى التخبط فى الحلك ، يقول فى مطلعها :

تفكرتُ فى كنهِ الحياةِ فلم أكنْ — لأزدادَ إلا حيرةً فى تفكرى
وكم بتُّ فيها أخبطُ الليلَ رامياً — إليها بلحظ الطارق المتنوِّرِ

فلا أهتدى من أمرها لمقدَّم ولا أنتهى من أمرها لمؤخَّرِ

و بعد هذه النظرة والحيرة يدخل فيما رمى إليه من التوجع للصدمة ، والتفجع لهول المصيبة فى صديقه ، فيقول :

عليك العفا بيروتُ هل لك بعدما قضى فيك (محيي الدين) من مُتبصِّرِ

فتى كانَ ركناً فيك للعلم والحجى وشرِّ القوافى والكلام المحبَّرِ

فقدنا به صَلْتَ الجبين مهذَّبا كريمَ سجايا النفسِ عفَّ المؤزرِ

لقد عاشَ شيخاً فى العلوم مقدَّما فما ضرَّه أن مات غيرَ معمَّرِ

وفى أسلوب قصصى يرثى الصدر الأعظم « محمود شوكت باشا » الذى اغتاله أحد أعدائه السياسيين ، فيتصور خياله ، و يناجى روحه فى قصيدة أولها :

لقد بتُّ مطروفَ النواظر بالسهدِ تقلبنى فوقَ الفراش يد الوجدِ

تساورنى رقشاء من لاعج الجوى ويقدحُ فى قلبى الأسى وارىَ الزندِ

و يصف طول الليل ، وما يثير فى نفسه من لواعج الأسى :

فأرقبُ تنويرَ النجوم بمقلة ترقرقَ فيها الدمع منفرط العقدِ

أقولُ وفرعُ الليل أسحمُ والأسى يدبُّ دبيب السمِّ فى العظم والجلدِ

متى يسفر الصبحُ الذى أنا راقبٌ أليس قميصُ الليل عنه بمنقدِ ؟

ومعانيه فى هذا الشعر كما ترى جاهلية انتزعها ممن وصفوا الليل وأهواله ، ومن ساورتهم الهموم والأحزان ، كامرىء القيس ، والنابغة الذبيانى ، ثم يأخذ الشاعر فى تصور ما أجراه على لسان « شوكت باشا » من حبه لبلاد العروبة ، وما كان يرجوه لها من الخير ، و يبرئه من ظلم الناس الذين وصفهم بسوء تقدير ما كان ينتوى من إنصاف للعرب ، وتحقيق لحريتهم ، وبهذا جنح الشاعر إلى شىء

من الشعر السياسي ، ليزيل الحفائظ التي كانت كامنة إذ ذاك في صدور العرب ، فنصب الرصافي من نفسه مدافعا عن الرجل ، وقد كان من رجاله المقربين ، وممن سعدوا بلقائه ، وجزيل عطائه ، أيام إقامة الرصافي في تركيا ، وصحبته الجيش الزاحف إلى الآستانة للقضاء على حركات الرجعيين . ويفيق من هذه الصورة القصصية البديعة إلى البكاء والرثاء :

سأبكي وأستبكي الجيوشَ على فتىً ... فقدناهُ فقدَ الغيث في الزمن الصلدِ
فتىً كان في أفق الوزارة كوكبا ... به في دُجى الخطب الخلافةُ تستهدي
وَقد كانَ في وجه الخطوب تبسُّماً ... إذا عبستْ يوماً بأوجهها الرُّبدِ

وفي ديوان الرصافي مرثيتان رائعتان ، رثى بهما أستاذه وشيخه « السيد محمود شكري الألوسي » أولاهما عنوانها « واشيخاه » وعنوان الثانية « في موقف الأسى » وفيهما تقرأ روعة الخطب ، ولوعة البث ، والإشادة بعلم الرجل وفضله وكمال نفسه ، وسمو روحه ، حتى دهي خطبه مصر والبلد الحرام والعراق حيث أصبح الرافدان فيه سطرين للدمع في خديه قد سالا ! وقد عرضنا لشيء من أولى القصيدتين في وفاء الرجل لأساتذته ، أما الثانية ففيها الفرق على تعطل أودية العلم ، وأندية الأدب ، بفقد علمهما الخفاق ، ويدخل في الغرض الأصلي دون مقدمة فيقول :

لمنْ تركتَ فنونَ العلم والأدب ؟ ... أما خشيت عليها من يد العطبِ ؟
تلك المدارسُ قد أوحشتها فغدتْ ... خلواً من الدرس والطلاب والكتبِ
ما إن تركتَ لها في العلم من وطر ... ولا لمنتابها في الدرس من أربِ

ويصف طرب « أبي الثناء محمود » للقاء حفيده في عالم الخلود ؛ في هذه الضجعة المريحة ، بعد طول الجهاد ، وحسن البلاء في تحصيل العلم وتعليمه .

إن الألوسيَّ محموداً عرتْه لدُنْ لاقاكَ محمود شكرى خفةُ الطرب

فاهتزّ لابنِ أبٍ فى قبره وغدا يُبدى الحفاوةَ خيرُ ابن لخير أبِ

بحرين فى العلم عجاجَيْنِ قد ثويا فانصبَّ مضطربٌ فى جنب مضطربِ

من فخر أزماننا فى العلم أنهما علاَّمتا هذه الأزمان والحقبِ

مشيرا إلى الألوسيين النابغين أبى الثناء شهاب الدين ومحمود شكرى ، ثم ينتقل إلى أثر الفجيعة فى بلاد العروبة ، حتى ليحسها أبناؤها فى مختلف ديارهم :

ولم يخصَّ الأسى دارًا نُعيتَ بها بل عمَّ مبتعداً من بعد مقتربِ

من العراق إلى نجد إلى يمن إلى الحجاز إلى مصر إلى حلبِ

ومن حق الألوسى على الرصافى ، أن يأسى عليه هذا الأسى ، ويستشعر الحزن عليه فى حنايا ضلوعه ، وفيما جاوزه من الرجال والأوطان ، ولقد سبق لك أن عرفت صلة الباكى بالمبكى ، وفضله عليه ، فهو الذى أورده حياض العلم والمعرفة ، وأكرم مثواه ، ورعاه وسماه . وليست هذه المراثى إلا تقديرا للجميل ، واعترافا بالفضل لمسديه ، ولهذا تعد مرثيتاه فيه من أجود مراثيه .

وله عدا ماذكرنا كثير من المراثى الجيدة التى يذرف فيها الدموع على الخالدين من الرجال بأعمالهم الجليلة .

ونرى أنّ الرصافى فى هذه الناحية من الرثاء ، قد قصر فنه على من يعرف فضلهم ، ويقدر خدماتهم ومن أحس قلبه بهول المصيبة فيهم ، فحينئذ تجد مرارة الأسى ، وحرارة البكاء . أما إذا أريد على الرثاء فإنك لن تستشعر هذا الألم يحسه الرصافى ، وحسبك دليلا على هذا قصيدته « ذكرى الرجال من حياة الأمم » أنشدها وقت إذ كان فى القدس ؛ فطلب إليه أحد أصدقائه وهو « عادل

أفندى جبر » أن ينشدهم فى حفلة أقامها شبان فلسطين لتأبين « روحى بك الخالدى » يبدؤها بالحكم ، و بشىء من فلسفة الحياة والموت فيقول :

لعمرُكَ لو كانتْ حديداً جسومُنا لأبلتْه من كرِّ الليالى مباردُ
فكيفَ ولسنا بالحديد وإنما جوارحُنا هذى الدماء الجوامدُ ؟
إذا ما افتكرنا فى الحياة وأصلها وغايتها هانتْ علينا الشدائدُ
وماذا عسَى يجدى التوجُّع والأسَى من الموت إذْ كلٌّ على الموت واردُ ؟

و بعد هذه النظرة ينتقل إلى الرثاء فى أبيات قليلة ، كل معانيها مسبوق إليها فهو رثاء صناعى كما ترى من اللون الذى يتكلفه المدفوعون إلى القول من غير باعث وجدانى ، ولذلك لا تجد فيه لذعة الألم ، ولا لوعة الأسى التى تجدها فى شعر المحزونين الذين هدتهم الفجيعة ، وأولئك يصدق عليهم المثل المأثور «ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة » ، و إنما استجابة لداعى الواجب :

وَمنْ تفنَ بعد الموت آثارُ مجده فآثارُ رُحى الخالدىّ خوالدُ
فتىً غمدتْ فيه المنونُ مهنداً وأىُّ حُسام ماله الدهر غامدُ ؟
يعدُّ بألف من رجالِ زمانه على أنه فى الألمعية واحدُ
لقدْ بقيتْ للخالديين بعدَه مناقبُ غر دونهن الفراقدُ
وكم حَبرت أقلامه من صحائف بجيد العلا من درِّهن قلائدُ
نماهُ إلى المجد الصُّراح متمماً به فخره السيفُ الإلهى خالدُ

وهذه الأبيات الستة هى نصيب المرثى وحدها فى هذه القصيدة الطويلة ، ومع ذلك لا تجد فيها شيئاً جديداً ولا وصفا مميزا للمرثى ، ومن الممكن أن تقال هذه الأبيات فى أى مرثى ، إذا استثنيت ما فى الشعر من صناعة بادية التكلف

فى المجانسة بين «الخالدى» و«الخوالد» و«الخالديين» والسيف الإلهى «خالد» ويجنح الرصافى بعد ذلك إلى مالا علاقة له بالموضوع . وهو الثناء ، يزجيه «لعادل جبر» الذى دعاه إلى مشاركة القوم فى بكائهم أحد زعمائهم ، وذلك ما ينبغى أن يتحاشاه شاعر كبير مثل معروف الرصافى .

ولعلك عرفت موضع التقصير وسببه فى هذه القصيدة وغيرها ، مما لم يدفع الرصافى إليه وجده وأساه على من رثاه . مع أن شعر الرثاء أحفل فنون الشعر بالعاطفة ، وهو شعر الحسرة واللوعة الذى يبين فيه الشعور الصافى والعاطفة الصادقة بعد زوال أسباب الرغبة والرهبة من ميت لا يرجى خيره ، ولا ترهب سطوته ، وقد روى الجاحظ عن الباهلى أنه قيل لأعرابى : ما بال المراثى أجود أشعاركم ؟ قال: لأنا نقول وأكبادنا تحترق !. وفى هذه القصيدة تقرأ قول الرصافى :

وإنى وإن لم أحظ منه برؤية ليشهد لى من «عادل» فيه شاهد

فترى أنه لم يعرف «روحى الخالدى» ولم يره ، ومن هنا كان الثناء الذى حبا به داعيه إلى القول «عادل أفندى جبر» أكثر من الرثاء الذى بكى به الميت ، ولذلك كان رثاء ضعيفا متهافتا .

وكثيرا ما يلجأ الرصافى فى مرثياته إلى تاريخ المرثى ، وإلى ذكر جهاده فى الحياة ، وإلى موقف الناس منه ومن آرائه إن كان صاحب رأى ، ويقف الرصافى عنه موقف المحامى الوفى من موكله ، كما قرأت فيما رثى به «محمود شوكت باشا» ، وكما تجد ذلك فى قصيدة «هلم نبك» التى رثى بها «عطا أفندى الخطيب» الذى ذكر موته فجأة ، وهو أكثر ما يكون عافية :

قد فاجأته المنايا وهو معتدلٌ كالرمح دقّ على الصفواء فانقصفا

ويذكر دعوته إلى الإصلاح ، ووقوف الحساد فى طريق دعوته ، فأفسدوا عليه منهجه ، حتى ناء بمعارضتهم ، وكان حزنه وكمده هو الذى قضى عليه كما

يذكر الرصافي ، وإن كانت القصيدة لايستطاع أن يستشف منها وحدها كنه هذه الدعوة الإصلاحية التي كان الخطيب يدعو إليها ؛ وكان ضحية جحودها والتنكر لها :

قامتْ بحسّاده الأطماعُ هائجةً ... لمّا رأوه مجدّاً يطلبُ الترفا

فعارضوه بسيلٍ من مكايدهم ... قد سال فاكتسح الآمال واجترفا

وعرقلوا بدعاويهمْ مساعيه ... ومدّوا من دواهيهم له كففا

فظل يرسفُ في مسعاهُ مرتطماً ... فيما يكيدون حتى خالط التلفا

حتى قضَى راسباً في مكرهم غرقاً ... إذ عطل الموتُ منه الكفَّ والكتفا

ومثل ذلك قصيدته « ميتة البطل الأكبر » وهي التي أنشدها في دار المرحوم « عبد المحسن السعدون » في اليوم الثالث من انتحاره ، إذ يعرض لهذا الانتحار فيدفع عن هذا البطل تهمة الخور والضعف ، وجعل انتحاره شرفا له وسراً من أسرار خلوده :

هكذا يدرَكُ في الدنيا الكمالُ ... هكذا في مَوتها تحيا الرجالُ

هكذا يشرفُ موتُ المبتغي ... شرفا ليس إذا ريمَ ينالُ

من كعبد المحسن الشهم الذي ... حقّه بالموت عزّ وجلالُ

ما بعبد المحسن السعدون إذ ... رام قتل النفس مسٌّ وخبالُ

وهكذا يدفع الرصافي عنه المس والخبال ، بما استطاع من الأسباب التي أوردها ، ولقد جهد الرصافي في نفي ذلك عنه ، إكبارا للرجل ، وتقديرا لفضله ووطنيته ، فهي التي أوردته هذا المورد ، وما كان انتحار السياسي ذي الرأي الأصيل والعقيدة الوطنية ، ليبرره الساسة والعلماء في أي عصر من العصور ، والرصافي نفسه هو من لايقر هذا الانتحار ، ولا يرضاه لإنسان وهو القائل :

أشرُّ فعل البرايا فعلُ منتحر وأخشُ القول منهم قولُ مفتخرِ

وإن كان عبد المحسن السعدون من لا يشك فى صدق وفائه لوطنه ؛ وتفانيه فى جلب الخير له ما وسعه ذلك ، وليس يضيره أن أخفق فى مسعاه(١) ولكن الرصافى يكبر من هذا الانتحار ، ويعرض لسببه فيما يأتى :

أعملَ الرأىَ وقد جاد له فيه بعضُ القوم واشتدَّ الجدالُ

خذلوه فاغتـــدتْ آراؤه كسهام كسرتْ منها النصالُ

كم غدَا ينصحُهم حتى إذا رَاء أن الداء فى القوم عُضالُ

ورأى أن الذى يرجُوه من طلب استقلالهم شيء محال

ويجعل هذا الدم الزاكى غاليا إلا على الوطن ؛ فانتحاره لا يقل شرفا

(١) عبد المحسن السعدون سليل أسرة عربية نبيلة ، وزعيم قبيلة قديمة ذات مركز ممتاز ، وقد نشأ فى ربوع الإستانة نشأة هادئة لاتقحم فيها ولا مغامرة ، وكان سلوكه السياسى فى العراق موسوما بطابع الرزانة والاعتدال ، فكان ينظر الى مجرى السياسة بروح المتفائل ، ويستقبل الحوادث بصدر رحب ، ويحكم العقل فى واقع الحال ، وكان الى ذلك كثير الثقة بإمكان التفاهم مع الانكليز ، عظيم الأمل بأن أهداف العراق تتحقق مع الزمن .

كان السعدون يعتقد أن التدرج فى العلاقات « البريطانية — العراقية » أمر لابد منه وأنه ليس من المصلحة التقحم فى الأمور ولا الاستعجال فى الطلب ، وهكذا سار مدى سنوات كان مرموقا فيها من الساسة البريطانيين ، منظوراً إليه بعين الإكبار والإجلال ، ولكنه على الرغم من ثقته بإمكان التفاهم مع الانكليز اضطر للاصطدام بهنرى دوبس فى خريف سنة ١٩٢٨ فتخلى عن الحكم فى ٢٠ كانون الثانى سنة ١٩٢٩ . فأثار عمله الحماسة فى القلوب وبعث اليأس من انصياع الانكليز الى قواعد الحق والعدل ، فحاول الإنكليز الخروج من المأزق فأصدروا تصريح ١٤ أيلول سنة ١٩٢٩ فعاد إلى الحكم ليكمل على يده ما كان قد يئس من تكملته فى الماضى ، ولكنه وجد أن قلب المسألة لم يتغير تغيراً يذكر ، وأن النواب الذين جاء بهم انقلبوا عليه ، وأن دار الاعتماد أفسحت المجال للوشاة والمفسدين فأسمعته عتاباً لا تحتمله نفس ابن السعدون الأبية ، فآثر الحتوف على الحياة واستقبل الموت منتحراً فى مساء ١٣ تشرين الثانى سنة ١٩٢٩ بقلب ملؤه اليأس والقنوط ، فكان انتحاره حادثاً لامثيل له فى السياسة العراقية .

[من سلسلة مقالات الأستاذ عبد الرزاق الحسنى (العراق فى ظل المعاهدات) التى كتبها فى مجلة الغرى التى تصدر فى النجف الأشرف ، وقد نشر هذا البحث فى صفحة ٤٢٦ من السنة التاسعة من المجلة المذكورة] .

عن مصرع الجندى فى ساحة الوغى :

جادَ للأوطان منه بدمٍ بسوى أوطانه ليسَ يُسالُ
والفتَى الحرُّ له فى موته سعةٌ إن ضاق بالنفس المجالُ

هذه قصيدته الأولى فى رثاء الرجل ، وإن له لمرثية أخرى فيه عنوانها (ميتة البطل الأكبر) وقد تنوعت مناحيها ، وتعددت جوانبها ، ولكنها على الرغم من هذا لم تفقد وحدة الموضوع . بدأها الرصافى بمنظر الرافدين ، وقد نعى إلى أهلهما البطل الأكبر :

شبَّ الأسى فى قلوب الشعب مستعرا يوم ابن سعدون عبد المحسن انتحرا
يوم به كل عين غير مبصرة إذ كان إنسانُها فى الدمع منغمرا
يوم به البرق رجَّ الرافدين أسى غداة أدَّى إلى أقصاهما الخبرا
فلو ترى القومَ قاموا فى ضفافهما واستنزفوا من شئون الدمع ما غزرا
خلْتَ العراقين خَدَّىْ ثاكل وهما سطران للدمع فى الخدين قد سطرا

ويعرض لتدفق الشعر من أفواه الشعراء رثاء لهذا البطل ، وسيل الدموع حزنا عليه وأسى ، ويوازن الشاعر أبدع موازنة بين الشعر والدمع ، وسباقهما على توفية الرجل حقه من البكاء :

يوم قد انهلَّ فيه الشعرُ منتظما كما قد انهلَّ فيه الدمعُ منتثرا
فبالدموع بكتْ فى يومه شيعٌ وبالقوافى بكتْ فى يومه الشعرا
فالشعر قد قرط الأسماعَ مندفقا والدمعُ قد قرح الأجفانَ منحدرا
فالشعرُ من هذهِ الأكباد بلَّ صدى والدمعُ من هذه الأوطان بلَّ ثرى

ويدخل فى مديح السعدون ويصفه بقوة العزيمة وعظم حيلته وقوة شكيمته

بحيث يعجز الرجال عن مصاولته ، والأبطال عن مطاولته ، وقد أعمل الرأى والحيلة ، ماوسعه الرأى والحيلة فى خدمة وطنه ، وتخليصه من نفوذ العدو ، والشعب يرقب فى صبر ما يأتى من النصر على يد البطل المخلص حتى إذا أعجزه الهدف قتل نفسه :

حتى إذا لم يجدْ للأمر متسعاً ولم يجد عن بلوغ الأمر مُصطبرا
أرمى مسدّسه فى صدره بيد لاتعرفُ الضعفَ فى المرمى ولا الخورا
فيالها رميةً حمراء داميةً قدمات منها ولكن بعدها نشِرا

ولقد نبه هذا الانتحار الشعب من سباته ، وهداه إلى ما يبيت له أعداؤه من المكايد ، وما يصرون عليه من بقاء السيطرة ، والتدخل فى شئونه فاستبان الأمر ، و برح الخفاء وعرف القوم بانتحار السعدون طريقهم إلى الاستقلال ، بعد الحيرة والضلال :

كنا نقاسى ضلالا قبلها فإذا بها الطريقُ إلى استقلالنا ظهرا

ويفرد جزءاً من هذه القصيدة لخطاب الانجليز ، وهذا الجزء من أبرع شعر الرصافى فى السياسة ، فيذكر حيل أولئك الأجانب التى لم تعد تخفى على أحد ، وانتدابهم الذى أصبح جرحاً تعذر على المحنكين علاجه ، وهذه المعاهدات التى تعقد والقوم يعرفون ماترمى إليه ، وما يخشاه المخلصون منها ، ويحذر الإنجليز الاستهانة بالعراق ورجاله ، فرب صغير جرحتفا لكبير :

لاتستهينوا بنا فى ضعف قوّتنا فكم ذبابةِ غابٍ أرعجتْ نمرا

وحثهم بعد ذلك على استدامة محبة العراق ووده ، بتحقيق آماله فى الحرية والاستقلال :

هذى البلاد اغرسُوا فيها مودّتكم ثم اقطفُوا من جناها ودَّنا ثمرا

نمشى إلى الموت من جرّائكم زمراً ... تكن لكم حِلفَ صدق فى سياستكم
ولو جرَى الدمُ حتى أشبه النهرا ... لسنا بقوم إذا ماعَاهدُوا نكثوا

وقد تعجب لهذا القول يصدر عن الرصافى ، من إظهار استعداد بلاده للولاء والنصرة للانجليز وبذل النفوس لهم وهو الذى ناصبهم العداء منذ انتهى الحكم العثمانى وسقطت بغداد فى أيديهم ، ولعل قوله « نمشى إلى الموت من جرائكم زمراً » أعجوبة الأعاجيب ، وآية التناقض وتبدل الرأى عند الرصافى .

ويوازن الرصافى بعد هذا بين « عبد المحسن السعدون » زعيم العراق « وسعد زغلول » زعيم مصر ، فيعرض لما أسداه كل من الرجلين لأمته ، وما ضحى به فى سبيلها من راحته ، فينعتهما بأجل النعوت ، ويقصر عليهما زعامة الشرق :

هذا بمصرَ وهذا ههنا اشتهرا ... سعدٌ وسعدونُ محمودٌ مقامهما
لكن سعدونَ لاسعداً قد انتحرا ... كلا هما قد فدَى بالنفس أمتَه
فى الشرق أعظمَ مذكورين ماذكرا ... فكان بينهما بونٌ وإن غديا
وإن سعداً بمصر قارنَ القمرا ... فإن سعدونَ دانى الشمسَ منزلةً
وذا هناك سعَى للمجدِ مقتدرا ... هذا هنا قد سعَى للمجد مبتدراً

ثم يسأل أهل مصر فى لوعة عن وقع نبأ مصرع السعدون من نفوسهم :

ماقلتمُ عندما أعلمتمُ الخبرا ؟ ... يا أهلَ مصرَ وأنتمْ مثلنا عربٌ
فإنّ سعدونَنا قد أرخص العمرا ... إن كان قد أرخصَ الأموالَ سعدُكم

ولم يرخص سعد أمواله ، وإنما أرخص صحته وشيخوخته ، ورضى بالمجاهدة والكفاح ، ورغب عن الدعة والرفاهية فى سبيل أمته ووطنه ، وقد تلمس فى ذلك تفضيل الرصافى المنتحر على سواه ممن لم ينتحر ، ويرى بهذا البون شاسعاً بينهما ،

ولكن اصرار الشاعر على التماس الموازنة بين مرثيه وغيره من رجال الوطنية في بلاد العروبة اضطره إلى ركوب هذا المركب ، وللشاعر رأيه على كل حال !

ويختتم هذه القصيدة بخطاب البطل الذى خر صريعاً ، فى سبيل وطنه ، ويدعو له بالراحة بعد هذا الجهاد وطول الكفاح ، ويرقب الرصافى ماسيفعل الخلف بعد أن عرفوا موقف السلف : أتراهم يرضون مارفضه ، أم يستبسلون استبساله ، ويصرون على أمانى الوطن مكتملة غير منتقصة ؟ فيقول :

نَمْ مستريحاً فإن الشعبَ مرتقبٌ   ماذا ستفعلُه من بعدك الوُزَرا ؟
أيتركون الذى قد كنتَ تطلبه   أم هم سيقضُون من مطلوبك الوطرا ؟
فالشعبُ منهم مريدٌ ما أردتَ له   وليسَ يقبلُ عذراً ممن اعتذرا

ولقد أطلنا بعض الشيء فى علاج هذه القصيدة لكثرة ما اشتملت عليه من العبر ، ولأنها مظهر قوة الشاعر وبراعته ، وطول نفسه ، وقدرته العجيبة على هذا الاستقصاء فى فن الرثاء ، حتى لتعد من أقوى قصائده ، وأعظم فرائده .

الشكوى

وظاهرة الشكوى من الظواهر البارزة فى الأدب قديمه وحديثه ، عربيِّه وأجنبيِّه ، وذلك من رقة شعور الأدباء ؛ وحدة حساسيتهم ؛ ونشدانهم المثل العليا لأنفسهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه ؛ وما أبعد هذه المثالية المنشودة فى حياتنا ؛ والشعراء دائما نزاعون إلى الحرية بل يُعدُّون رسلها ، كما يُعدُّون المعبرين عن آلام أممهم ، وللحرية أعداؤها من ذوى البطش والسلطان ؛ الذين يصبون جام حقدهم على دعاة الحرية وأنصارها بالاضطهاد والنفى والتشريد والحرمان

بما يفيضون على من يتزلفون إليهم ويصانعونهم ، فتتحدث نفوس المخلصين بقياس مايجدون بما يجد غيرهم ، وتسلم الموازنة إلى مايجلب عليهم الحزن والكمد والثورة على الناس والحياة .

والرصافى فى طليعة الذين قاسوا من آلام الحياة وسطوة الحكام وتنكر الإخوان ، ولذلك كثر شعر الشكوى فى ديوانه ، واتصل بأكثر الأغراض التى عالجها . وفى قصيدته التى وجهها إلى الشاعر الكبير محمد مهدى الجواهرى [١] ، يتحدث عن أولئك الذين تنكروا له ، وجحدوا رسالته :

فلمْ أُلفِ إلا منكرين مكانتى يحيدون عنىّ كالوحوش النوافرِ
وكم راعنى منهم تماسيحُ خِسَّةٍ تريدُ ازدرادى بالحلوق الفواغرِ
فعاملتهم بالصفح عنهم ترفُّعاً وأعرضتُ عن شتم السفيه المهاترِ
أنا اليومَ من هذى الحياةِ على شفاً أشارفُ منه مرقدى فى المقابرِ
سأرحلُ عنهم عائذاً من شرورهم بربٍّ كريمٍ قابلِ التوْبِ غافرِ

ومن قول الرصافى يصف رثاثة بزته ، وبلى لباسه حتى ليستحى أن يخرج به فى وضح النهار ، وذلك من القصيدة التى وجهها إلى « غرة آل السعدون » قال :

لذلك قد أتيتُ إليك أشكو رَثاثةَ بزّتى وبِلَى كسائى
فقدْ رقتْ ثيابى اليومَ حتىّ تكادُ تذوبُ من مسِّ الهواء
غَدتْ شفافةً حتىَّ كأنى لبستُ بهنَّ أثوابَ الرياء

إلى أن يقول وهو من أحسن الاستعارات ، وأجود التشبيهات :

---

(١) نشرت فى جريدة الرأى العام البغدادية — العدد ٤٠٦ فى أول شباط ١٩٤١ م

لبستُ قرارَ بيتى فى نهارى ولم أخلعْهُ إلا فى المساء

فإن جاء المساء لبستُ منه ظلاما ماتمــــزّقَ بالضياء

وصِرتُ أجول كالخفّاشِ ليلا وألجأ فى النهارِ إلى الضّراء

وقد وردت هذه الشكاة فى معرض المديح ، وله غيرها كثير فى تنكر الخلصاء ، و إنــكار البيئة مايراه لنفسه وأدبه من المنزلة الرفيعة .

الفخر

وفن الفخر كذلك من الأغراض التى عنى بها الشعر العربى قديماً وحديثا

فإن المباهاة بشرف النجار وكرم المحتد سليقة العربى فى كل زمان وفى كل مكان ، ماترفع عنه السادة ولا الصعاليك ، وليس ارتياح الممدوحين للثناء ، وطربهم للمديح ، سوى مظهر لهذه الرغبة فى ذيوع محامدهم ، والولوع بانتشار فضائلهم ، وفى هذا مايشفى غلتهم إذا استحوا من المباهاة ، وعجزوا عن المفاخرة . ولــكن الرصافى لم يلتمس الزهو عن طريق الآباء ؛ ولم يلتمس المجد من سبيل الحطام والأشلاء وهو القائل :

قالوا : ابنُ مَنْ أنت ياهذا ؟ فقلتُ لهم أبى امرؤٌ جدُّه الأعلى أبو البشرِ !

قالوا : فهل نال مجداً ؟ قلتُ : واعجبى أتسألونى بمجد ليس من ثمرى ؟

وهذا الفخر بالعصامية جديد ؛ يلائم روح هذا العصر ، عصر العلم والعمل والجدّ والــكفاح ؛ لاعصر الفراغ وبناء المجد بالخطب والتشادق بالــكلام ورواية الأخبار عن السلف الغابرين ؛ ومع جدة هذا المذهب اعتنقته بعض العقليات المستنيرة فى القديم ، فقد تــكلم أرسطو فى الفضائل التى يمدح بها والرذائل التى يهجى بها ، وقرر « أن كل جيل يستأهل المدح لأنه يؤثر لذاته ويمدح،

والفضيلة شيء جميل لأنها تستأهل المدح ، ولأنها غاية ، وهي قوة تستطيع أن تمد الإنسانية بخيرات كثيرة » ومن غير شك تكون تلك الفضائل وقفاً على المتصفين بها . ومن أنصار هذا المذهب في تاريخ النقد العربي قدامة بن جعفر من نقاد القرن الرابع الهجري الذي يرى أن المدح ، وليس الفخر إلا مدحا للنفس ؛ لا يكون إلا بالفضائل النفسية ، وكذلك الهجاء لا يكون إلا بسلب هذه الفضائل ، فإذا سلب المهجو أمراً لا تجانس الفضائل النفسانية كان ذلك عيبا في الهجاء ، مثل أن يوصف بقبح الوجه أو صغر الحجم أو ضآلة الجسم أو الإقتار أو الاعسار ، أو أنه من قوم ليسوا بأشراف إذا كانت أفعاله في نفسها جميلة وخصاله كريمة نبيلة ، أو أن يكون أبواه مخطئين إذا كان مصيباً ، وغويّين إذا وجد رشيداً سديداً ، أو بقلّة العدد إذا كان كريماً . كل ذلك يراه قدامة هجواً باطلا ، كما رأى المديح بالأوصاف الجسمية وشرف الأسلاف ونباهة الآباء مديحا غير جار على وجه الحق[1]

على أن معروفاً وإن أعلن هذه الرغبة عن الفخر وأنكر على المفاخرين فخارهم ، وعده أفحش القول في بعض شعره كقوله :

أشرُّ فِعل البرايا فعلُ مُنتحرٍ   وأفحشُ القولِ منهم قولُ مفتخرِ

لا يستطيع وهو الشاعر الفحل أن يغضي عن علاج هذا الفن ، ففخر بمواهبه وشاعريته فخرا ليس وراءه فخر لمفتخر ، فهو « شاعر العرب المجيد » ، الذي « حلى جيد الدنيا بعقود شعره » ، ولو « قرع به يوما العبيد لخلعوا ربقة العبودية من أعناقهم » ، ولو « استنهض به الجبناء لاقتحموا الأهوال » ، شجعانا وأبطالا ، وهو الذي يحلو للقوم سماعه ، ويصرون على استعادته ، « ولو أعيد ألف مرة » بهذه الأوصاف وغيرها وصف معروف شعره :

---

(١) راجع كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) الطبعة الأولى : ٣٠١

وهكذا تراه لم يترك فخرا لمفتخر بما وهب من هذه الملكة الشعرية البارعة وله من هذا اللون من الفخر بشعره كثير، منه قصيدته التي عنوانها « فى سبيل حرية الفكر » ومنه قصيدته « سياسة لاحماسة » ، وفيها يزهو أشد الزهو حتى لكأن الشعر هو الذى يلتمس ابتكاره ، وهو ليس فى افتقار إليه ، وأن القوافى تمثل بين يد معتذرة وقد أسلست له قيادها ، وأنها فى أسره وخدمته ، فتصرف فيها تصرف المالك المقتدر وغير هذه المعانى التي تجدها فى قوله :

الشعرُ مفتقرٌ منىَّ لمبتكرٍ   ولستُ للشعر فى حَال بمفتقرِ
دَعوتُ غُرَّ القوافى وهي شاردة   فأقبلتْ وهى تمشى مشىَ معتذرِ
وسلّمتنى عن طوعٍ مَقادتها   فرُحْتُ فيهن أجرى جَرْىَ مقتدرِ
إذا أقمت أقامت وهى من خدمى   وأينما سرت سارت تقتفى أثرى
صَرفتُ فيهنَّ أقلامى ورُحتُ بها   أعرِّفُ الناسُ سحرَ السمع والبصرِ
ملــكنَ من رقةٍ رقَّ النفوسِ هوًى   من حيثُ أطربْنَ حتىَّ قاسِيَ الحجرِ
سَقَيتهنَّ المعانى فارتوينَ بها   وكُنَّ فيها مكانَ الماء فى الثمرِ
كم تشرئبُّ لها الأسماعُ مصغية   إذا تُنو شِدْنَ بين البدوِ وَالحضرِ

وفى قصيدته « فى المعهد العلمى » يزهو به كذلك و يعلو و يبعد ، حتى يجاوز النجم علواً و بعدا ، وحتى يفوق الدر صفاء وقدرا :

فللنَّجم بعدٌ دُونَ ما أنا ناشدٌ   وللدُّرِّ قدرٌ دونَ ما أنامنشدُ

وفى قصيدته « على البسفور » يلخص العلا فى بعض شعره :

فيا شعراء القوم كفُّوا وَغا كم   فشرحُ العلا فى بعض شعرى ملخَّصُ
دَعُوا كشفَ مكنونِ الصدور لفطنتى   فإنى بذا من دُونــكمْ متخصِّصُ

ذكاءً لو اجْتَزْتُ الجدارَ بنُوره لشفّ لعينيَّ الجدارُ المجصَّصُ

وإذا نحن تجاوزنا هذه المفخرة للشاعر ، وحسبه هى من مفخرة ، فلدينا لون آخر من فخر الرصافى تجاوز به حدود الفخر ، وعمد فيه إلى التكلف والمبالغة غير المقبولة ، ولعل الشاعر قد ساق هذا الفخر فى سياق تبرمه بالزمان وفعله به ، فهو يعلن عدم اكتراثه بحدثانه ونائباته وعبث الدهر ، ولا يتبرم مما يرميه به من السهام بين حين وحين إلى أن يقول مخاطبا الدهر :

بل أنتَ أحقرُ عندِى من أن تجودَ وتُجْدِى
إنىّ وإن كنتُ أشقَى بأوجُهٍ منك رُبْدِ
رَبأتُ عنك بذمِّى كما رَبأتُ بحمدِى

ويزعم أن الدهر ليس كفواً له ، ولن يرتضيه خادماً إن عرض عليه خدمته فيقول :

إذ لستَ أنتَ بكُفوى ولَستَ أنتَ بندِّى
لو كنتَ يادهرُ حُراً وَجِئْتَ تخدمُ عندِى
لمَا ارتضيتُك عَبْداً ولا خويدمَ عبدٍ !
وكيفَ أرضاك عبداً ؟ وأنتَ أوغدُ وغْدِ ؟

وهذا منتهى الإسراف والتهافت فى المبالغة ، والرصافى هنا ينحو فى هذا التعالى منحى ابن سناء الملك المصرى (المتوفى سنة ٦٠٨هـ) الذى يعد فخره من المبالغات الممقوتة ، ومثلا لهذا الإسراف البغيض الذى لجأ إليه الشعراء أيام فقد الملكة الأصيلة فى عصور تردى الأدب والأدباء فى الغلو واختراع الكذب ؛ حيث يقول فى داليته المشهورة :

ولو مدّ نحوى حادثُ الدهر كفّهُ لحدّثتُ نفسى أن أمدّ له يَدا

وإنكَ عبدى يازمانُ وإننى ... على الرغم منىّ أن أرى لك سيدَا !

ويلحق بهذا الفخر فخر الرصافى بهمته التى تضايق عنها الدهر وصغرت بغداد أن تضمها ، وما وسعتها دمشق ، فيقول مخاطبا أمه :

فيا أمُّ صبراً إنَّ لابنك همةً ... إلى المجد ترْمى أو إلى المجد تسبق

تَضَايقَ عنها الدهرُ مُستعظِما لها ... وأهلُوه عنها يا أميمةُ أضيقُ

أُكلِّف منها الدهرَ ما لا يُطيقهُ ... فليسَ بعارٍ أننى فيه مخفقُ

لَقدْ صَغُرتْ بغدادُ عن أن تضمَّها ... ومَا وسِعتْها بعدَ بغدادَ جِلّقُ

الهجاء

وللرصافى هجاء ، أثبت منه فى ديوانه قدراً يسيراً ، ولعله اجتزأ منه بهذا القدر الذى رأى فيه بعداً عن الإقذاع والفحش ، وأكثر هجوه لمن عاب شعره ، وهو جد حريص على ألا ينال منه عدو نيلا ، وهذه سمة كثير من شعراء العصر الحديث ، الذين كانوا يفرقون إذا ما عاب شعرهم عائب ، ولم يبرأ من الفرق من النقد كثير من أعلام الشعر والأدب ، وكثير من العلماء ، الذين كانت نفوسهم تثور وتضطرم إذا ما حاول واحد الغض من موهبتهم ، أو وجد مأخذاً فى أقوالهم ، ولهؤلاء عذرهم فيما ذهبوا إليه ، فهذا فنهم الذى يعتزون به ، أو هو ميزتهم التى تميزوا بها على غيرهم . وكانت منزلتهم فى الأمة التى ينتسبون إليها بسبب هذه الملكة الشعرية التى عرفهم الناس بها ، وقدروهم بمقدار تجويدهم فيما يصدر عنها .

ومن أهاجى الرصافى لبعض ذوى الرذائل فى بلده الذين تمثلت فيهم مساوىء الأخلاق من التحاسد وثلب الأعراض والنفاق والسعاية والحقد :

رَكضُوا بميدان التَّحاسُد خيلَهم ... وسَبوْا من الأعْراضِ كلَّ مباحِ

لبسُو النفاقَ لهم دروعاً واغتدوْا   يتطاعنُونَ من الخنا برماحِ
أضحوْا كُماةَ وشايةٍ وسعايةٍ   ومن الضغائن همْ شكاةُ سلاحِ

وقال يهجو بعض من عدهم لئاما ، وهم يحسبون أنفسهم كراما :

قَدْ يطفحُ اللؤمُ حتى إنّ صاحبَه   ينسىَ الحياء فيغدُو يدّعى الكرما
إن الجهالة إن كانتْ قذَى بصرٍ   رأى الضلالَ هدًى واستسْمَنَ الورما
ماللغواةِ ارعوالا عن غوايتهم   إن لم يكُ السيفُ يعلوُ منهم القمما
كم منْ أراذلَ أطغتْها سفاهتُها   حتى ادّعتْ وهى أذنابٌ لها الشمما
إن عُدَّت الوحْشُ ما كانتْ ولا بقراً   أوعُدَّت الطيرُ ما كانتْ ولا رخما

وقال فيمن هجاه :

وَذى سفهٍ أكبّ على المخازِى   وما قَبِل النصيحةَ من نَصيحِ
تَروجُ المخزياتُ لديه حتىّ   تُباعُ إليــــه بالثمن الرَّبيحِ
أطافَ بغيِّه وأباحَ شتمى   وكانَ الشتمُ أجدَر بالمبيح
وأغراهُ الضلالُ فـكانَ منىّ   كما كان اليهودُ من المسيحِ
سأضرمُ فيكَ بالـكَلِمُ الأهاجِى   كنيرانٍ تشبُّ تجاهَ ريحِ
تجمَّعت المخازى فيكَ حتى   يعُدَّ الهجوُ فيكَ منَ المديح

ومن أقذع هجائه ماقاله فى بعضهم :

لو كان فى الدَّأماء كلّ عيوبه   بل بعضُهنّ لأنتن الدَّأماء
ولو أنّ فى كرة الهواء طباعَه   فسدتْ فمات بنتْنها الأحياء
ألقتْ عليه يدُ الزمان مخازياً   منها تلوحُ بوجهه الفحشاء

وجهٌ أقام الدهرُ فيه من الخنا سِمةً فعاد وليس فيه حياء
يا ماشياً يختالُ في غُلوَائِهِ أَطرِقْ كَرَى ما هذه الخُيَلاء ؟
هبْ غفلة الجهلاء عنك طويلةً أفليس تعلمُ خِزْيك العقلاء ؟

وقد جرد الرصافى من شعره حساماً شهره فى وجه الذين عرضوا الآرائه فى الدين وطعنوا فى عقيدته واتهموه بالكفر والزندقة ؛ وقد سقنا فى بحث عقيدته مثلا لذلك الهجو المقذع ، كما سبقت نماذج لهجائه لأولئك الذين شككوا فى وطنيته ؛ ولم يحملوا نصحه على الوجه الذى أراد له . ومن ذلك قوله فيمن أفتى بكفره من علماء بغداد لإنشاده قصيدته « فى مسرح التمثيل » التى أنكر فيها تشديد القوم على النساء فى الحجاب :

يأيها المفتى بتكفيرنا مهلا فقد جئتَ بأمر نكير
بأى جهل فيك مستأصلٍ علمتَ ياجاهلُ مافى الضمير
وذاك أمر ليس تنتاشه إلا يُد الله العليمِ القدير
لو كنتَ ذا مجد لأصْلَتْكَ من هجائنا الأيامُ نارَ السعير
بل أنت وغدٌ لاتبالى الهجا وهكذا كلُّ لئيمٍ حقير
وإنما تغتاظُ من هجْوِنا بقدرما تغتاظُ منه الحمير

أما رجال السياسة فإن الرصافى لم يقصر فى النيل منهم إذا رأى فى سلوكهم انحرافا عن آمال الأمة فيهم ، وكان هجاؤه إياهم من أعظم الأسباب فى حربه والكيد له ، ومن ذلك أنه لما نفى بعض رجال الحزب الوطنى وحزب النهضة وسُدّت نوادى هذين الحزبين ، قال الرصافى يخاطب الحزب الذى بقى والذى سمى نفسه « الحزب الحر المعتدل » :

قولوا لحزب تسمّى الحرّ معتدلا هلْ أنت منْ بعد نفى القوم معتدلُ ؟
وهلْ لما حلّ بالحزبين باكيةٌ عيناكَ ؟ أم أنت مسرورٌ به جَذِلُ ؟
تاللهِ ماأنت حرٌ فى مُطالبةٍ وإنما أنتَ للحُكّام مُمتثلُ
وما سعيتَ إلى حقٍّ لتدركه بل أنتَ للأمر فى مسعاك ممتثلُ
قد احتملْتَ من التاريخ لعنتَه للّه درُّكَ ! ماذا أنت محتملُ ؟

وبلغ الرصافى أن رئيس هذا الحزب قال إذ سمع هذه الأبيات : نحن لا نبالى بمثل هذه الأقوال الفارغة ! فقال الرصافى يهجوه :

قال ذو الحزب إذ أتاه مقالى نحنُ لسْنا بما يُقالُ نُبالِى
صادقٌ فى الذى ادّعاه وأنّى يألم الميْتُ من جروح النصالِ
إنما تجزعُ الكرامُ من الذّ مّ وتخشى الأمجادُ لذعَ المقالِ

وقال فى « جاهل متكبر » وتراه يعرّض ببعض النواب الذين يلزمون الصمت :

وشامخ الأنف ماينفك مكتسياً ثوبَ التكبرُ فى بحبوحة النادى
قد لازم الصمتَ عياً فى مجالسه كأنما هو من نوّاب بغدادِ

الفصل الخامس

بين التجديد والتقليد

وأجودُ الشعرِ ما يكسوهُ قائلهُ   بوَشيِ ذا العصرِ لا الخالى مِنَ العصرِ
لا يَحْسُنُ الشعرُ إلا وهو مبتكرٌ   وأيُّ حسنٍ لشعرٍ غيرِ مبتكرِ ؟

عرف الرصافى بثورته وتحلله من كثير مما تعارف عليه الناس ، مما لا يتفق مع مبدئه وهواه من النظر الصحيح إلى حقائق الأشياء ، دون النظر إلى قشورها ، شاعر مجدد فى طليعة المجددين ، فهو شاعر الأصالة الذى لا ينطق بغير رأيه ، ولا ينافق ولا يداجى ، ولقد عرفنا ما جنت عليه الصراحة ، وما جر عليه اعتداده برأيه من صنوف الألم ، وهو أحد أولئك الأفذاذ الذين خرجوا على الاستبداد فى الحكم خروجهم على الاستبداد فى نظم المجتمع وقيوده ، فكان من الطبيعى أن يحاول تخليص شعره من أغلال التقليد ، وربقه المحاكاة ، ليكون صورة لما يضطرم بين جنبيه من الغرام بالحرية والولوع بها .

* * *

وكلما بدأت أمارات العصر تتضح علاماتها ، وتتميز شاراتها ، رأيته أكثر صدوفا ، وأشد عزوفا عن هذا القديم ، وأصدق تمثيلا لهذه العقيدة العربية الآخذة بأسباب النهوض ، فليس الرصافى من يرى جودة القصيد لاتتم إلا ببكاء الدمن والأطلال ، أو بافتتاح قصائده بالتغزل بليلى والرباب أو وصف ابنة الكرم ، أو بث الهوى وتبريح الصبابة ، وإنما ينفذ إلى الغرض الذى يعالجه فى قدرة

عجيبة ، فيستقصى معانيه استقصاء ، فى عذوبة واطراد كاطراد الماء الجارى، وإذا أنت أمام قصيدة طويلة ، لا تحس فيها اللين ، الذى يؤدى إليه الطول من استنزاف المعانى ، والرغبة فى التطويل خشية اتهامه بالتقصير ، وإذا القصيدة كلها تعالج هذا الغرض الذى أراده الشاعر بلا حيد عن القصد ، ولا استطراد إلى مالا غناء فيه .

وهكذا ترى القصيدة وحدة كاملة ، قد برئت من تعدد الأغراض برغم هذا الطول ، الذى يدل على الملكة البارعة ، والاقتدار العجيب . وهذا الحكم لا يختص به بعض شعره دون بعض ، وإنما هو الحكم الصادق الذى ينطبق على أكثر شعر الرصافى ، الذى وسعه ديوانه ، وما لم يتسع له هذا الديوان الضخم ، ومن هنا يصعب على الباحث الاختيار والتمثيل لهذه الحقيقة البارزة ! وحسبك أن تقرأ قصيدته « العالم شعر » لترى أغراضا تبدو لأول وهلة متعددة ، ولكنك حين تنعم النظر تجدها وقد اتسقت فنونها ، وجمعها هذا المعنى :

قرأتُ وما غيرُ الطبيعةِ من سفْرِ صحائفَ تحوى كلّ فنٍّ من الشعرِ

برغم أن عدة أبياتها تقارب الثمانين بيتا . وكذلك قصيدته « أم اليتيم » و « السجن فى بغداد » و «المطلقة » و « اليتيم فى العيد » وهذه جميعا قصائد متتابعة فى أغراض اجتماعية ، فيها ما قدمنا من القدرة الفائقة على « وحدة الموضوع » وما أعجزه وزن ، ولا أعوزته قافية .

* * *

وفى بعض قصائد قليلة إلى درجة الندرة تجده يجنح إلى قليل من التقليد إذ يبدؤها بالفخر ، وهو ذلك الفخر الذى عرفت بشعره ، وترفعه وإبائه ، كما تجد ذلك فى قصيدته التى يحيى بها الذين نهضوا بتأسيس « المعهد العلمى » ومطلعها :

لعَمْرُكَ إنّ الحرّ لا يتقيّدُ ألاَ فليقُلْ ما شاء فىّ المفنّدُ

إذا أنا قصّدْتُ القصيدَ فليسَ لى ... به غيرُ تبيان الحقيقة مقصدُ
نَشدْتُ بشعرى مطلباً عزَّ نيلُه ... وإن هانَ عند الشعرما كُنتُ أنشدُ

ثم يقول :

وَما أنا إلا شاعرٌ ذو لُبانةٍ ... أنوحُ بها حيناً وحيناً أغرِّدُ
وَلى بين شِدْقَىَّ الهريتين صارمٌ ... يُسَلُّ على الأيامِ طوراً ويُغمدُ

ثم يعرض لهذا الشاعر الذى عاب شعره ، فيصفه بالسخف والتقليد ولا غرابة بعد ذلك أن ينتقص الشاعر من لا يجيد الشعر كما انتقص بشاراً حماد عجرد :

ولا عجبٌ أنْ عابنى الشَّاعرُ الّذى ... يقولُ سخيفَ الشعر وهو مقلِّدُ
فإن ابْنَ بُرْدٍ وهو أكبرُ شاعرٍ ... تنقّصهُ فى الشعر حَمّادُ عَجْرَدُ

إلى أن يصل إلى الغرض الأصلى من تحية مؤسسى هذا المعهد ، والإشادة بمجهودهم وما سيدفع البلاد إلى النهضة والحضارة .

فأنت ترى بعُد الفخر عن غرضه ، ولعلها حالة ثورة جعلت الشاعر يضيق بانتقاص حساده وجور نقاده ، فجرى به القلم إلى هذا الذى سجله فى مطلع القصيدة ، ومع هذا التقديم الذى يعد تقليدا ، لن تعدم ما تصل به بين الغرضين ، وهو لجوء هذه الجماعة إليه يستمدون من شعره تأييداً لهم ويلتمسون به عونا وتشجيعاً ، فوصف شعره وفخر به .

ومثل ذلك قصيدته « فى القطار » وهى من أروع شعره الوصفى ، وقد عالجناها قبل ، تراه يبدؤها بالحنين إلى وطنه « وكان إذ ذاك فى الآستانة » ويذكر عداء الدهر إياه وترفعه عن عتابه ، ويفخر بأنه شب على حب المكارم ، وأنه أخو العزمات التى تفل غرب السيوف ، ومطلع هذه القصيدة :

تذكرت فى أوطانِى الأهلَ والصَّحبا ... فأرسلتُ دمعاً فاضَ وابلُه سَكْبا

وبتُّ طريدَ النَّـــوم أختلسُ الـكرَى
بشاخص طَرْفٍ فى الدجى يرقُبُ الشهبا
كئيبٌ كأنَّ الدهرَ لم يلق غيرَه عدوًّا فآلى لن يُهادنه حَربا
وإنّى إذا ما الدهرُ جَرَّ جريرة لتأنف نفسى أن أكلّمه عتبا

ويستطرد إلى جملة من مفاخره ، إلى أن يلج باب الغرض الأصلى ، وهو وصف القطار ، وقد عالجنا هذا الغرض فى وصفياته .

ومثل ذلك يقال فى قصيدته التى مطلعها :

لمن الديارُ يلحْنَ فى الصَّحصَاحِ لعبتْ بهن روامسُ الأرواحِ (١)
ولقد وقفتُ بهـا المطىَّ مسائلاً شجراتِ واديها وهُنَّ ضواحِ
أقتافُ آثاراً لهنَّ دوارساً كانتْ إليها غُدوتى ورواحِى

وفى هذه الأبيات وما بعدها ترى الرصافى غارقاً فى التقليد ، مما لا يحتاج معه إلى معاناة الرد إلى المآخذ ، فكلها معان جاهلية ، ولـكن القصيدة كلها ـ برغم هـذا التقليد فى المعنى تجمعها وحدة الغرض ، وهى ذكر أحبابه الراحلين ومطارح لهوه ومدارج عبثه .

ولا يعجز الرصافى أن يكون كأحد أولئك الشعراء القدماء فى الوقوف على الأطلال الدوارس ، ومناجاة المنازل ، على أن ذلك قليل فى شعره ، ومنه قصيدته التى مدح بها المرحوم أبا المعز السيد محمد القزوينى العالم المشهور يبدؤها ببكاء الدمن الدوارس وتحيتها فيقول :

قِفْ بالديار الدارساتِ وحيِّها واقرا السلامَ على جآذر حيِّها
وانشُدْ هنالكَ للمتيَّمِ مُهجةً فَنيتْ من الأهواء فى عُذْرِيِّها

(١) الصحصح والصحصاح : ما استوى من الأرض وجرد .

ثم يعدو ذلك إلى التشبيب بالمرأة وذكر محاسنها فيقول :

رَشَأٌ إذا أبدى ابتسامةَ شائقٍ　　أجرى المدامع من عيون عَصِيِّها
شَغَلَ القلوبَ بحبِّه ولطالما　　فتكتْ ضعافُ لحاظهِ بقويِّها
مَنْ لى بلثم مقبَّلٍ من شادنٍ　　عذبِ الثنايا الواضحاتِ شهيِّها

إلى أن يصل إلى غرضه الأصلى وهو المديح فيقول :

كأفاضل «الفيحاء» حيث تفاخرتْ　　بسريِّها الجَحْجَاحِ وابنِ سَريِّها
السيدِ السندِ الهُمام محمدٍ　　فرع النبوَّةِ وابنِ خيرِ وصيِّها

فهذى إحدى قصائده التقليديه المعدودة ، وفيما عدا ذلك فسائر قصائده ومقطعاته تجمعها وحدة الغرض فى قوة أسر وجميل أداء .

* * *

وللرصافى معانيه البكر التى يزدان بها ديوانه ، والتى تعد ثروة للعربية الخالدة ولا سيما فى هذه النفثات السياسية التى أرسلها ، والاجتماعيات التى برع فيها براعة منقطعة النظير .

فمن أجل معانيه وأكثرها جدة وطرافة ، ما علل به استمراء الشرقيين الاستعباد وقعودهم على الضيم من أنهم نشئوا فى حجور نساء استعبدوهنّ وهو من معانيه المبتكرة :

ألم ترهم أمسوْا عبيداً لأنَّهم　　على الذُّل شبُّوا فى حجور إماء ؟
وهان عليهم حين هانتْ نساؤهم　　تحمُّلُ جورِ السّاسَةِ الغرباء

ومن تشبيهاته الرائعة تشبيه السها وهو نجم خفى تمتحن الأبصار برؤيته بأديب ثوى بأرض العراق « يريد نفسه » والثريا بقفاز مزين بأحجار الماس :

كأنَّ نجمَ السُّها أديب　　فى أرضِ بغدادَ ذو ثواء

كأنّ خط الشهاب مُدْلٍ لأسفل البئرِ بالرشاء

كأنما أنجمُ الثريّا فى شكلها الباهرِ الضياء

قفّازُ كفٍّ به فصوصٌ من حَجَر الماس ذى الصفاء

ومنها ما أجرى فيه المعنويات مجرى المحسات ، فجعل الظن يشرب ، والحدس يؤكل وما روى الشارب ، ولا شبع الآكل :

لقد طغت حيرة أهل النهى هل فيك يا علم لها مردع ؟

كم نشرب الظن فلا نرتوى ونأكل الحدس فلا نشبع

وإن كان هذا البيت يذكرنا بقول أبى تمام :

كلوا الصبر غضا واشربوه فإنكم أثرتم بعير الظلمِ والظلمُ باركُ

وما قالت النقاد فى قبح الاستعارة فيه ، وفى قوله :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صبٌّ قد استعذبت ماء بكائى

فقد عيب ببعد الاستعارة وقبحها فيه . ودافع عنه الآمدى بقوله: وليس بعيب عندى لأنه لما أراد أن يقول قد استعذبت ماء بكائى جعل للملام ماء ليقابل ما أراد ، ولم يكن للملام ماء على الحقيقة ، كما قال الله عز وجل « وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها » ومعلوم أن الثانية ليست بسيئة وإنما هى جزاء عن السيئة ، وكذلك « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم » والفعل الثانى ليس بسخرية . ومثل هذا فى الشعر والكلام كثير مستعمل ؛ إذ كان مجرى العادة أن يقول : أغلظت لفلان القول وجرعته منه كأسامرة ، وسقيته منه أمر من العلقم[1] .

ومنها فى وصف اليتيم الصغير وأمه تسليه بالبكاء ، ويالها من تعلة يعرفها المعدمون :

---

(١) انظر الموازنة للآمدى : ١١٩ « طبعة محمد على صبيح »

بكى حولها جوعاً ففذته بالبكا   وليس البكا إلا تعلَّة معدم

وفي وصف ظلمات السجن ، وما عراه من الإهمال ، مما يدعو المرء إلى إيثار الموت على الحياة ، فيجعل نزع روحه قيئا :

هناك يودُّ المرء لوقاء نفسَه   وأطلقها من أسر عيش منكَّدِ

وتشبيهه الأحياء بالسفر ليس لهم من زاد ولا راحلة سوى العلم الذي يوصلهم إلى غايتهم التي أزمعوا إليها الرحيل في مفازة الحياة :

نحنُ سَفْرٌ وما الرواحلُ والزا   دُ سوى العلمِ والحياة مفازه

وقوله يجعل عقول الناظرين إلى وجوه الحسان غارقة في ماء الشبيبة :

خدودٌ جرىَ ماء الشبيبةِ فوقَها   ففيه عقولُ الناظرين من الغرقَى

وتشبيهه دجلة والفرات بسطرين من الدمع سالا على خدى العراق حزنا على أستاذه محمود شكرى الألوسى :

أما العراق فأمسى الرافدان به   سطرين للدمع في خديه قد سالا

ومن معانيه الخالصة الجياد ماعبربه عما يفعله الطغاة من نفى الأحرار ثم ندمهم على ذلك ، وتسميتهم الندم عفواً ، وذلك من قصيدة أنشدها صديقه السيد « عمر الصالح » عند قدومه إلى القدس بعد نفيه إلى عكة :

ولقد عفَوْا وهمُ الجناةُ وإن عفا   عنك المسيء فعفوُه استغفارُ

ندمُوا فسمِّيت الندامة عندهمْ   عفواً وذلك منْهم استكبارُ

وحسبنا هذا القدر من التمثيل فإن للرصافي قصائد تفيض بمعانيه المخترعة التي لم يسبق إليها .

* * *

والرصافي من مجيد القصص الشعرى وله قصائد كثيرة في أغراضه الشعرية

ينحو فيها منحى القصاص ، ولا تلمح فى شىء منها أثراً للتكلف ، على أن شعره القصصي ليس من ذلك النوع بمفهومه عند الأوربيين الذى يذكر حياة الأبطال ، ويذكر العصور ، وما يسودها من آراء وأفكار ومعتقدات ، كالذى نراه فى ملحمة هو ميروس « الإلياذة » وغيرها مما خلفه اليونان فى أدبهم . والحق يقال إن الشعر العربى فى سائر عصوره ليس فيه شعر قصصى بهذا المعنى ، وإنما فيه الصورة القصصية الخيالية التى يؤلف الشاعر بين أجزائها ، ويسرد ما كان من قول وفعل ومحاورة تخيلها ، ومن قصائده القصصية « اليتيم فى العيد » و « المطلقة » و « الفقر والسقام » و «رؤياى الصادقة » و « أم اليتيم » وغيرها من القصائد .

وقد تراه يحاكى عمر بن أبى ربيعة وامرأ القيس فى بعض شعرهما القصصى فى تتبع المرأة ووصفها ؛ والتحدث إليها ، كما تجد ذلك فى قصيدته « العالم شعر » إذ يقول:

و بيضة خدر إن دعت نازح الهوى ‌ ‌ ‌ ‌ أجاب ألا لبيك يابيضة الخدر

إلى أن يقول :

مررن وقد أقصرت خطوى تأدبا ‌ ‌ ‌ ‌ وأجمعت أمرى فى محافظة الصبر
فطأطأن للتسليم منهن أرؤسا ‌ ‌ ‌ ‌ عليها أكاليل ضفرن من الشعر
فألقيت كفى فوق صدرى مسلماً ‌ ‌ ‌ ‌ وأطرقت نحوا الأرض منحنى الظهر
وأرسلت قلبى خلفهن مشيعاً ‌ ‌ ‌ ‌ فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى

* * *

وقد كان ولوع الرصافى بالقراءة فى كتب العربية على اختلاف مباحثها مما أدى به إلى أن يتأثر بما قرأ من شعر الأقدمين تأثراً ظاهرا تلمحه فى مواضع متفرقة من بعض قصائده ، وما كان أغناه عن هذا التتبع ، وذاك التقليد الظاهر الذى لايقبل من فحول الشعراء ومبرزيهم .

وما يقال فى الرصافى فى هذا هو ما يقال فى غيره من الشعراء الذين اتفق لهم ما اتفق لغيرهم من الأفكار والمعانى ، من توارد الخواطر ، أوتشبع اللاحق بما قرأ للسابق فجرى على لسانه ، يحسبه لنفسه ، مدفوعاً بعامل الإعجاب وما هو لنفسه ، وهذا الذى نشير إليه الآن من الكثرة فى الشعر العربى بدرجة لا يستطاع معها جحوده ، فلقد وقع لأساطين شعراء العربية ، كما وقع لمن هم دونهم قدرة على الإبداع والابتكار ، حتى أفرد له علماء العربية أبوابا خاصة ، بل كتبا خاصة[1] ، وهم فى ذلك بين منتحل عذرا للشاعر ومتهما إياه بالسرقة والسطو على آثار غيره ، وقد ذكروا ذلك ومثلوا له ، وجعلوه أنواعا ، سموها أسماء مختلفة ، تذكر فى الكتب المفصلة .

وسنورد لك بعض أمثلة مما ظهر فيه تأثر الرصافى بشعر غيره .

(١) قال من قصيدته التى عنوانها (نحن على منطاد) :

لا تلمنى إذا جزعتُ فإنى ماملكتُ الخيارَ فى إيجادى

وهو فى هذا يردد مذهب الذين يقولون بالجبر ، ويشير إلى قول أبى العلاء :

هذَا جنــاهُ أبى علىّ وما جنيتُ على أحدْ

وقول بشار :

طُبعتُ على ما فىّ غير مخيَّر هوایَ ولو خُيِّرتُ كنتُ المهذَّبا

(٢) وقول الرصافى :

صَاحِ ما دلّ فى الأمورِ على الأشـ ـكال إلا تفحُّصُ الأضدادِ

فاعتبر بالسفيه تمسِ حليماً وتعرّفْ بالغىّ طرق الرشادِ

من قول أبى العلاء أيضا :

والشىء لا يكثُر مدّاحه إلا إذا قيسَ إلى ضدّهِ

(١) راجع كتابنا الذى صدر حديثا تحت عنوان (السرقات الأدبية)

لولا غَضَى نجدٍ وقُلَّامه لم يُثْنَ بالطيب على رَنده

(٣) وقول الرصافى :

أيها الغِرُّ لاتغرك دنيا ك بكونٍ مصيرُه لفسادِ

من قول أبى العلاء :

واللبيبُ العاقلُ من ليس يغتـ رُّ بكون مصيره لفسادِ

(٤) وقول الرصافى :

لا أحبُّ النسيمَ إلا إذا هـ بَّ على كل حاضرٍ أو بادِ

من قوله :

فلا هطلتْ علىَّ ولا بأرضى سحائبُ ليسَ تنتظمُ البلادا

(٥) وقوله :

واقفاً تحتَ سرحة ناح فيها طائرٌ فوقَ غُصنها المياد

من قول أبى العلاء :

أبكتْ تلكم الحمامة أم غنَّتْ على فرع غصنها المياد

(٦) وكذلك قولهُ :

قد يحسبُ الإنسان آمالَه والموتُ مُصغٍ نحوه يسمعُ

من قول أبى العلاء :

وربَّ ظمآن إلى موردٍ والموتُ لو يعلم فى وِرْدِه

مع إجادة الرصافى فى الصورة الحسية التى رسمها ببراعة فى الشطر الثانى .

(٧) وقول الرصافى فى قصيدته (الأرض) :

كم على الأرض رُفات بالياتْ من جسوم طحنتها الدائراتْ

فاحتفرْ فى الأرض تلك الطبقاتْ تجد الأنقاضَ فيها رِمما

هى للأحياء أو للشجر

كلُّ وجه الأرضِ للخلق قبورْ　　خفِّف الوطءَ على تلك الصدورْ
والعيونُ النُّجلُ منهم والثغورْ　　إنما أنت ستفنى مثلما
قد فَنُوا والموتُ دامِى الظُّفرِ

من قول فيلسوف المعرة :

خفِّف الوطء ما أظنُّ أديمَ الأر　　ض إلا مِنْ هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قدم العهـ　　د هوانُ الآباء والأجدادِ

وهذه الأبيات كما ترى تابع فيها الرصافى أبا العلاء المعرى ، ولقد عرفت أنه كان ولوعا به كما قدمنا .

(٨) وقول الرصافى :

فشرُّ العالمينَ ذوو خمولٍ　　إذا فاخرتَهم ذكروا الجدودَا
وخيرُ الناس ذو حَسَبٍ قديمٍ　　أقام لنفسِه حسباً جديداً
تراهُ إذا ادَّعى فى الناسِ فخراً　　تقيمُ له مكارمُه الشهودا

من قول الشاعر :

وإذا افتخرْتَ بأعظمٍ مقبورةٍ　　فالناسُ بين مكذِّب ومصدِّقِ
فأقمْ لنفسك بانتسابك شاهداً　　ببناء مجدٍ للقديم محققِ

(٩) وقوله أيضا من القصيدة نفسها :

فدعْنى والفخارَ بمجد قومٍ　　مضَى الزمنُ القديمُ بهم حميدا
قد ابتسمتْ وجوهُ الدهر بيضاً　　لهمْ ، ورأيْننا فعبَسْنَ سُودا
وقد عَهدوا لنا بتراثِ مُلكٍ　　أضعْنا فى رعايته العهودا

من قول الشاعر :

ورثنا المجدَ عن آباء صدق أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسبُ الرفيعُ تداولته بُناةُ السوء أو شَك أن يضيعا

(١٠) وقول الرصافى :

وهل أنا إلا من أولئك إن مَشَوْا مَشَيْتُ وإن يقعدْ أولئك أقعد؟

من قول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غَزيَّةَ إن غوتْ غويت وإن تَرْشد غزيَّةُ أرشد؟

(١١) وقوله : * متى قَيِدَ مجروراً إلى الضيم ينقد ! *

من قول طرفة : * ومن يكُ في حبل المنيَّة ينقد ! *

(١٢) وقوله :

أرى العمرَ مهما ازداد يزداد نقصُه إذاً نحنُ في نقصٍ من العمر دائمِ

من قوله :

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلة وما تنقص الأيامُ والدهرُ ينفدِ

(١٣) وقول الرصافى :

تقدَّمنا قومٌ فأبعد شوطُهم وقد كان عنَّا شوطُهم غيرَ مُبعد

من قوله الطغرائى :

تقدمتنى أناسٌ كان شوطُهم وراء خطوىَ لو أمشى على مَهلِ

مع ما تجد من القوة فى بيت الطغرائى .

(١٤) وقوله فى قصيدة « الدهر والحقيقة » :

وكم عاقلٍ قد عدَّه الناسُ أحمقاً وما هو لو يبلى سِوَى مُتحامقِ

من قول الشاعر :

ولما رأيتُ الجهلَ فى الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنى جاهلُ

(١٥) وقوله :

فأخوكَ من إنْ غابَ عنـ ـك رَعَى ودادك فى غِيَابِهْ

من قول الشاعر :

وليسَ أخى من ودّنى بلسانه ولـكن أخى من ودّنى وهو غائبُ

(١٦) وقول الرصافى :

تعوّدتُ تصريحى بكل حقيقة وللمرء من دُنياه ما يتعودُ

من قول أبى الطيب :

لـكل امرىء من دهره ماتعوّدا وعادة سيفِ الدولة القتلُ بالعدا

وهو معنى قول حميد بن ثور الهلالى :

فإنى امرؤ عوّدت نفسى عادةً وكلُّ امرىء جارٍ على ماتعوّدا

(١٧) وقوله :

و إنّ مياهَ الأرضِ تعذُبُ ماجرتْ ويُفسدها فوقَ الصَّعيدِ رُكودُها

من قول القائل :

إنى رأيتُ وقوفَ الماء يفسدُه إن سال طاب و إنْ لم يَجْرِ لم يطب

(١٨) وقوله يصف بِلى ملابسه :

غدتْ شفّافة حتى كأنى لبستُ بهنّ أثوابَ الرِّياء

فاد فيه من قول التهامى :

ثوبُ الرياء يشفُّ عما تحته فإذا التحفْتَ به فإنك عارِ

(١٩) وقوله :

وما الناسُ إلا خادعٌ أدركَ المُنى وآخرُ مخدوعٌ لها غيرُ مدركِ

من قول عمران بن حطان : * والناسُ من بين مَخْدوعٍ وخدّاعِ *

(٢٠) وقول الرصافى :

قد يقبحُ الشىء وضعاً وهو من حسن كالنعش يدهش مرأى وهو من خشبِ

فالقبحُ كالحسن فى حُكم النهى عرضٌ وليسُ يثبت إلا عند معتبرِ

قريب من قول ابن الرومى :

فى زُخرف القول تزيينٌ لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبيرِ

تقولُ هذا مجاجُ النحل تمدحُه وإن تعِبْ قلتَ: ذا خُرء الزنابيرِ

مدحاً وذمّاً ، وماجاوزتَ وصفهما حسنُ البيان يُرى الظلماء كالنور

وحسبنا هذه الأمثلة لتدل على مدى ما تأثر الشاعر بقراءته واطلاعه ، وولوعه بطول النفس فى القصائد التى اقتبسنا منها هذه الأبيات ، ولقد رأيت أن الرصافى قد تجاوز نقل المعنى ، وذلك ماوقع فيه كثير من الشعراء ، إلى نقل اللفظ نفسه ، مما يجعل الأخذ شيئاً ثابتاً لايقبل الشك ولا التأويل .

* * *

وقد يعجب الرصافى معنى من المعانى ، فيذكره فى أكثر من موضع ، كما راقه تشبيه دجلة والفرات بسطرين من الدموع فى رثاء الألوسى حين قال :

أما العراقُ فأمسىَ الرافدانِ به سطرينِ للدّمع فى خدّيه قد سَالا

فكرر هذا المعنى مع تحوير يسير فى قصيدته « ميته البطل الأكبر » وهى التى رثى بها المرحوم عبد المحسن السعدون ، فقال فى منظر الرافدين :

خِلْت العراقين خَدَّىْ ثاكلٍ وهما سطران للدمع فى الخدين قد سُطرَا

كما أعجبه إضمار الحسو فى الارتغاء ، فذكره فى قصيدته « حقيقتى السلبية » :

أحبُّ صراحتى قولاً وفعلا وأكره أن أميل إلى الرياء

فما خادعتُ من أحدٍ بأمرٍ ولا أضمرتُ حسواً فى ارتغاء

ومدح به السعدون فى قصيدته « إلى غرة آل السعدون » فقال :

صَريحٌ فى مقاصدِه إذا ما أسرَّ القومُ حسواً فِي ارتغاء

وقد عرض لتشبيه الناس الحياة بالليل ، والقبر بمطلع الفجر ، وتفاؤله بأن تعرج روحه ، لتتخذ لها مكاناً بين الأنجم الزهر ، فقال فى قصيدته « خواطر شاعر » :

وقد قالَ بعضُ القوم إن حياتنا كليلٍ وإن الفجرَ مطلعُه القبرُ
فإن كان هذا القول فيها حقيقةً فياشدَّ ماقد شاقنى ذلك الفجرُ
ورُوحَ الفتى بعد الرَّدى إن يكنْ لها بقاءٌ وحسٌّ فالحياةُ هى الخسرُ
وإن رَقيتْ نحو السماء فحبَّذا إذا أصبحتْ مأوًى لها الأنجم الزهرُ

ويكرر المعنى نفسه فى قصيدته « ماوراء القبر » وبينها وبين السابقة قصيدة واحدة تفصل بينهما :

لعلَّ حياةَ المرء ليلٌ ستنجلى غَياهِبهُ من سكرةِ الموتِ بالفجرِ
فإنْ كانَ ذا حقا فإن حياتنا كما قيل سترٌ ، والردى كاشف السترِ
وقد قيلَ إن الروحَ تبقى فهل لها عُروجٌ إلى الأعلى إلى الأنجم الزهرِ ؟

وقد يذكر بيتا واحدا بحروفه أكثر من مرة فى قصيدته واحدة كما فى قصيدته «اليتيم فى العيد » إذ ذكر البيت الآتى مرتين إعجاباً به وترديداً للنغم الحزين فيه:

ألا ليتَ يومَ العيدِ لا كانَ إنه يجدِّدُ للمحزونِ حُزناً فيجزعُ

عبارة الرصافى :

وقد كانت ثقافة الرصافى ثقافة عربية خالصة حذق بها لغة العرب وأحاط بها إحاطة من ملك زمامها ، واستولى على قيادها : عرف نحوها ، وحفظ الكثير

من غريبها الذى أصبح حجة فيه . وزاد هذه المعرفة رسوخا فى ذهنه قيامه بتدريس هذه اللغة وآدابها فى أعلى معاهد العراق وتركيا وفلسطين .

وقد بدأ الرصافى يدرس العربية على أستاذه المرحوم « محمود شكرى الألوسى » وكان إذ ذاك دون العشرين حتى حفظ ألفية ابن مالك وقرأ عدة شروح لها ، وكان مولعا بحفظ الشواهد التى يوردها النحويون فى كتبهم ، وكان إذا مر به فى أثناء الدرس بيت من الشعر راجع فيه الشروح والحواشى ، فعلم من قائله ، وماذا بعده أوقبله من الأبيات لحفظها ، وكان قوى الحافظة ، حتى حفظ شيئا كثيرا هذا من القبيل ، بحيث أن أستاذه كان يلقبه بالشواهدى

وشعر الشواهد كما هو معروف مأخوذ من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين الذى يمتاز بفخامة الأسلوب ، وجزالة اللفظ ، ورصانته . وعلى ذلك كان هذا الشعر القديم هو شعر الاحتجاج والاستشهاد على صحة اللفظ وسلامة التركيب . وعلى هذا اللون من الشعر ربى الرصافى ملكته ، فصاغ لنا هذا القريض الذى يعد كثير منه فى الذروة من الشعر العربى الأصيل .

ولكن الرصافى مع هذه القدرة الفائقة له ذلك الشعر العذب السلس ، الذى تفجر من ينابيع شاعرية صافية لاينضب معينها ، ولايقف تيارها عن السيولة والانحدار فى دعة لاتحس معها شيئا من التقحم والاستكراه ، وهو يخاطب قلبك ، ويحدث مشاعرك دون الإغراب الذى يلجأ إليه بعض المتقعرين ليدلوا الناس على سعة محفوظهم من اللغة ومفرداتها وتراكيبها ، مع أنه هام أول ماهام بشواهد النحو حتى راض جامحها ، وذلل شاردها ، ولكنه فعل ذلك فراراً من مظنه التصنع ، وجنوحاً عن صنعة التكلف ، التى لاتليق بأمثاله من الذين

يتحدثون للناس بآلام قومهم وآمالهم فى إيضاح و بيان ، أو بعبارة أخرى بلغة العصر التى كان الإفهام من أهم غاياتها ، وهو القائل :

وَجرّدتُ شِعْرى من ثيابِ ريائهِ   فلم أكسُهُ إلا معانيَه الغرّا

وأرْسَلتُه نظماً يروقُ انسجامُه   فيحسبُهُ المصْغِى لإنشادِهِ نَثْرَا

وكما امتلأ ديوانه بما يمثل الناحية الأولى ، وبما تراه فى شواهدنا التى اخترناها ومثلنا بها لأغراضه الشعرية ، كذلك حوى طائفة من الشعر العذب السلس الذى « يحسبه المصغى لإنشاده نثرا » كما يقول الرصافى .

* * *

وقد يبالغ الرصافى فى مجاراة لغة شعره لطبيعة العصر الذى عاش فيه فيجعل البيان والإفصاح أسمى مقاصده ، حتى لقد ينحدر عن الرصانة والجزالة إلى النقيض فتراه فى بعض الأحيان يرق و يلين ، حتى ليكاد ينحدر إلى لغة العامة ، كما نجد ذلك فى قوله فى مطلع قصيدته « نقش على ماء » إذ يقول :

أرَى عيشَنا تأبى المنُونُ امتدادَهُ   كأنا على كيس المنُونِ نعيشُ

فتعبيره بقوله « كأنا على كيس المنون نعيش » مع كونه يدل على معنى بارع إلا أنه تعبير عامى كما ترى . وكذلك قوله فى « المرأة المسلمة » :

فهذهِ حـــالةُ نسوانِنا   وهىَ لعَمْرِى حالةٌ مؤلمهْ

ما هكذَا ياقومُ ما هـكذَا   يأمرُنا الإسلامُ فى المسلمهْ

وكذلك قوله : من قصيدته التى رثى بها الشيخ مهدى الخالصى من كبار علماء العراق فى الـكاظمية :

أنا أبكى عليْه من جهةِ العلـــمِ وأغضِى عن خوضِه فى السياسهْ

قد أبت هذه السياســـة إلا   أن تكون النشاشه الدساسهْ

لوْ أردْنا إفاضَةً في هِجَاها لـكتْبنا لـكمْ بها كرَّاسَةْ

وكذلك قوله :

قد بكتهُ مدارسُ عامراتٌ هُو فيها المدَّرسُ المسئولُ

إنما قد ذكرتُ بعضَ مزايا ه وإلا فشرحُهُنّ يطولُ

فعبارات « كتبنا لـكم بها كراسة » و « المدرس المسئول » و « شرحهن يطول » من العبارات التي أخلقتها ألسنة الناس كثيراً حتى عدت من العبارات المبتذلة ؛ التي تتحاشاها لغة الشعر التي تمتاز بالاختيار والانتقاء .

وقد ترى الرصافي في بعض قصائده ينحدر إلى مادون لغة العامة إلى ألفاظ ليس فيها هذا الانتقاء المعروف عنه ، فلا يعف حين يثور في نفسه دافع الحقد على من هجاه ، أن يرميه بأقبح الألفاظ وأفحشها ، يفعل هذا بمن سخط عليهم من الأفراد والأمم ، كما رأيت في قصيدته « ليلة نابغية » التي أسفّ فيها وهجا بأقذع الهجاء ، ولم يكن لهذا الإفراط في استخدام فاحش الألفاظ سبب سوى الحقد على من نقدوه من أهل الشام ، ويعنينا هنا ما استعمله من ألفاظ جارحة ، وعبارات نابية .

وتجد مثل ذلك بل أفحش منه في قصيدته « أنشودة الحرب » التي يخاطب فيها أهل الصرب والبلغار الخارجين على الدولة العثمانية ، حيث يتنزل إلى الشتم المقذع الذي جره إليه ما جره إلى ذم أهل الشام ، من الحقد على من ينشدون خلع الربقة التركية من أعناقهم . استمع إليه في قوله :

ياعُلوجَ الصِّرْب والبلـــغَار أولادَ الزواني

لمْ يكنْ إيعادُكمْ بالـ حرب غَيْرَ الهذيانِ

إنما الحربُ لدْينا منْ تمامِ الحيوانِ

فاتركوا الإيعادَ يا أبـ ـناء حمراء العِجانِ
وَتَزَيَّوْا يا مخانيـ ـثُ بأزياء الغوانى
إنما أنتمْ تيوسٌ أُولِعَتْ بالـــنزَوَان

* * *

ولقد كان الرصافى يمقت التكلف أشد المقت ، ولذلك كان قليل الاحتفال بالصنعة والهيام بالبديعيات ، سواء فى ذلك شعره الذى قرضه أوائل هذا القرن العشرين ، وما قرضه فى سائر أيام عمره ، وهذه مزية جديرة بالتقدير ؛ إذا عرفنا أن الشعراء فى أوائل هذه النهضة كانوا يجرون فى السبيل التى جرى عليها شعراء الفترة المظلمة ، من العناية البارزة بالصنعة واستخدام محسنات البديع ، والتفنن في ذلك ، ليغطوا بذلك عجزهم وكلالهم عن الأخيلة السامية ، والمعانى الجليلة ، لخلو كنانتهم منها ، ولكن الرصافى وهو الشاعر المطبوع يدعو المعنى فينقاد له ، فيغنيه ذلك عن التكلف فى طلب البديع الذى نلمحه فى شعر غيره من شعراء الفترة الماضية .

على أنك برغم ذلك الحكم ، واجد له شيئاً قليلا من ذلك ، ولا بأس على الشاعر من استخدام محاسن الكلام مادام شعره قد برىء من مظنه التكلف ، وسلم من التعسف الذى يستهلك المعانى ، أو يستر ما فيها من ضعف ورخاوة ، ولأن الذى وقع للرصافى من البديعيات زاد معانيه بهاء ، وأساليبه إشراقاً ، لا أثر فيه لما ينفر من الصنعة المستكرهة وهو القائل :

لَستُ بالشاعر الذى يُرسِلُ اللفـــظَ جُزافاً لـكىْ يُصيبَ جناسَهْ
أنا لا أبتغى منَ الشِّعر إلا ماجرَى فى سُهولةٍ وسلاسَهْ
إنما غايتى منَ الشعر معنىً واضحٌ يأمنُ اللبيبُ التباسَهْ

ونحن حين نعرض عليك شيئاً من بديعياته ، فليس يساورنا شك فى أنك لن تأخذ على الرصافى مأخذاً ، مادام قد اكتمل له ما ذكرناه من قوة الأسلوب وفخامة المعنى ، وهو مايشترطه النقاد والبلاغيون، فمن ذلك مطلع قصيدته التى مدح بها « القزوينى » سرىّ الحِلة للمعروف :

قفْ بالديار الدارسَاتِ وحيِّها　　واقرَا السَّلامَ على جآذِرِ حَيِّها

فقد جانس الشاعر بين « حيِّها » وهو أمر بالتحية ، و « حيِّها » البطن من القبيلة .

وقوله فى العفو عمن اعتدى عليه :

ولو شئتُ أتبعتُ الخديعةَ خلفهُ　　تطاردُه حتىّ تضيقَ مذاهُبهْ
ولكنْ أَبى منىّ الخداعَ مهذَّبٌ　　تعوَّدَ فِعلَ الخير مُذْ طَرّ شاربُهْ

فقد جرد من نفسه مهذبا تعود فعل الخير أى أنه بلغ من ذلك مبلغاً صح معه أن ينتزع منه آخر مثله فى تلك الصفات . وهذا هو التجريد المعروف عند البديعيين ، وقوله :

يَقينى شرَّ رِفْيتكم يَقينى　　بأنَّ اللهَ مطّلعٌ رقيبُ

جانس فيه بين (يقينى) وهى فعل من الوقاية و (و يقينى) وهو اسم معناه الاعتقاد ، وكذلك قوله فى « شكر على صنيع » :

جاء الكتاب إلىَّ منـ　　ـك به شفيت غليل صدرى
فإليك يا (شكرى) على　　هذا الصنيع عظيم شكرى

وقوله فى وصف الراقصة :

فهىَ إن أقبلتْ رأيتَ ابتساماً　　وهى إن أدبَرَتْ رأيتَ قطوبَا

فيه هذه المقابلة البديعة بين الإقبال والإدبار ، والابتسام والقطوب ، كما أنه

فى بعض الأحيان يؤرخ الحوادث بالشعر ، كما ترى ذلك فى آخر أبياته فى رثاء الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية حيث يقول :

ولما مضَى للخُلد قلتُ مؤرِّخاً : لقدْ باتَ فى أعلى الفراديس قاسمُ

سنة ١٣٢٥

وقوله فى تهنئة الفاضل نور الدين بيهم بولده نهاد :

هو فى آل بيهم الأمجاد نبعـــة الأغصُن

كان عيداً لهم من الأعياد فى مدى الأزمُن

إن تاريخه : حياة نهاد قرة الأعين

سنة ١٣٤١

الوزن والقافية :

والرصافى مع ولوعه بالتجديد ومسايرة رأيه فى ضرورة مجاراة الشعر لروح العصر، يرى أن مجال التجديد لا يتجاوز ناحية الأغراض والمعانى ، أما شكل الشعر فهو من أنصار المحافظة عليه ، ولا يستطيع الخروج على الأوزان المأثورة ، أو التحلل من نظام القافية ، لأنهما عنده علامة قوة الشاعر ودلالة على تمكنه من صناعة الشعر ، وقد سئل عن الشعر المنثور الذى ابتدعه الريحانى ، والشعر الذى سماه صاحبه « الشعر المرسل » فكان من جملة كلامه فى الجواب عن هذا السؤال :

« إن النطق وهو أسنى مظهر من مظاهر الشعور لما اقترن بالغناء تولد الشعر . فالشعر لا يقال إلا لينشد، و بعبارة أخرى ليتغنى به ، فلا بدّ فيه من الوزن والقافية ، لأن الغناء نغم و إيقاع ، وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازنة من الكلام ، ولم نعهد أمة من الأمم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه . وغاية ما نراه من شعراء أوربة اليوم هو أنهم يبعدون فى القوافى و يتجوّزون فيها لا أنهم يهملونها بتاتاً ، وكما هم يتجوزون فى القوافى يتجوزون فى الوزن أيضاً ؛

فلا يلتزمون فى القصيدة الواحدة وزنا واحداً . وقصارى القول فى طريقتهم هذه أنها تشبه طريقة « الموشحات » عند العرب .

ثم يقول الرصافى: وأنا وإن كنت لم أطلع على الشعر الإفرنجى لعدم معرفتى لغة أجنبية فقد اطلعت على شعر المتفرنجين من شعراء الأتراك الذين قلدوا شعراء الإفرنج تقليداً مطلقاً، ومشوا فى أشعارهم على آثارهم ، واتبعوهم فيها حذو القُذَّة بالقُذَّة فلم أرَ شعرهم خالياً من الوزن ولا من القافية ، وإنما هم كما قلت آنفا يبعدون فيها و يتجوزون، وجلّ ما يتجلى لى من هذا الشعر الذى يسميه صاحبه بالمرسل، إنما هو اقتران الرعونة بالشعور، وخلط السخافة بالظرافة ، و إدغام التفاهة بالنباهة ، وطلب السمعة من وراء البدعة. ومن الغريب أن بعض الناس عابوا على الشعر قوافيه بأنها تكرار ممل ، وذلك وهم منهم ، فإن القافية لا تتكرر فى الشعر ، بل إن تكرارها عيب عند العرب يسمى « الإيطاء » و إنما يتكرر منها حرف واحد، هو الحرف المسمى بالروىّ ، فالمعنى فى كل قافية غير المعنى فى سواها من أخواتها ، فمن أين جاء هذا التكرار المملّ ؟ على أن تكرار بعض النغمات فى الموسيقى أمر لا محيد عنه ، وهو مسموع ومألوف ، وما تكرار حرف الروىّ فى الشعر إلا بمنزلة تكرار بعض النغمات فى الموسيقى .

«هذا ؛ وأما الشعر المنثور العارى من الوزن والقافية ، فهو شعر بالمعنى الأعم، أى هو شعر بمعانيه التى تفعل فى النفس ما يفعله الإنشاد المقترن بالنغم والإيقاع ، إلا أنه لا يتغنى به فعلا ، فهو إذن تقليد للشعر المنظوم من جهة الغاية المقصودة به ، وحبذا لو سمّى الشعر المنثور « الشعر الصامت » لعدم اقترانه بالغناء الراقص ، وسمّى المنظوم بالناطق لاقترانه بذاك . أما أنا فأستحسن الشعر المنثور وأقول به من حيث أنه خير واسطة لإنباط القرائح و إثارة العواطف لاغير . إلا أنى لا أفضله على الشعر المنظوم ، لأن هذ شعر منثور وزيادة ، إذ هو لاقترانه

بالغناء يبلغ غاية الشعر المنثور من طريق أقصر ويتناولها بيد أطول .

ولا يجوز أن يفضل المنثور بكون مجاله أفسح وأوسع من مجال الشعر المنظوم بسبب تقيد هذا بالوزن والقافية ، وإطلاق ذاك منهما ، لأن الشعر لا يكون مسرحا للعقل والفكر حتى يعد اتساع مجاله مزية مستحسنة ، وإنما الشعر مسرح للنفس ومثار للشعور والعاطفة . وإذا كان الوزن والقافية هما الغناء نفسه فتقييده بهما إطلاق له فى مسرح العواطف والشعور . وهل ينكر منكر أن الغناء قنطرة النفس إلى العواطف ، ومعبرها إلى الشعور والحس ؟ ! »

وفى قوافى الرصافى امتداد وسعة ، وله قدرة ظاهرة على قياد الكلام الذى لايكاد القارىء يرى أنه يستنزله قسراً ، أو يتطلبه من بعد ، وإنما هو انثيال وتدفق فى اطراد وجزالة ، حتى ليكاد يمثل قول أبى تمام فى تغاير القوافى ، حين يسهر لها ويتطلبها فى بيته المعروف :

تغاير الشعرُ فيه إذا سهرْتُ لهُ   حتّى ظننتُ قوافيه ستقْتتلُ

وقد يتوهم القارىء أن ذلك فى ناحية من الهجاء دون ناحية ، ولكنه فى كثير من الأحيان يحمل قوافيه على أحرف نادرة لا يكاد يسلس قيادها للشعراء كالنون والزاى والجيم مثلا .

ويظن أنه قد يستهلك ديباجة كلامه بهذا النمط من الاستجداء والتعمل ولكنه يجدها سوابغ كاسية حالية من الخفة والرشاقة . ولا يحمل ذلك إلا على ما كان يوصف به الشاعر من ثقوب الطبع وغزارة الإحاطة بأوابد اللغة ، وتمام الحذق بحسن التأتى للألفاظ التى تأتلق بها القافية ، وتتسق معها خواطر الشعر المنفسح .

وليس من العسير عليك أن ترى تلك الحقائق فى ديوان الرصافى وحسبك

من ذلك أن تقرأ قصيدة « تموز والحرية » و « سوء المنقلب » و « وإلى أبناء الوطن » و « اليتيم فى العيد » و « السجن فى بغداد » و « أم اليتيم » و « يوم الفلوجة » .

فهذه كلها شواهد ناطقة على تبريز الشاعر فى هذه الناحية ، وقدرته على إطالة القافية ، وطول النفس .

ومع أن الإطالة مظنة الضعف ، وفى مداها يظهر كلال الحد ، لكن ذلك قلما يوجد مع المبرزين ؛ من جهابذة البيان وفحول الكلام الذين يعد الرصافى أحد أفذاذهم فى هذا العصر .

آثار الرصافى

ترك الرصافى آثاراً كثيرة تدل على خصوبة ذهنه وسعة اطلاعه وتوفره على الكتابة والتأليف ، على الرغم مما كان يقتضيه قرض الشعر من وقت وجهد ؛ وبيان هذه الآثار والكشف عن موضوعاتها ومناهجها وتقديرها ، يحتاج إلى كتاب مستقل ، بل إلى أكثر من كتاب ، ولذلك نجتزىء بالإشارة إلى تلك الآثار فى الكلمات القليلة التالية :

(١) ديوان الرصافى : طبع جزء منه فى بيروت سنة ١٩١٠ وفيه مجموعة شعره إلى تلك السنة ، ثم طبع طبعة أخرى سنة ١٩٣١ فى مطبعة دار للعرض فى بيروت ، فجاء ديوانا ضخما فى ٥١٤ صفحة ، وكتب له العالم المحقق المرحوم الشيخ عبد القادر المغربى مقدمة نفيسة، وقد طبع فى مصر منذ سنوات . وللرصافى شعر كثير لم ينشر فى هذه الدواوين الثلاثة .

(٢) كتاب « نفح الطيب فى الخطابة والخطيب » طبع سنة ١٩١٥ ، وهو مجموعة محاضراته التى ألقاها على طلبة مدرسة الواعظين فى القسطنطينية .

(٣) كتاب « دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية » طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٢٨ فى مطبعة دار السلام فى بغداد ، وفيه محاضراته التى ألقاها على طلابه فى دار المعلمين العالية فى العراق .

(٤) كتاب « رسائل التعليقات » طبع فى بغداد سنة ١٩٤٤ وقدم له الأستاذ الشاعر نعمان ماهر الكنعانى ، وقد تناول فيه مسائل دينية أحدثت دويا فى العراق والعالم الإسلامى ، وأشرنا إلى موضوع الكتاب فى دراستنا لعقيدة الرصافى .

(٥) كتاب « على باب سجن أبى العلاء » طبعته دار الحكمة فى بغداد سنة ١٩٤٦ بمطبعة الرشيد ، وقدم له الأستاذ محمد على الزرقا ، وفى هذا الكتاب تعليقات كتبها الرصافى على بعض آراء الدكتور طه حسين التى ضمنها كتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » .

(٦) كتاب « الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس » تناول فيه جوانب من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالته . ولم ينشر هذا الكتاب .

(٧) مجموعة « الأناشيد المدرسية » طبعت سنة ١٩٢٠ .

(٨) كتاب « نحو اللغة العامية العراقية » .

(٩) رواية « الرؤيا » ترجمها عن نامق كمال الشاعر التركى ، وطبعت فى بغداد سنة ١٩٠٩ .

(١٠) كتاب « دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة » طبع فى الآستانة سنة ١٣٣١ هـ وقد عرض فيه لكثير من الألفاظ التركية ، وأرجعها إلى أصلها العربى .

(١١) كتاب « محاضرات الأدب العربى » التى ألقاها على معلمى المدارس فى بغداد ، وقد طبع سنة ١٩٢٢ ببغداد .

(١٢) كتاب « الآلة والأداة » فى أسماء الآلات والأدوات التى يستخدمها الإنسان ، وفيه مقدمة فى التعريب والاشتقاق .

(١٣) كتاب « آراء فى أبى العلاء » وقد أعلنت دار المكشوف فى بيروت منذ سنوات كثيرة أنها ستقوم بطبعه ونشره ولما تفعل .

(١٤) كتاب « فى عالم الذباب » رد فيه على بعض الآراء التى تضمنها كتاب أصدره الدكتور فائق شاكر بهذا الاسم ، وقد طبع كتاب الرصافى فى بغداد سنة ١٩٤٥ .

هذه هى الآثار التى أشرت إليها فى الطبعة الأولى من هذه الدراسة ، وقد أضاف الأستاذ مصطفى على[١] إلى آثار الرصافى غير المطبوعة الكتب الآتية :

(١٥) كتاب « الأدب الرفيع فى ميزان الشعر » وفيه جميع ما ألقاه من الدروس فى علمى العروض والقافية على طلاب دار المعلمين ببغداد ، وقد ضمنها أهم ما يحتاج إليه الأديب من الاطلاع على هذا العلم ، وما يفتقر إليه الشاعر من معرفة صحيح أوزان الشعر وفاسدها . والرصافى يرى الوزن ضروريا للشعر .

(١٦) كتاب « خواطر ونوادر » : وهو رسالة أثبت فيها شيئاً مما عنّ له من الخواطر ، وأضاف إليها بعض ما صادفه فى كتب الأدب من المسائل التى لها شأن فى الأدب أو فى غيره من أمور الحياة .

(١٧) كتاب « الرسالة العراقية » كتبها — كما قال : « لا لتنشر فى العراق الذى لا حرية فيه للكلام ، ولا حرية فيه للرأى والفكر ، بل لتكون عبرة لمن يطلع عليها » وسماها « الرسالة العراقية » لأنه لم يخرج فى مباحثها عما له علاقة بالعراق من سياسة ودين واجتماع .

(١٨) كتاب « دفع المراق فى كلام أهل العراق » بحث فيه عن اللغة العامية العراقية بل البغدادية ، وكتب له مقدمة باللغة العربية الفصحى .

---

(١) فى محاضراته عن معروف الرصافى المطبوعة فى مصر سنة ١٩٥٤ : ص ٢٤

مُختارات من شعر الرصافي

الدهر

هل الدهرُ إلا أعجميٌّ أخاطبُهْ ... فمالي إلى فهم الحديث أجاذبُهْ
أيثني إلى وجه اللئيم بوجهه ... ويرتدّ مُزْوَرًّا عن الحرجانبُهْ
أراه إذا طارحتُهُ الجدّ لاعباً ... وما أنا ممنْ يأميم يلاعبُهْ
ويضربُ أطنابَ المنى لىَ هازلاً ... وما أنا مخدوعٌ بما هو ضاربُهْ
وبيناه يبدى لى ابتسامة خادعٍ ... يقطّب حتى لاتبين حواجبُهْ
لقد أضحكت غير الحليم شئونه ... وأبكتْ سوى عين السفيه نوائبُهْ
فيا أدباء القوم هل تنقضى لكم ... شكاية دهر حاربتكم مصائبُهْ
يشدّ عليكم بالسّيوف نكايةً ... وأقلامُكم ، وهو الأصمُّ ، تعاتبُهْ

* * *

هو الدهرُ لم يسلمْ من الغيّ أهلهُ ... كما الليلُ لم يأمنْ من الشرِّ حاطبُهْ
إذا آنسوا نورَ الحقيقة رابهمْ ... فتجثو على الأبصار منهم غياهبُهْ
تضاربت الأهواء فيهم فناكبٌ ... عن الشرِّ يقصيه وآخرُ جالبُهْ
طبائعهم شتّى على أنّ بينهم ... كريماً تواليه ووغداً تجانبُهْ
لعمرُك حتى البرق خالف بعضه ... فقد خولفَتْ بالموجبات سوالبُهْ
أبتْ حركاتُ الكون إلا تبايُناً ... دوافعُهُ فعّالةٌ وجواذبُهْ

ولولا اختلافٌ شاءه اللهُ فى القُوى لما دار فى هذا الفضاء كواكبُهْ

* * *

سَبَرْتُ زمانى بالنُّهى وخضتُهُ بتجربتى حتى تجلّتْ عواقبُهْ
ولم أستشرْ فى الناس إلا تجاربى وهل يصدُق الإنسانَ إلا تجاربُهْ
فلا ترتكبْ قربَ اللئام فإنهم لَكا لبحرِ محمولٌ على الهول راكبُهْ
وما عجبى فى الدهرِ إلا لواحدٍ وإن كَثرتْ فى كلّ يوم عجائبُهْ
وذلك أن العيشَ فيه مطيَّبٌ لمن خُبثَتْ بالمخزيات مكاسبُهْ
ولو كان فى أعماله الدهرُ عاقلاً لما كان مثلى فى الورى مَنْ يحاسبُهْ
ولو لم يكنْ فى كلٍّ ما فيه خادعاً لما أمَّ فيه صادقَ الفجر كاذبُهْ

* * *

ألا رُبَّ شيطان من الإنس قد غدا يخاتلنى خَلْساً وعينى تراقبُهْ
فقلتُ له اخسأْ إنما أنت خائبٌ وقبلَك أعيا الجنَّ ما أنت طالبُهْ
فولى على الأعقابِ يحبو وقد دَرَى ولله دَرِّى إننى أنا غالبُهْ
فأتبعه منىّ شهابُ تسامحٍ يشقُّ ظلامَ الليل بالحلم ثاقبُهْ
ولو شئتُ أرسلتُ الخديعةَ خلفَهُ تطاردُهُ حتى تضيقَ مذاهبُهْ
ولكنْ أبى منىّ الخداعَ مهذَّبٌ تعوَّد فعلَ الخير مُذْطرّ شاربُهْ

* * *

وذى سَفَهٍ أغضيتُ عنه تكرّماً فدبّتْ على رجلىَّ غدراً عقاربُهْ
فقمتُ له بالنعل ضرباً فلم تزلْ يداىَ به حتى اطمأنّتْ غواربُهْ

وجنّبتُه السّيفَ الجُرازَ لأنّه تعالتْ عن الكلب العقورِ مضاربُهْ
لقد عابنى جهلا ولم يَدْرِ أنه أقلُّ فداء للذى هو عائبُهْ
له نسبةٌ مجهولةٌ غير أنّه مغامزُه معلومةٌ ومعايبُهْ

إلى الأمة العربية

هو الليلُ يُغريه الأسى فيطولُ ويُرخي وما غيرُ الهموم سُدُولُ
أبيتُ به لا الغاربات طوالعٌ علىّ ولا للطالعاتِ أُفولُ
وينشرُ فيه الصمتُ لبْداً مضاعفاً فتطويه منّى رنّةٌ وعويلُ
ولى فيه دمعٌ يلذعُ الخدّ حرُّهُ وحزنٌ كما امتدّ الظلامُ طويلُ
بكيتُ على كل ابن أروعَ ماجدٍ له نسبٌ فى الأكرمين جليلُ
يليحُ من الضّيم المذلّ بغُرّة لها البدرُ تِربٌ والنجوم قبيلُ
من العُرب ، أما عِرضه فموفّرٌ مصونٌ ، وأما جسمُهُ فهزيلُ
له سلفٌ عزُّوا فبزُّوا نباهةً ولم تعتورهمْ فترةٌ وخمولُ
وساراوا بنهج المكرُمات تقلُّهمْ قلائصُ من سعيٍ لهم وخيولُ
وكانوا إذا ماأظلمَ الدهرُ أشرقتْ به غررٌ من مجدهم وحُجولُ
أولئك قومٌ قد ذوَى روضُ مجدهم ولم تسْر فيه نسمةٌ وقبولُ
وقد أعطشته السُّحْبُ حتى لقد عَلَتْ على الزّهر منه صُفرةٌ وذُبُولُ
رعى اللهُ من أهل الفصاحة معشراً لهم كان فوق الفرقدين مَقيلُ
ترامى بهم ريبُ الزمانِ كأنما له عندهم دونَ الأنامِ ذُحُولُ
فأمستْ من العمران خلواً بلادهم فهنّ حُزونٌ قفرةٌ وسُهولُ

وعادتْ مغانى العلم فيها دوارساً تُجرُّ بها للرامساتِ ذيول
وقوّضت الأيام بنيانَ مجدها فربْعُ المعالى بينهنّ محولُ

* * *

نظرتُ إلى عرض البلاد وطولها فماراقنى عرضٌ هناك وطولُ
ولم تبدُلى فيها معاهدُ عزّها ولكن رسوم رثّةٌ وطلولُ
نظرتُ إليها من خلال ذوارفٍ من الدّمع طرفى بينهن كليلُ
فكنتُ كراءٍ من وراء زجاجةٍ بعينيه كيما يستبينَ ضئيلُ
ولم أتبيّنْ ماهنالك من عُلاً لكثرة ماقدْ دبّ فيه نحولُ
هناك حنيْتُ الظهرَ كالقوس رابطاً بكفىّ على قلبٍ يكاد يزولُ
وأوسعتُ صدرى للكآبة فاغتدتْ بأرجائه تحت الضلوع تجولُ
وأرسلتُ دمعَ العين فانهلّ جاريا له بين أطلال الديارِمَسيلُ
أأمنعُ عينى أنْ تجودَ بدمعها على وطنى ؟ إنى إذَنْ لبخيلُ
فإن تعجبوا أن سال دمعى لأجله فإنّ دمى من أجله سيسيلُ
وما عشت أنى قد تناسيتُ عهدَهُ ولكنّ صبرى فى الخطوب جميلُ
وإنّ امرأً قد أثقل الهمّ قلبَهُ كقلبى ولم يلقَ الرّدى لحمولُ
أفى الحقّ أن أنسى بلادى سلوةً ومالىَ عنها فى البلاد بديلُ
أقولُ لقومى قولَ حيرانَ جازعٍ تهيج به أشجانُه فيقولُ
متى ينجلى ياقومُ بالصبح ليلكم فتذهب عنكم غفلةٌ وذهولُ

الحق والقوة

أرى الحقَّ لم يغشَ البلادَ وإنما مشى ضارباً فى الأرض تلفظُه الطُّرقُ
فيصبحُ فى أرض ويمسي بغيرها وحيداً فما يُئويه غربٌ ولا شرقُ
توطّن قفر الأرض مبتعداً بها إلى حيث لا إنسٌ ولا طائر يَزْقُو
وقد يهبط الأمصار وهو محجَّبٌ ويظهر أحيانا كما أومضَ البرقُ
ومن عجب أن الورى يدّعونه وهم من قديم الدهر أعداؤه الزُّرقُ
أعدّوا له فى البرّ والبحر قوةً إذا ظهرتْ ينسدُّ من دونها الأُفْقُ
وطارا بطياراتهم يمطرونه قذائف من ناركما أمطر الودْقُ

* * *

يقولون إن الحقّ فى الخلق قوةٌ تذلّ لها الأعناق قهرا وتندقُّ
فما باله يمسى ويصبح شاكياً ولا يتحاشى عن ظلامته الخلقُ
إلى الله نشكو الأمرمن مدنيّة تعارض فى أوصافها الكذبُ والصدقُ
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدّعى بأشياء من بُطلانها ضحك الحقُّ
فهم منعوا رقَّ الأسير وإنما أجازوا لهم أن يشملَ الأممَ الرِّقُّ
ألم تر فى القطر العراقىّ أمّة من الأسر مشدوداً بأعناقها ربقُ
قد اختبط فيه السيفُ للقوم خُطةً من العنف لم يمرُرْ بساحتها رفقُ
وأوجرهم سمًّا من الذلّ ناقعاً بكأس من العدوان ليس لها مذْقُ
فدجلةٌ من وقع الشوائب أصبحتْ تُعافُ لأن الماء فى حوضها رَنْقُ
وإن الفراتَ الغمر أمسى وماؤهُ من الضيم غَوْرٌ مالأوشاله عمقُ

رعى الله بين الواديين مواطناً | إذا ذُكرت يهتزُّ بي نحوها عشقُ
قضيت بها عصر الشباب فلي بها | خواطرُ لم يسمحْ بإفشائها النطقُ
فلا تعجبوا من أنني عند ذكرها | أنوحُ عليها مثلما ناحتْ الوُرْقُ
وإني إذا أبصرتها مستضامةً | يكاد لها قلبي من الحزن ينشقُّ
ألم ترها قد أصبحتْ من إسارها | تُليح بطرف في لواحظه العِتقُ
تجرّ قيودَ الذلّ راسفةً إلى | تكاليف حكم في سياسته الحمقُ
ويحلبُ شطريها العدوُّ ضرائباً | ويمخضُها دَرًّا كما يُمخضُ الزِّقُّ
سلامٌ على وادي السلام الذي به | تفاقم هولُ الخطبِ واتّسع الخرقُ
سنفديه حتى لاحياةٌ عزيزة | ونبذل حتى لانفيسٌ ولاعلقُ
وندرك فيه ثأرنا بكتائبٍ | لها نسبٌ من صلب يعْرُبُ مشتقُّ
وإن الليالي بالخطوب حواملٌ | ولا بدّ يوماً أن سيأخذُها الطلقُ
فتنتج حرباً مايبوخ سعيرها | وتستنُّ في ميدانها الدُّهْمُ والبُلْقُ
بكلّ أخي عزم كأن مضاءهُ | مشطَّبةٌ بيضٌ ومسنونةٌ زُرْقُ
تلقّف رايات العُلا بسواعدٍ | لهنّ بتصريف القنا في الوغى حِذْقُ
فإمّا المنايا نستطبُّ بطبِّها | وإمّا مُنىً فيها يتمُّ لنا السَّبْقُ
إذا نحنُ لم نملكْ على الدهر أمرَه | فلا دامَ فينا نابضاً للعُلاَ عِرْقُ

الإنجليز في سياستهم الاستعمارية

دع اللومَ واسمعْ ما أقولُ فإنّني | قتلتُ طباع التيمسيين بالبحثِ
كأنهم والناس عث وصوفة | وهل يستقيم الصوف في عيشة العُثِّ

فكم حرثوا فى أرض مستعمراتهم مظالم سوداً كنّ من أفظع الحرث
وكم أيقظوا والناسُ فى الدور نوّمٌ بها فتنا كالدجن يهمى على الوعث
وهم يأكلونَ الزّبد من منتجاتها ويلقونَ للأهلين منهنّ بالفرث
فيحظوْن منها بالنفائس دونَهم ويعطونهم منها السّقيط من(١) الخُرْث
زر الهندَ إن رُمت العيان فكم ترى على الأرض من غُبْرٍ هناك ومن شعث
يقولونَ إنا عاملونَ لسعدكم ولم يعملوا غير الكوارث(٢) والكرث
فكم بعثوا فى الشرق حرباً ذميمة تُمثّل فى أهوالها ساعةَ البعث
وكم أرسلوا دسًّا جواسيسَ مكرهم على الناس يشتدّون بالنبش والنثّ
وهم سلبوا أرضَ العراق ثمينَها ولم يتركوا للقوم منها سوى الغثّ
إذا ما رأيتَ القومَ فى فخّ مكرهم وقفتَ بهم تبكى على القوم أو ترثى
فلا ترجُ فى الدنيا وفاء لعهدهم فلا بدّ فى الأيام للعهد من نكث
وما الحكمُ إلا عندنا كمطثة رَمَوْها إلينا كى يرَوْا لعبة(٣) الطث

يوم الفلوجة

ما أشبه الليلة بالبارحة ؛ وما أشبه يوم الفلوجة بيوم بور سعيد ، وما قاله الرصافى فى «الفلوجة» العراقية يقوله اليوم كل مصرى وكل عربى بل كل حر أبىّ فى « بور سعيد » المصرية؛ لقد نظم الرصافى هذه القصيدة فى أول آب (أغسطس) سنة ١٩٤١ ليعبر عن بغى الإنجليز وعدوانهم ؛ ولم تستطع خمس عشرة سنة

(١) الخرث أردأ المتاع والغنائم (٢) كرثه الغم يكرثه كرثا : اشتد عليه
(٣) الطث لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة تسمى المطثة .

أن تهذب من أخلاقهم ؛ أو تكبح جماح شهوتهم لاستعمار الشعوب ، واستنزاف دمائها ولعل هزيمتهم المنكرة فى بور سعيد الباسلة نهاية العدوان على الشعوب المتحررة ؛ بعد ذلك الدرس المرير الذى تعلمه الطغاة ؛ رحم الله الرصافى بما أبدع فى هذه الخريدة :

أيها الإنجليزُ لن نتناسى بغيَكم فى مساكن الفَلُّوجه
ذاكَ بغيٌ لن يشفيَ اللهُ إلا بالمواضى جَريحَهُ وشجيجَهْ
هو كربٌ تأبَى الحميّةُ أنّا بسوى السيف نبتغى تفريجَهْ
هو خطبٌ أبكى العراقين والشـ ـامَ وركنَ البنيّة المحجُوجَهْ
حلّها جيشكم يُريدُ انتقاماً وهو مُغرٍ بالساكنين علوجَهْ
فاستهنتم بالمسلمين سفاهاً واتخذتُمْ من اليهود وَليجَهْ
وأدرتمْ فيها على العُزْلِ كأساً من دماء بالغدر كانت مزيجَهْ
واستبحتُم أموالها وقطعتُمْ بينَ أهل الديار كلَّ وشيجَهْ
أفهذا تمدُّنٌ وعلاء شعبُكم يدّعى إليه عُروجهْ
أم سكرتُمْ لما غلبتم بحرب لم تكنْ فى انبعاثها بنضيجهْ
هل نسيتم جيشاً لكم مُبْذَعِرّاً (١) شهِدتْ جُبنَهُ سواحلُ إيجهْ
وهوَى بانهزامه حِصنُ إقريـ ـطَ وأمسى قذى على عين فيجهْ
سوف ينأى بخزيه وبعارٍ عن بلادٍ تريدُ منها خروجَهْ
لاتغرنكم شباكٌ كبارٌ أصبحتْ لاصطيادنا منسوجَهْ

---

(١) ابذعر الجيش تفرق وفر .

لستَ اليومَ فى الممالك إلا ... حَجلاً تحت صدره دُحرُوجَهْ
وطنى عشتُ فيه غيرَ سعيدٍ ... عيشَ حرّ يأبَى على الدهر عُوجَهْ
أتَغنى له السعادة لكنْ ... ليسَ لى فيه ناقةٌ منتوجهْ
أخصبَ اللهُ أرضه ولوانّى ... لستُ أرعى رياضه ومُرُوجَهْ
كلَّ يوم بعزّه أتغنىّ ... جاعلا ذكر عزّه أهزُوجَهْ

قصر الحمراء

قفْ على الحمراء واندبْ ... مُضر الحمراء فيهِ
واسأل البنيانَ ينبئْ ... كَ بأنباء ذويهِ
ويحدّثك حديث الـ ... ـمجد والعيش الرّفيهِ
بكلام محزن اللهـ ... ـجة يُبكى من يعيهِ
فيقول القلبُ آهاً ... وتقول الأذن إيهِ
صاحِ لوكان لهذا الدهـ ... ـر حياءٌ يقتنيهِ
مارمَى العُرْبَ أباةَ الضّـ ... ـيم بالخطبِ الكريهِ
لا ولا جرّ بغرنا ... طةَ أذيالَ سِنيهِ
حيثُ هذا القصرُ أمسى ... خالياً من مُبتنيهِ
فأزدَرِ الدهر وسفّه ... كلّ من لايزدريهِ
وإذا كنت حليماً ... فابكِ من دهرٍ سفيهِ

الناس والملوك

عجبتُ للناس فى الدنيا فخالتُهمْ   معَ الملوكِ صريعُ العقل يمجدُها
إنّ الملوكَ لــكالأصنامِ ماثلةً   الناسُ تنحتها والناسُ تعبدُها

إلى أمير الـكمنجة

صاحِ قمْ بى إلى أمير الـكمنجه   أصدق النابغين فى الفن لهجه
قمْ بنا نستمع إلى نغماتٍ   تملأ الأنفس انتعاشاً وبهجه
ولحونٍ كالصبح إن هى فاضتْ   تُغرق الروح من سرورٍ بلجّه
ذاك «سامى الشوا» الذى قد سما فى   فلك الفنِّ بالغنا منه أوجّه
هوَ فى فنّه الرفيع إمامٌ   موضح للأنام منه المحجّه
كلُّ من سار فى طريق الأغانى   يقتفى إثره وينهجُ نهجه
ما أمرّ الأنامل الخمسَ بالأو   تار إلا ألقى على القوم رجّه
نغمةٌ منه تجعلُ القومَ كالبحـ   ـر يموجون موجةً بعد موجه
ويميــــلونَ باتجاهِ إليــه   أينما مال ضارباً أو توجّه
بطلُ الفنّ هزّ رمح ابتداع   راكزًا فوق هضبة المجد زُجّه
وبكأس الفخار أسقِيَ صِرفا   من كمالٍ تعوّد الناسُ مزجه
فلتفاخرْ بلادُ يعربَ فيه   سادةَ الفنِّ فى بلاد الفرنجه
يا أميراً فى الفنِّ صار مليكا   حاملَ الصولجان وهو الـكمنجه
شهدَ اللهُ أن كلّ حياةٍ   لم تزِنْها بدائعُ الفنّ سمجه

مصر والوحدة العربية

منىٍّ إلى مصرَ ذاتِ المجد والحسَبِ   تحية ذات ودٍّ غير منقضبِ
تدلى بها دجلةُ اللثناء عن مقةٍ   منها إلى النيل ربِّ الشعروالخطبِ
إذا العروبةُ حلّتْ عرشَ دولتها   فمصرُ تاجٌ لها قد صيغَ من ذهبِ
كم قام للمجد فى أرجائها عَلَمٌ   تهفو ذُؤابتُه بالعلم والأدبِ
قامتْ بمعترك الأسيافِ دولتُها   من قبلُ معترك الأقلام والكتبِ
من أفقِ فُسطاطِها فى الشرق قد طلعتْ   شمسٌ إذا غابَ قرصُ الشمس لم تغبِ
بيضاء لن تتوارى بالحجاب كما   قبلا توارَى إيا الأهرام بالحجُبِ
إنى أرى مصرَ والتاريخُ يشهد لى   تحيا بعرفٍ بها من ضِئضىءِ العَرَبِ
وليس فرعونُها ممّن يشطّ به   بعد عن العربِ العرباء فى النسبِ
يمتّ للعرب ماضيها وحاضرُها   بنسبة غضّةٍ فى المجد والحسبِ

* * *

كفى الجزيرةَ فخراً فى مكارمها   قبرٌ أنافَ بها قدراً على الشهبِ
قبرٌ بتربتها قد ضمّ جوهرةً   مِنْ معدن الله لا منْ معدن التربِ
قامت بصاحبهم للعُرْب نهضتهمُ   تذكو بعزم لهم كالنار مُلتهبِ
جاشتْ كتائبُهم كالموج صلخبةً   ترغُو بمثلِ هزيم الرعدِ فى السحُبِ
تمخّضوا من سماعِ الوحيِ عن هممٍ   نالوا بها أنجُمَ الجوزاء من كثَبِ
قد وحّدُوا الله عن علم فوحّدهمْ   روحاً فخيلُوا لأمٍّ كلّهم وأبِ

إذ أصبحوا كبنى الأعيان تجمعهم ... لله وحدتهم فى كلّ مُطّلبِ
فى الشّرقِ والغربِ كم رأىٌ لهم ركزتْ ... فى مدة هى بين الوِرْد والقربِ
حتى لقد ملكوا الأمصارَ مملكةً ... كانتْ بسرعتها من أعجب العجبِ
العدلُ شيمتهم والعفوُ عادتهمْ ... والصبرُ ديدنهم فى كل محتربِ
ما كانت الناسُ فى أيام دَولتهمْ ... إلا سواسيةً فى الحكم والرُّتبِ
من أجل ذالك الرعايا فيهم اندمجوا ... مستعربين وما كانوا من العربِ
والعرب فى يومنا كالطيس[1] إن حُسبوا ... كانوا ثمانين مليوناً لمحتسبِ

* * *

بنى العروبة هبُّوا من مراقدكم ... إلى متى نحنُ نشكو صولة النُّوبِ
فقدْ لعمرى افترقنا شرَّ مُفترقٍ ... وقد لعمرى انقلبنا شرَّ مُنقلبِ
أما تغارونَ ياأهل الحفاظِ على ... حقٍّ لكم بيد الأعداء مُغتصبِ
لاتكتفُوا بافتخارٍ فى أوائلكم ... فنشوةُ الخمر لاتُغنى عن العنبِ
بل فانهضُوا للمعالى مثل نهضتهم ... واستعصمُوا باتحادٍ محكم السببِ
كانت أوائلكم فى وَحدة تركتْ ... أعداءهم قدداً فى قبضة الرَّهَبِ
سَلُوا بذلكم (اليرمُوك) واديهَ ... فإنه بسوى ماقلتُ لم يُجبِ
عن (خالدٍ) بطل الأبطال يخبرنا ... إذ فلَّ جيش العدا بالقتل والهربِ
(والقادسيّة) عن (سعد) محدِّثة ... بقتلِ (رستم) ربِّ العسكر اللّجبِ
إذا علمنا بأنَّ النصرَ طالعهم ... من أفْق وَحدتهم لم يبق من عجب

---

(١) الطيس العدد الكثير

أقولُ والبرقُ يَسْرِي في مراقدهم «ياساريَ البرقِ أيقظْ راقدالعربِ»

حول البسفور

خليليّ قوما بي لنشهد للرُّبا بجانبي البسفور مَشهد أسْرارِ
أجيلا معي الأفكارَ فيها فإنها مجالُ عُقولٍ للأنام وأفكارِ
سُفوح جبالٍ بعضها فوق بعضها مكلَّلة حَافاتهنَّ بأشجارِ
يروق بجنبيها خريرُ مياهها ويُشجي بقُطريها ترنُّم أطيارِ
ويجري النسيمُ الرطبُ فيها كأنه تَبَخْتُرُ بيضاء الترائب مِعطارِ
معاهدُ زُرْها في الهواجر تلقَها موشَّحةً فيها برقَّةِ أسحارِ
نزلنا بها والشمسُ من فوقُ أرسلتْ على مُنحنى الوادي ذوائب أنوارِ
وقد ظلّ من بين الغُصون شعاعُها يوقّع ديناراً لنا جنب دينارِ
كأنّ التفافَ الدَّوح والنّور بينها جيوبٌ من الأنوار زُرَّتْ بأزرارِ
تميلُ إذا هبَّ النسيمُ غصونُها فتأتي بظلٍّ في الجوانب موَّارِ
ترانا إذا ما الطيرُ في الدَّوح غرَّدتْ نميلُ بأسماعٍ إليها وأبصارِ
رياضٌ تنسَّمنا بها الريحَ ضحوةً فنَمَّتْ لنا من طيبهنّ بأسرارِ
يلوحُ بها ثغرُ الطبيعة باسماً فيفترُّ منها عن منابت أزهارِ
مشاهدُ في تلك الرُّبا ومناظرٌ تجلَّت على أطرافها قُدرةُ البارِي

ليلة في دمشق

مَن كان يأرقْ بالهمو م فقد أرقتُ من السُّرورِ

وطربتُ من صوت يجى * إلىّ من غُرف القصورِ
صوتٌ كأن الغانيا * تِ أعرنه هَيَفَ الخصُورِ
ونَضحنَ من ماء الحيا * ة عليه فى شَنَب الثغورِ
سرّى الهمومَ عن الفؤا * دِ بجوف حالكة الستورِ
والعودُ ينطقُ باللحو * نِ بلهجَتَىْ بَمٍّ وزيرِ
يرمى به الصوتُ الرخيـ * ـمُ على الدجى لمعاتِ نورِ
ملأ الظلامَ توقّداً * كالكهرباءة فى الأثيرِ
يحكى الزُلالَ لدى العطا * ش أو الثراء لدى الفقيرِ
أصغيتُ مُنقطعاً إليـ * ـه عن المواطنِ والعَشيرِ
فحسبتُ نفسى فى الجنا * نِ بغير ولدانٍ وحُورِ
وطفقتُ أذّكرُ العرا * قَ فعاد صَفْوى ذا كدورِ
فرجعتُ عن ذاك السّما * عِ وغبتُ عن ذاك الشعورِ
وذكرتُ مَنْ تبكى هنا * كَ علىّ بالدّمع الغزيرِ
تستوقفُ العجلان ثمّـ * ـة بالرنين عن المسيرِ
وتقول من مضض العرا * قِ مقال ذى قلبٍ كسيرِ
أبنىّ سِرْ سَيْرَ الأما * نِ من الطوارق فى خفيرِ
ياأمُّ لاتخشَىْ فإ * نّ اللهَ يا أمّى مُجيرى
ودعى البكاء فإن قلـ * ـبىَ من بُكائك فى سعيرِ
أعلمتِ أنى فى دمشـ * ـقَ أجرُّ أذيالَ السُّرورِ

بين النطارفة الذيـ ـنَ تخافُهم غِيَرُ الدُّهورِ
من كلّ وضّاح الجبيـ ـنِ أغرّ كالبدْر المنيرِ
حُرّ الشمائل والفعا ئل والظواهر والضميرِ

البلبل والورد

إنّ بَليلاً من نسيم السَّحر لما جرَى فى المرَبع المخْملِ
أخبر ريّاه أصحّ الخبر عما جرى فى الرّوض للبُلْبلِ

* * *

إذ هو مُذ ألقى به ناظره من بعد ما ثغرُ الصباح ابتسمْ
صادفَ فيه وردة زاهره والطلّ كاللؤلؤ فيها انتظمْ
مضمومة أوراقها الناضره مثل فمٍ يطلبُ تقبيلَ فمْ
فظلّ يرنو مستديم النظرْ رُنُوّ ظمآن إلى منهلِ
وهى غدتْ مما بها من خَفَرْ محمرّةً من نظرٍ مخجلِ

* * *

ثم تمادى غرِداً صادحاً يعلنُ للوردة أشواقَهُ
ينطقُ بالحبّ لها بائحاً وهى التى تفعلُ إنطاقَهُ
وتنشر الطيب له نافحاً كأنها تقصدُ إنشاقَهُ
حتى غدا البلبلُ منذ الصِّغرْ فى حبّها منطلق المِقولِ
ينشد فيها شعره المبتكرْ ولاينى فيه ولا يأتلى

* * *

أما ترى الأزهار كيف اغتدتْ فراشةُ الرّوض عليها تطيرْ
لها جَناحٌ هى منه ارتدتْ مُلاءةً موشيَّةً من حريرْ
فهى إلى الروضة مُذ وردتْ أرسلها البلبلُ نحو الأميرْ
تحمل للورد أمير الزَّهرْ رسائل الشوق من البُلبُلِ
فشاعَ فى الأزهار هذا الخبرْ واستوجب العطف على المرْسِلِ

* * *

حتى إذا الوردُ مضى وانقضى وعادت الروضة كالبلقعهْ
مسَّت حشا البلبل نارُ الغَضا من حرقة البين الذى أوجعهْ
لاتسأل البلبل عما مضى فى زمن الورد له من دعَهْ
ولـكن اسأل فى السماء القمرْ عن خبر الورد مع البُلبُلِ
إذ كان يصغى منهما للسَّمرْ وهو مُطلٌّ ناظرٌ من عَلِ

* * *

فراشة الروضة ظلَّتْ لذا تحومُ والأزهارُ منْ تحتِها
تقبّل الزّهرةَ ذاتَ الشذا طائرةً منها إلى أختِها
وتسألُ الأزهار عما إذا مرّ فقيدُ الورد من سَمْتِها
لتخبر البلبل بعضَ الخبرْ لعلّه غُمّتهُ تنجلى
فإنه بات حليف السهرْ مُذْ نزح الوردُ عن المنزلِ

خـاتمة

لعلنا بهذا القدر من الدراسة نكون قد وفينا الرصافي بعض ما يستحق من دراسة هو بها جدير ، فالرصافي الذي خدم هذه الأمة العربية بشعره أكثر من نصف القرن ، وشهد الأحداث التي نزلت بها ، وأشاد بعظمتها ، وعمل على رفع لوائها ، واستعادة مجدها ، خليق بأن تشرع الأقلام لدراسته وأن تشحذ لعلاج نواحي عبقريته ، ليكون من وراء ذلك توجيه للأدباء والمتأدبين الذين يقتضيهم الوطن أن يكونوا من خدامه ، ليهبهم الخلود وهو أسمى مايتطلع إليه العاملون الأوفياء من الجزاء .

وإخالنا مقصرين حين نهب ما منحنا من قوة للسابقين من أدباء العربية في الوقت الذي نضفي فيه على معاصرينا سدول التناسي والإهمال، على أن من هؤلاء المعاصرين من لايقل خطراً عن الغابرين حسن أداء ، وفصاحة أسلوب ، وفخامة معنى ، ومن يفوقهم إحساسا بما تكابد أممهم في حياتها السياسية والاجتماعية .

لقد انقضى عهد التكسب والزلفى بالمدائح والمراثي ، وأصبح الأدباء في عصرنا أصحاب رسالة يذيعونها ، ومبدأ يعملون لتحقيق أهدافه ، ولهذا السبب أكبرهم الناس وأقبلوا على آثارهم يجدون فيها ريا لظمئهم، وغذاء لأرواحهم، وأقبل النشأ في هذه البلاد على القراءة إقبالا منقطع النظير ، وهذا مما يجعل التبعة الملقاة على عاتق الأدباء والمفكرين والقادة شاقة ، إذ يقتضيهم هذا استصفاء الموارد ، التي يردها الآخذون عنهم ، والذين يتطلعون إلى الذين يحلونهم منزلة رفيعة ويهبونهم تقديراً كريما .

وليس هذا البحث ، على الرغم مما كلفني من جهد ، سوى لبنة أضعها في هذا البناء، الذي آمل أن يتكاتف أولو الغيرة من ذوي المواهب على إعلاء صرحه ، وهم قد فعلوا ، فنبهوا الناس إلى مايحوي الأدب العربي من كنوز في سائر عصوره

ولـكن جهودهم فى الإشادة بأدبنا المعاصر لم تبلغ بعض ما فعلوا للأدب القديم .

ولقد أقمت فى العراق سنوات ، كانت من أطيب ما عبر من أيام حياتى ، ولقيت فى ذلك البلد العربى الـكريم خير ما يجد راحل عن وطنه ، وناء عن أهله وولده . جئت إليه لأعلم وأفيد شباب هذا البلد بما يظنون أن فى مقدورى ومقدور غيرى من أبناء الـكنانة أن يفيدهم إياه ، فوجدت رجالا يقدرون من يتقرب إليهم بالعمل والجد ، فـكان هذا خير حافز لى على بذل ما استطعت من جهد فى خدمتهم ، وأقبلت على التزود بما يعيننى على تحقيق هذه الغاية لمن منحونى ثقتهم ؛ وأولونى كريم تقديرهم .

فإذا جهدت فى تأليف كتاب عن العراق فى شاعره الأكبر (معروف الرصافى) وذكرت القوم الذين عاش بينهم هذا الأديب النابه ، فإن مرد ذلك كله لهذا العامل الـكريم .

إن الرصافى فى الصدارة من شعراء الجيل ، وقد يتهم بالغفلة من يذهب إلى أن الناس فى هذا البلد كلهم إعجاب بشخص الرصافى الذى أغضب حساده ولم يرض أصدقاءه ، ولـكن لا يختلف اثنان فى إحلال الرجل منزلته من حيث الشاعرية الناضجة الـكاملة، ومن حيث توقد الذهن واستواء ملـكة الأدب ، وخصوبة القريحة ،وليس لباحث فى تطور العقلية العربية فى هذه الفترة من الزمن غناء عن شعر الرصافى ، الذى هو سجل الأحداث التى اصطدمت ، والمشاعر التى اضطرمت فى نفوس العرب فى هذا العصر الزاخر بالحوادث والأحداث .

ولقد أقبلت على هذا العمل بعيداً عن الهوى ، منزها عن مظنة التحامل والمجاملة، وجعلت رائدى الإنصاف فى كل كلمة سطرها يراعى، ولم أحد عن الحق الذى رسمته لنفسى، وجعلته غايتى ، وتحريته جهدى. فـكل ما يجد القارىء فى هذا الـكتاب من رأى فى الشاعر ، أو حكم على أدبه ، فإنما هو رأيى الذى اهتديت

إليه بطول معاناتى للشاعر ، وإدامة التطلع فى ديوانه ، اللهم إلا ما أخذته من غيرى ، وأشرت إلى المأخذ والمأخوذ عنه فى موضعه .

وأنا أسأل الله الكريم أن يجنبنى عجبا يصل إلى الزهو بما قدمت ، أو الاعتقاد بأنه بلغ رتبه من الكمال ليس بعدها غاية ، فما كان هذا دستور الذين يعملون جاهدين لاستكمال أسباب الكمال ، ولا سيما فى الموضوعات العلمية والأدبية ، التى تهدف إلى خدمة الحق ، وتفتح ذراعيها لكل استدراك له قيمة وتعنى أشد العناية بكل ملاحظة كريمة ، فى تحقيق مظنة ، أو تصويب خطأ .

ولئن اعتاد الكتاب والمؤلفون أن يفوا لمن أسدوا إليهم يداً ، أو أعانوهم على ما هم بسبيله من العمل ، ويرون من هذا الوفاء تسجيل شكرهم لأولئك المتفضلين ، فإنى لأذكر بكل خير معالى العلامة الشبيبى حفظه الله ذخرا للفضل والعلم والأدب ، الذى لم يكد يشعر برغبتى فى نظره فى هذا الأثر المتواضع حتى أسرع إلى الإجابة ، إسراع الأجواد إلى القرى ، ونظر فيه نظرة الفاحص المدقق ، ولم تخل نظرته من إشفاق على هذا الجهد ، فجنبنى مزالق لا يؤمن فيها العثار ، وكان فى ذلك ما أشعرنى بما امتاز به من سجايا النبل والإخلاص ، وكانت له فى بعض أبواب الكتاب ملاحظات وتعليقات قبلتها راضياً شاكراً ، وسجلتها لما تحوى من فوائد لقارىء الكتاب لا يسعه الاستغناء عنها .

ثم كانت آية الآيات تفضله بكتابة تصدير الكتاب ، فتفجر قلمه بهذا البحث المستفيض ، الذى يطالعه القارىء أول ما يطالع من الكتاب ، فيطالع حقائق يبسطها الممارس للعصر وأحداثه ، واتجاه أفكار أعلامه وساسته وأدبائه ، ولا غرو فالشبيبى (حفظه الله) من اجتمعت فيه مزايا كل هؤلاء ، ومن عرك هذا العصر الذى عاش فيه الرصافى ، فجاءت كلمته وفيها الحذق والبراعة ، ونفاذ الرأى ، وصحة القول ، حتى كانت وحدها جديرة بأن تكون كتابا جليل الشأن ، عظيم الخطر ، وما ينبئك مثل خبير .

ثم أستاذنا الجليل محمد هاشم عطية الذى أشر بنا حب الأدب ، وهو من قضى أيام شبابه فى التوفر على درسه وتدريسه ، فأجاد وأفاد ، وكانت له هذه المنة المأثورة على متأدبى هذا الجيل ، بما يشجعهم به على ارتياد مجاهل الأدب ، وارتشاف العذب النمير من سلافته ، وقد أسعدتنى الأيام فجمعت من شتاتنا فى بلد كريم ، هو العراق ، وفى معهد عظيم هو دار المعلمين العالية ، فاتصل الود والإكبار والإعجاب.

وقد قرأ كتابى هذا ، وتفضل — جزاه الله ما هو أهل له من الفضل — بكتابة رأيه فى فى الكتاب وفى مؤلفه ، وإنى لفخور بثنائه معجب بنقداته ، فإذا رضيت مغتبطا ما خلعه علىّ مما جرى به قلمه السباق من المحامد ، فإنى جد مسرور بهذه اللفتات الكريمة ، التى تنبىء عن النظرة الفاحصة عما فى الكتاب(١)

ثم أخى الأستاذ أحمد ناجى القيسى ، الذى عناه هذا الكتاب فى جملة ما عناه من شغف بالدرس ، وحرص على خدمة الأدب والأدباء ، فأمدنى بما استطاع من آثار الرصافى ، وما رأى أنه يأخذ بيدى فيما أنا بسبيله ، فإليه أخلص شكرى ، وأطيب ثنائى.

وبعد ، فهذا الكتاب بين يديك أيها القارىء الكريم . ولعلك واجد فيه ما أملت من خدمة أدبنا المعاصر فى نهضتنا ، التى تعتمد أول ما تعتمد على إبراز آثار رجالها ، والإشادة بقادتها ومفكريها ولا يزال الشعراء من هؤلاء فى الطليعة .

والله حسبنا ونعم الوكيل ، ومنه نستمد العون والمثوبة ؟

بدوى أحمد طبانة

وكتب فى القاهرة يوم الإثنين { ٣ من فبراير (شباط) سنة ١٩٤٧ م
١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٦٦ هـ }

---

(١) أصبح أستاذنا هاشم رحمه الله فى ذمة التاريخ ؛ وبقيت آثار علمه وأدبه فيما خط من كتب ، وآثار روحه السمحة الكريمة فى نفوس أصدقائه وطلابه فى مصر والبلاد العربية ، وقد نشرت هذه الكلمة فى الطبعة الأولى ، واقتضى واجب الوفاء إعادتها فى هذه الطبعة تذكاراً للراحل الكريم ، وقياماً بواجب التلمذة العزيزة فى كلية دار العلوم بمصر ، والزمالة الكريمة فى دار المعلمين العالية ببغداد .

رأى فى الكتاب

بقلم المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية

ترجع الصلة بينى و بين مؤلف هذه الرسالة إلى تلك الأيام البعيدة التى كان فيها طالبا بدار العلوم العالية بمصر ، وكان يومئذ يحمل أساتذته بما يظهره من الاهتمام بنفسه على تفقد ما فيه من الصفات ، التى تجعل من مثله أهلا لما يترشح له من التخرج بنجاح فى صناعة من الصناعات العلمية المختلفة . وكنت من بينهم أجد فى شدة صبره على الدرس ، وطول ملازمته للأستاذ وسيلة صالحة للاعتماد عليه فيما يتناول البحث بين الطلاب من فنون الكلام ، حتى جعلت هذه الأمارات الظاهرة فى الكلف بالطلب ، والحرص على التحصيل تقوم من ناحيتها دليلا على استجابة طبيعية لنزعات ثابتة فى نفسه ، كنت أتفاءل لها أنها لابد يوما أن تبرز آثارها ، وتبوح بأسرارها . إلى أن انتهى الأستاذ من دراسته العالية ، وكادت الصلة بينى و بينه يعتادها شىء من الفتور ، لولا أنه كان يلقانى بعد ذلك عابرا أو قاصداً ، فنقضى بعض الوقت فى مطارحات وأحاديث ، يراجعنى فيها دائما إلى شىء من ذكرياته الماضية ، ولم يكن يستطيع فى ذلك الوقت أن يحجب عن عينى بعض ما كنت ألمحه من قدرته على إدارة الكلام ، وتوفيقه إلى استتمام كثير من مسائل العلم ، التى جعلتها نتيجة لازمة لما بقى له من الشغف بالاستزادة وحسن الرأى فى تحصيل ما يسنح من الفوائد ، حتى كان من الحظ أن التقينا هنا بالعراق ، واضطرنا الحال إلى الملازمة والعشرة وجالت بنا الأحاديث مجاولها ، وتأديت بالاختبار والمشاهدة إلى مبلغ ما انتهى إليه الأستاذ من الاطلاع والدراسة ، مما كنت رجوته له ، وتوسمته فى نشاطه واجتهاده ، والمجتهد معان . ولا أكاد أشك فى أن إقامة الأستاذ فى العراق هذه الفترة كانت ذات صلة كبيرة بما صارت إليه مواهبه من التقدم والانسجام ، فإنها هى التى ألزمته بمراجعة حياة الدأب والتحصيل ، كما يفعل الأستاذ الذى يحسب لكرامته العلمية حسابها ، فيرى أنه لا بأس عليه أن يعود ثانية طالبا يتزود و يتجدد ، للدفاع عن نفسه والاحتفاظ بمكانته ، إذا تقاضته الحياة أن يغترب عن أهله ،

وأن يمر بمثل هذه الحالة التى يمر فيها نازح إلى قطر شقيق ، يحاول أن يعطى لأهله مثلا جديداً من الدلالة على ما للمعونات العلمية من الآثار فى إبلاغ نهضاتهم الاجتماعية إلى ما يرتجى لها من التقدم والنجاح .

وقد كانت حياته فى العراق ذريعة موصلة إلى تنمية ما أسلفته الأيام من دراسات ، وما أولته التجارب من علم ، فإن ذلك هو الوقت الذى يتتبع فيه الإنسان على نفسه ، ويجعل من عقله كميناً على أدبه ، وتظهر فيه قدرة المجتهد على حماية نفسه من خداع المغالطة ، فيكثر من اتهامه لمعلوماته ، وبعده عن تضييع الحزم فى ترك التثبت ، واستشارة المراجع وأهل العلم قبل الإقدام على الخطار بالنفس ، والغرة عن مزلة الأقدام ، والناس كلهم عليه رقباء ، يتسقطون منه الهفوات ، ويتوقعون له الزلل . وهنا يكون الاكتساب الذاتى ، وتقع الدراسة الشخصية التى لا يتكون الإنسان إلا بمقدار حظه منها ، وهى التى تصيره فى النهاية إلى أن يكون قياسه فى تحقيق الأشياء ، وعماده فى تقدير الأمور، ما يرضاه الرأى الثاقب والذوق السليم . ولقد أعجبنى من الأستاذ أن سبق إلى هذه المبادرة الكريمة من الاعتراف بالجميل للعراق المضياف ، الذى يجبرنا نحن الأساتذة المصريين بما ليس فى الوسع تجاهله من الحفاوة المطبقة ، والتكرمة الغزيرة الفائقة وذلك بمعالجته لسيرة شاعر عراقى كالرصافى جدير بأن يكون شاعرا عربيا لا يستأثر به العراق وحده دون مصر وغيرها من البلاد العربية . وقد حركنى ذلك إلى معرفة الطريقة التى سلكتها هذه الرسالة فى البحث والمناهج التى اتخذتها أساسا للدراسة ، فأخذت أتفقد بعض أبوابها ، وأترسم خطوات المؤلف ، حتى أسلمنى التصفح إلى الاعتراف بما أحرزته من التوفيق فى تنظيم البحث وتنزيهه من آفات التعصب ، التى يواقعها بعض المؤلفين ، حين يرون أن مجرد اختيارهم للموضوع من الموضوعات كاف وحده فى حسم كل شبهة ، ونفى كل منقصة أو عيب ويفضلونه فى الجملة على غيره ، ويتكلفون المؤن الشداد فى الدفاع عنه فيظهر بذلك كلالهم وتخلفهم ، ويبدون للقراء صفحتهم ، ويحثونهم على توجيه

اللائمة إليهم ، والانصراف عن مثل هذا النمط السقيم من أساليبهم . ولكن المؤلف كان ميزانا عدلا بقدر المستطاع فى توزيع تقريظه ونقده ، بين منازل الإحسان والإساءة ، وعلى مواطن الجمال والعيب فى حياة الشاعر وأدبه فقد رأيته يطوف حوله ، ثم يقتحم مضاجعه ، ويتدسس فى همسات خواطره ، ويكشفه فى حنينه وتهداره ، وفى بأسائه ونعمائه ، ويلتمسه فى الحوانيت ويلاقيه فى المجامع ، ويجليه لمن لم يره ، حتى يجعله كأنه يشاهده بعيانه ، ويتحققه من جثمانه ، وذلك لشدة ملازمته لجادة الاعتدال والصواب فى التحليل والدرس ، وحذره من الإدلاء بالأحكام قبل استيفاء غايته من الاستدلال . نعم ! قد يجمح به القلم فى التنويه أحيانا بشاعرية الشاعر فتدعوه الرغبة فى العبارة ، ومحاولة التأنق فى الوصف إلى صوغ الجمل ، وترديف النعوت ، من ذكر الإبداع والتفوق والعبقرية وغيرها من الكلمات التى قلما تخلو الكتابات المعاصرة من الالتجاء إليها ، وخاصة عند ذكر الشعر أو تقدير حياة الشاعر . ولعل من شفعائه فى ذلك أنه على الراجح يكون مغلوبا على أمره عندما يتعرض لتحرير القول فى أدب الشاعر لدى مقام بارز من مقاماته فى الإجادة ... كما نرى المؤلف يقف من الشاعر موقفا لا يرفق به فيه ، ولا يلين له ، ولكن يصفه كما وضع نفسه من هذه المخزاة فى شعره ، فلم يعف عن أخذه بالكلمة القارصة ، والتحليل اللاذع .

ولا نحب أن ندع الكلام أو نختمه دون أن نحمد للأستاذ المؤلف هذا الجهد الأدبى الموفق ، ونقدر له هذا البحث القيم ، الذى لا نشك فيما سيلقاه به جماهير القراء من التقدير والإعجاب ، وإنه لبادرة كريمة نرجو بعدها أن يتابع الأستاذ هذا النشاط المحمود حتى يبنى للأدب المعاصر ، كما بنت الأوائل ، وفقنا الله جميعاً إلى ما نحن بصدده ، من التوفر على خدمة اللغة والأدب ، والله ولينا ، ومنه نستمد العون ، ونطلب المكافأة ، والسلام ؟

محمد هاشم عطية

الفهرس

الباب الأول

معروف الرصافي

الباب الثانى

شعر الرصافى

للمؤلف

الكتب المطبوعة :

(١) معروف الرصافى :

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية .

(٢) أدب المرأة العراقية :

دراســـــة فى الأدب النسوى وتعريف بشواعر العراق .

(٣) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية :

نال به المؤلف درجة الماجستير فى الآداب بتقدير ممتاز .

(٤) دراسات فى نقد الأدب العربى :

بحث فى حياة النقد وآثار النقاد ومناهجهم من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث الهجرى .

(٥) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى :

نال به المؤلف درجة الدكتوراه فى الآداب بتقدير ممتاز .

(٦) البيان العربى :

دراســـــة تاريخية فنية فى أصول البلاغة العربية .

(٧) السرقات الأدبية :

دراســـــة فى ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها .

تحت الطبع :

(١) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى :

تحقيق ، وشرح ، وتعريف .

(٢) نقد الأدب العربى فى القرن الرابع :

بحث فى مناهج النقد وآثار النقاد فى القرن الرابع الهجرى .

مطبعة الرسالة
شارع حمودة المغاوري ٣ عابدين

